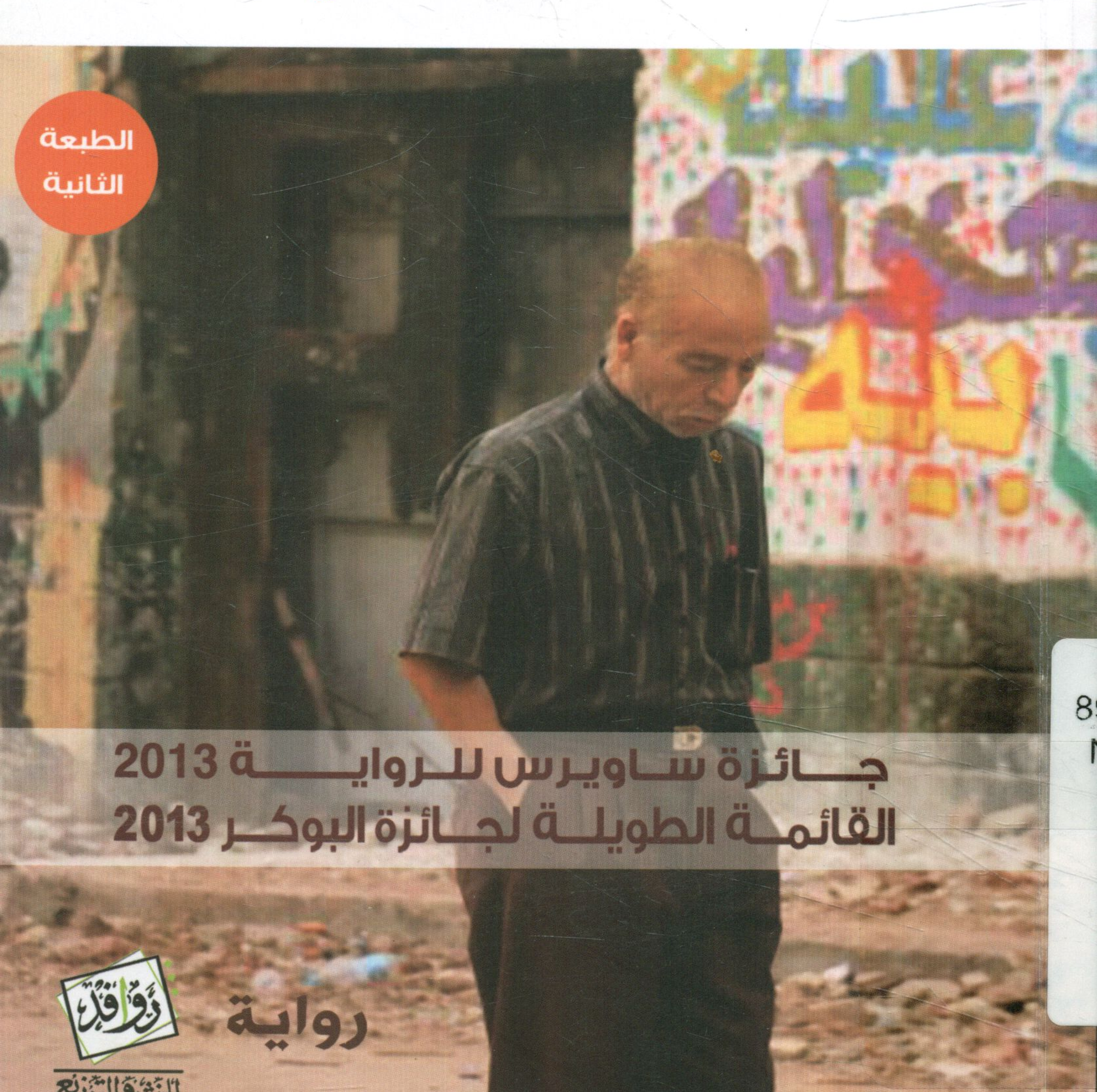
رجوع الشيخ

محمد عبد النبي



الطبعة
الثانية

جائزة ساويرس للرواية 2013
القائمة الطويلة لجائزة البوكر 2013

رواية

روافد
للنشر والتوزيع

رجوع الشيخ

عبد النبي، محمد

رجوع الشيخ / محمد عبد النبي

القاهرة: روافد للنشر والتوزيع. ٢٠١٣ طبعة ثانية

٢٠٦ ص ؛ ٢١ سم

١- رواية

٢- العنوان

أ – المؤلف

رقم التصنيف: ٨١٣ .٠٠٨

رقم الإيداع 2011/16499

الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 6370 -23- 4



روافد للنشر والتوزيع

القاهرة (ج م ع)

تليفون 01222235071 2+

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: محمد الخفاجي

الإخراج الداخلي: أحمد عبد المقصود

رجوع الشيخ

رواية

محمد عبد النبي

إهداء واجب

إلى ضحايا مأساة

مسرح بني سويف،

والآخرين من الضحايا.

إهداء شخصي

إلى صديقي أحمد شافعي؛

المرايا إذن هي كل شيء،

أو كما قال.

تنبيه هام

"فليس ثمة مكان أفضل لحفظ السر

من رواية غير مكتملة"

إيتالو كالفينو

قلعة المصائر المتقاطعة

الدفتر الأول

(١)

اتخذتُ قراري ولن أرجع عنه، رغم معرفتي بأنني سأموت مع كلمة النهاية.. يا سلام! لهذه النبرة كل رعونة الشباب، وكأنني رجعت شابًا من أول وجديد.

سأشرع فورًا في كتابة رواية حياتي، اشتريت دفترين وقلمين واتجهت إلى البار.

بكل همة وحماس قطعتُ الأمتار القليلة الفاصلة ما بين مكتبة أرابيسك ومشربي الصغير شبه الخالي في هذا الوقت من آخر النهار، لأكتب.. بنفس الهمة والحماس المذكورين سالفًا، وقد نضيفُ إليهما الهوس والاستغراق، خواطري المبدئية حول روايتي الأولى، متوهمًا، مثل كل مرة، أنني عثرتُ أخيرًا على طرف الخيط، سقط أمامي فجأة من سماء كئيبة، فأمسكتُ به في صورة قلم "بك"، ورحتُ أنزف حبرًا، أي مأساوية وشاعرية يا عم أحمد يا رجل يا عجوز.

إذا كانت هذه هي روايتي الأولى، وربما الأخيرة، فلابد أن أكتبها عني. وعُذري أنني لا أعرف عن حياة شخص آخر بقدر ما أعرف عن حياتي، وإذا كنت أطمح حقًا أن أكمل الرحلة إلى نهايتها، فالأحسن أن أكتب عما أعرف، ولو بالظن.

إذن قررت، ها هي نبرة الشباب تعود، أن تدور هذه الرواية حول حياة أحمد رجائي، منحني أبي هذا الاسم المُركّب أيام العز، أيام كانت حتى الأسماء فيها بركة، لم أعد أؤمن بالبركة على أي حال، ولا أتساهل في التحسر على الأيام الخوالي، رغم سنّي، ورغم أنها كانت أجمل، بدليل حكاية الموز والقهوة، الحكاية التالية..

(٢)

بعد عامين من عمل أبي، عبد المتعال أفندي دنيا، مدرسًا للغة العربية، بمدرسة حكومية، قرر أن الوقت قد حان ليكمل نصف دينه.

كان هذا نهاية الأربعينيات، بالمناسبة، إن كان لهذا معنى أو ضرورة.

استخار أبي الله، وسافر إلى بلدهم الصغيرة التابعة لمحافظة الشرقية، ليعثر على بنت الحلال، بمعاونة أمه وشقيقاته، وكانت العروس جاهزة، بانتظاره، ابنة عائلة كبيرة من أصحاب الأرض والمواشي والخير، تأخر نصيبها في العَدَل قليلاً لسببٍ ما. جسّت إحدى السيدات نبض الأهل فقوبل اقتراحها بالترحيب رغم رقة حال أسرة العريس وقراريطهم المعدودة، ثم طارت البُشرى تلغرافيًّا إلى المُعلم الشاب في مدرسته بشبرا مصر.

ما هي إلا أيام ونزل أبي، يتيم الأب وقتها، بلدهم ودق باب أهل العروسة، يصحبه عمه الذي أتى على وجه السرعة من طنطا، حيث يعمل إمامًا بأحد مساجدها، في رحاب السيد البدوي. لم يكن الشاب طامعًا في مالٍ أو في نَسَبٍ يرفعه درجة أو درجات، بقدر ما كان يتطلع للجمال، قال لزملائه المعلمين قبل سفره: "الحلاوة رقم واحد في أولوياتي، لو بنت العمدة وشكلها وحش يبقى يفتح الله!". وهكذا اتفق مع العم المُعمم الظريف على حيلةٍ، وهي أن يسأله عمه عن رأيه بسيمٍ محدد بينهما، فلو قدمت العروس الشربات مثلا يسأله عمه عن الشربات، هل أعجبه؟ ومن هنا يفتحان الموضوع.. أما إن لم يعجبه، أو

لم يقربه بالمرة؛ ينصرفان، ويا دار ما دخلك شر. وتَواطأ الأهــل علــى اعتبارها مجرد زيارة تعارف لكي يتسنى للعريس رؤية العروس التي تكبره في السن، كما يُشاع.

استقبلوهم بالترحاب، وأجلسوهم في مندرة واسعة تكاد تكــون مكشوفة للهواء والشمس من الجهات الأربع. وراح الرجال يتبــادلون المجاملات، وبين الحين والآخر تدخل سيدة لتسلم ثم تنصــرف، حــتى دخلت العروس بصينية القهوة. كل شيء أوحى بأنها العروس، زينتــها وملابسها وشعرها المسبسب المطل من تحت غطاء رأسها الأسود، ولكن اللامع أيضًا. مشيتها متخبطة ومتعثرة، كما لو أن عودها الطويل الجاف سوف ينقصف في أية لحظة، وحين اقتربت ومالت لتضع الصينية علــى مائدة واطئة وسط مقاعد وأرائك المندرة، بان وجهها الملون والشاحب رغم ألوانه، وبدت أكبر مما توقع العريس، وأقل حُسنًا أيضًا مما يُرضيه.

غادرت على عجل في حياء أشد، وقد خلّفت في نفس المــدرس الشاب غُصةً ومرارة، ودارَ الحديثُ دون أن ينتبه لأن يرفع فنجان قهوته إلى فمه.

وما هي إلا دقائق حتى ظهرت صبية، لعلها لم تبلغ السابعة عشرة بعد، بثياب سوداء مهلهلة أقرب إلى ثياب الخادمات، ووجه مثل طبــق البلور، وضعت بسرعة وهدوء، بين أيدي الرجال، طبقًا كــبيرًا ممتلئًــا بالموز، ثم ذهبت كأنّ شيئًا لم يكن، فعادت الدنيا لظلمتها أمــام عــين العريس، وهنا خاطبه العم الأزهري الأريب:

ما تشرب قهوتك يا ابني، خلينا نلحق العصر حاضر.

ماليش تقل ع القهوة يا عمي، آني هاكل موز، الموز ده لا يُعلى عليه.

لم يفهم الأهلُ الإشارة، واستاء بعضهم منها، وقال آخرون: "ألف هنا وشفا يا أستاذ". دقائق وفوجئ الجميع بعم أبي يطلب يد ابنتهم الكريمة لنفسه، وكان أرملا منذ عامين، ولديه طفلة وحيدة يشقى بتربيتها وحده في غربته بطنطا. انعقد لسان أهل البنت، وطلبوا منه مهلة للتفكير.

في اليوم التالي، وعلى صلاة العصر، أخذ أبي عمه من يده لزيارة مترلٍ آخر سأل عنه وعرف مكانه، دارٍ طينية من طابق واحد، غير أن البدرَ المنور كانت ابنة أهل هذه الدار. يا سلام على العِبر.

أبوها مسنٌ وطريحُ الفراش منذ سنوات، وأمها تعمل في مختلف الأعمال لتطعم الأفواه، والبنت تساعد الجميع هنا وهناك لينوبها هي وأخواتها من الحب جانب. تململت أم العريس، ابنها الوحيد وطالعة بـه القلعة، ثم سلمت باختياره، على الأقل حتى لا تكون هي الطرف الأضعف في الشراكة بين العائلتين. وحذره عمه أنها سوف يأخذها بالجلباب الذي عليها، فأجاب الشاب: "هآخدها ولو من غير هدوم يا عمي".

أعرف أنني أملأ فجوات الحكايات العائلية قدر ما استطعت، ولكن ما باليد حيلة.

عُقِدَ قران العم وابن أخيه بعد صلاة جمعة واحدة، في المسجد الكبير للقرية. وبعد حفل عُرس مرتجل، وفي حدود ضيقة، أخذ العم زوجته إلى طنطا يتبعه موكب من سيارات محملة بأثاثها وجهازها الذي طال تخزينه، دون أن يدري الشيخ الظافر السعيد ببكرٍ ذات ميراث أين سيضع كل هذا، إلا إذا قرر أهلها شراء مترلٍ جديد لهما. سيختفي هذا العم الأزهري الآن وعلى طول.

وتم الزواج الآخر دون ضجيج كبير أيضًا، آثر عبد المتعال أفندي أن يوفر المال ليسافر بزوجته إلى أحد الشواطئ كما يفعلُ الناس المحترمون. وبعد أسبوع من العسل قضياه في مرسى مطروح جاء بها، بحقيبة ثيابها، إلى شقته المجهزة من مجاميعه، آخر شارع منية السيرج بشبرا مصر، غير بعيد عن المدرسة التي يعمل بها. صورة واحدة بقيت من أسبوع العسل، أصرت أمي وأخواتي أنها على شاطئ الغرام، شاطئ ليلى مراد وحسين صدقي، وقالت إن أبي ساوم المصوّراتي نصف ساعة كاملة حتى اتفقا على السعر، وأنها كانت خجلانة، ولا تعرف كيف تبتسم. في الصورة تبدو طفلة بيضاء متوردة، وحائرة في رحلة للمتعة تخص شخصًا آخر قيل لها إنه رجلها.

أتخيل أن حكاية الموز والقهوة لم تختف من البلدة الصغيرة لسنوات، وأن الناس راحت تردد عبارة "الموز لا يُعلى عليه" عندما يُفضل بعض الشباب الجمال على المال والحَسَب. مع الأيام نُسيت الحكاية وبقيت العبارة معلقة في الهواء، يجهل كثيرون أصلها، وإن ظل الشباب يرددونها على مسمعٍ من الجميلات، وكأنها رمز معلوم فيما بينهم.

(٣)

قبل دقائق، اشتريتُ هذا الدفتر الجميل، من بائع عجوز، يصلح أبًا محتملاً لي أو لأي عابر سبيل، وكأن سِنّه المتقدمة أشعرتني بأنني استعدت حقًّا شبابي، أو لعله سحر هذا الدفتر.

لم أكتف بدفترٍ واحد، بل اشتريت من الأب المحتمل اثنين من النوع نفسه كأنهما توأم. قلت لنفسي إنني لو اشتريت واحدًا فقط، ربما فتح شهيتي أخيرًا على إكمال رواية واحدة للآخر، للسطر الأخير. ثم ترددت، بينما أمسكُ بالدفتر الجميل أمام الأرفف العتيقة بحمولتها المتربة، ماذا لو كان لهذا الدفتر مفعول السحر عليّ ووجدت نفسي أكتب وأكتب، دون قدرة على التوقف، وما إن تنتهي صفحاته حتى أضيع، يصيبني الخرسُ التام، فتعاودني حالة شلل الكتابة التي لا تكاد تفارقني إلا لتعود بعد هدنةٍ طويلة أو قصيرة. الاحتياط واجب، اشتريتُ دفترين من النوع نفسه، حتى لا أضطر للعودة إلى البائع نفسه من جديد، وعلى الرغم من أن البائع لم يكن صينيًّا، وأن الدفاتر ليست صناعة برتغالية، فمن المحتمل أن يجري معي مثل ما جرى مع كاتب آخر، تدفقت من بين يديه الكتابة لأيام طويلة ثم تجمد تمامًا، في رواية الأمريكي بول أوستر ليلة التنبؤ، لكن هذه قصة أخرى، أو رواية أخرى، وليس من المستحسن أن نبدأ رواية بذكر رواية أخرى، منذ سطورها الأولى.

(٤)

بعد أيام، وخلال استراحة قصيرة من خربشة دفتري الجديد الحبيب بشظايا حياتي، أعثر على كتاب الأوراد الصغير الخاص بأبي.

كتيب بحجم كفٍّ طفلٍ رضيع. دفتر أوراد يوثق مسألة انضمامه إلى الطريقة البرهانية. غلافه الأمامي داكن الخضرة يعرض رَسْمَ لفظِ الجلالة، باللون الذهبي، وبالخط الثلث الأنيق، وباللون نفسه والخط نفسه، وفي الطرف الأيسر من الغلاف، ينكمش اسم أبي، إلى حجم دقيق، عبد المتعال محمد دنيا، وتحته اللقب الذي حازه، بعد صبرٍ ومجاهدات للنفس: البرهاني.

وأفتح الصفحة التي تلي الغلاف مباشرة، فأقرأ ما كُتب بحبر طباعة أخضر ليس أبدع منه، التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

مجموعة أوارد

الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية

أبناء

الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني

ص. ب ١١١٤ الخرطوم ٣ ١١١٤١٤

المقر الرئيسي للطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية

بالجمهورية العربية المتحدة — دار سيدى إبراهيم الدسوقي

عمارة مولانا الإمام الحسين مدخل ١ شقة ١

ت: ٩٠٨٩٦١ — تلغرافيا: البرهانية/ القاهرة

انتبهتُ لأمور كثيرة تخص أبي بعد وفاته، أعدتُ اكتشافي له على سبيل الاعتذار. انتبهتُ مثلاً أنه كان يسبح عكس التيار، ففي عز زمان الاشتراكية والاتحاد والعمل والنزعة العلمية والإلحاد كان عبد المتعال دنيا يوغل في الدين، وكأن ما يدور حوله يدفعه إلى ذلك دفعًا، ثم نما ولعه بالتصوف حتى صار عقيدةً وحياة. هل أورثني هذا، هل ترك في دمي هذا الخيط الرفيع المعقود بالغمام؟ ربما، غير أني طوّرت هذا الميل على طريقتي الخاصة.

كان الرجل على وجه العموم لا غبار عليه؛ معلما نبيهًا ومخلصًا لعمله، لولا شيء من الشدة مع تلاميذه. كما كان رب أسرة يتقي الله فيها. لم يعبه، كزوج وأب، سوى صرامته التي ضُرِبَ بها المثل، وشيء من البخل تبقّى معه من أيام الشقاء في العاصمة، أيام كان طالبًا في دار العلوم، لا يتلقى حوالة شهرية من البلد كما كان يزعم لأصحابه، لكنه يجد أي عمل ليوفر مصاريفه ويظهر مستورًا بين الناس.

كثيرًا ما تفاخر، حتى بعد سنوات طوال، بأنه لم يمد يده ليأخذ نقودًا من أمه أو أبيه منذ حصوله على الثانوية وانتقاله إلى القاهرة. أغلب الظن أنه كان يقصدني بتلك التلميحات، أيامَ بطالتي وضياعي بين الدخان الأزرق والكتب على الغرز والمقاهي.

عاد أبي بزوجته الصغيرة الجميلة، واسمها سعيدة، من أسبوع العسل، إلى شبرا، ولم يكن قد أثث من الشقة الواسعة سوى غرفتين – والصالة– بأثاثٍ من دمياط، وجدد لوازم المطبخ وخلافه، بما يليق باستقبال عروسه، وفقًا لتوجيهات أمه وأخواته في البلد، والست مادلين جارته في العمارة بالقاهرة. تقريبًا بدأ حياة الزوجية على فيض الكريم، وعلى أمل في الكريم كذلك.

بعد شهور قليلة من أحداث يوليو ١٩٥٢، فقط لكيلا يتهموني بتجاهل الخلفية التاريخية لأحداث حياتي، وما سمي فيما بعد بثورة الضباط الأحرار، استقبل الزوجان الشابان المولودة الأولى. وفي العام التالي، وقد ظهر الآن أن الضباط أتوا ليبقوا، لحقت بالبنت الأولى أختها الثانية. ومع امتلاء المشهد بصور جمال عبد الناصر جاءت الأخت الثالثة. هنا وضع أبي يده على قلبه، خشية أن تكون خلفته كلها بنات، وجعل يتوسل إلى الله سرًّا وعلانية أن يهبه الولد الذي سيحمل اسمه، واستقر حجرٌ جديد على فؤاده عندما رزقه الله بالرابعة، والتي كأنما أحست بالجو الكئيب الذي استقبلها فماتت في مهد رضاعها، قبل أن يتراكم الغبار على قُلة سبوعها.

أتخيل أنه في تلك الفترة بزغ أول اهتمامه بالروحانيات، كما كنت أسمعه يُسمي ميله هذا، كان يرى أحلامًا ويتقصى تفسيرها في الكتب ولدى بعض الشيوخ من معارفه، وبسرعة غريبة تعرف على البرهانيين واطمأن لصحبتهم وداوم على حضرهم. المهم أن أبي صَفَتْ نفسه، ورقَّ فؤاده، وسلَّم أمره لله فيما يخص خلفته، بنات أو أولاد. وهنا تحديدًا رأى الحلم الشهير في أسرتنا، حيث كان يقف وحده على شاطئ بحر وهو يقشر ثمار موز كبيرة ويتناولها واحدًا بعد الآخر وهو يراقب الموج تحت قدميه، فرأى نورًا رائقًا ينزل إليه من الأفق البعيد، وبصوتٍ مفزع بقدر ما هو رخيم يبشره بغلام ذكر، يكون اسمه أحمد، لكنه لن يعيشَ إلا إذا وهبه له. سأل أبي: لمن؟ أجاب الهاتف: لي أنا. ومن أنت؟ وهنا تذبذب الكيان النوراني وكأنما سيتلاشى، وقبل أن يختفي بلحظة، صاح الحالم: وهبتُه لك! وقام والليل في عزه والفجر ما زال وعدًا بعيدًا في رحم الظلمة الراسخة.

فيما بعد، سوف يتساءل عبد المتعال طويلاً ما إذا كان وهبَ ولده الوحيد لله أم للشيطان، وذلك حين يرى من أمره ما يضـنيه ويؤرقـه. يتساءل وأنا معه، دون أمل في جواب حاسم.

هكذا تتحدد ملامح أساطيرنا الشخصية. فلو أننا أغفلنا الأحـلام والهواتف الغامضة وكائنات النور، ماذا يتبقى للحيوان الوحيد الـذي اختار أن يرتدي ثيابًا؟

(٥)

مع الدفترين اشتريت قلمين من ماركة "بك"، توأم آخـر، بحـبر جاف أسود طبعًا، فلن يختلف روائيان في العالم على تفضيل أقلام الكتابة السوداء. كلفني الموضوع كله ١٤ جنيها، ولست نادمًا على شيء، حتى لو اكتشفت فيما بعد أن الأمر كله ليس سوى نزوة عابرة، تمامًا مثـل أخواتها السابقات، وهي كثيرة.

النزوة نفسها طالما تكررت معي، ولو بدون دفترين جميلين لهمـا مربعات خضراء باهتة وقلمَيْن"بك" بسنَّيْنِ ناعمين على الورق، أحـسّ نعومة أحدهما الآن. أتحدث عن نزوة الروايات التي أبدأها ثم أنصـرف عنها في لحظة ما، دون أن أعود إليها بالمرة. تكرر الأمر نفسه مرات لا تعد ولا تحصى، دون أدنى مبالغة في هذا، فلا يمكن عدها لأنني مزّقـت الكثير من تلك المحاولات، ثم ابتلعه النسيان، على مر السنوات، وبالتالي لن أفلح في تحديد عددها، مهما نبشتُ دماغي.

يتبقى شيءٌ من أطلالها بالطبع، مثل صفحات فلوسـكاب بخـط يدي، باهتة ومنقوشة بسطور جميلة منتظمة، أو بخربشات ورسوم بـين كل سطرين ثلاثة. ودفاتر مدرسية خططت عليها بألوان مختلفـة مـن الأقلام حياة شخصيات فقدتُ كل اهتمام بها فجـأة بالضـبط كمـا شغفت بها فجأة، ثم تركتها هناك، بخطة يدي، معلقة، بلا حل نهـائي لمشكلاتها: المشتبه في مرضه بالسرطان مازال ينتظر نتيجـة التحاليـل بأعصاب تالفة منذ أعوام، الناقد الذي اكتشف وجود شـاب يسـرق كتاباته السرية لم يتوصل إليه بعد، المرأة التي تأهبت لاستقبال عشـيقها لأول مرة مازالت تأكلها اللهفة والخوف على فراشها حتى لحظتنا هذه.

أمثال تلك الأرواح المعذبة بلا عدد، ضع جانبا تلك الشظايا والقصاصات مما فُقد أو أُلقي به في الزبالة، أو حتى لففتُ به "سندوتش" أخذته معي إلى العمل، وتصوروا هذا: الجبن الأبيض القريش بالزيت والشطة والخيار المقشر والمقطع مربعات صغيرة منمنمة، ألقمه بملعقة صغيرة في بطن رغيف فينو كبير بسمسم، وقد أفرغتُ من قلبه اللباب الطري الساخن والتهمت بعضًا منه بسرعة بعد أن مسستُ به الزيت المتجمع على جنب في الطبق، حتى اكتمل السندوتش، ثم أتلفّتُ حولي، فأجد على ترابيزة السفرة كومة ورق، ودون أن أهتم بالمكتوب في أول صفحة قريبة من يدي أتناولها، وألف فيها السندوتش من ناحية البياض، وعلى الناحية الأخرى أجد وصفًا لمكان ما:

ثم بانت الحارة إياها وكأنها النجاة، من بعيد أرتاح لمنظرها، دخلتُها فوجدتُها مسدودة، على جانبيها منزلان متقابلان، يتبادلان النظر في صمت، حارة رطبة وهادئة، لا تسكن الشجرة الوحيدة بها أية طيور، وكأنها معزولة عن أي نوع من الحياة التي نعرفها، متشبثة بحياة أخرى، حياة لا تألف الضجيج الإنساني المبتذل وصخب المخلوقات التافهة، حياة بعيدة عن دقات الزمن المتوالية على رؤوس الأحياء من سكان هذه الأرض، ممتدة، ساكنة، خارج العالم.

لابد أنني تسليتُ وأنا أتناول السندوتش في العمل بتخمين القصة التي كان هذا المشهد سيكون جزءًا منها.

ربما أبدو -من كلامي هذا- وكأنني أتعامل باستهانة وإهمال مع مشاريع الكتابة تلك، ولكن الأمر ببساطة هو أنني لم أشعر بالرضا عن واحدٍ منها، الرضا الكافي لاستكمالها. ربما لو استطاع مشروعٌ واحد منها أن يستحوذ على دماغي فترة كافية من الوقت لسرتُ معه إلى نهاية الشوط كما يقولون.

ربما لو عادت تلك الصفحات المفقودة والمعدومة إلى الحياة لمزقتها من جديد، بعد نظرةٍ خاطفة إلى محتواها، ذلك لأنها ستكشف لي بسذاجتها وتخبطها عن مقدار سذاجتي وتخبطي أنا وقت كتابتها، أنا القديم، أنا المراهق والشاب والكهل، أنا الذي لم يعد هنا وبقي هناك.

(٦)

جرى كل شيء كما يجري في الحواديت والحكايات الخرافية، ومن لا يصدق فهي مشكلته.

نذر أبي على نفسه أن يهب صبيه الأول للواحد المنان، أو ما ظن بعد أن أفاق من نومه أنه هو. ثم وضعت الأم صبيًّا جميلا معافى البدن،(اسمحوا لي بقدر قليل من مغازلة الذات، فالطريق طويلة، ونهايتها مجهولة)، صبيًّا يتباهى بالبياض الشمعي لبشرة أمه، وكذلك بعينيها الزيتونيتين، ولكن هيكل عظامه يُبشر بقامةٍ مثل قامة أبيه، طول بعرض سيكون، فكأنه أخذ من كلٍّ منهما أحسن ما فيه.

تخلى أبي عن حرصه على المال في نوبة سخاء لم تتكرر، ونصب احتفالا استمر ثلاث ليال، من الذكر والمديح واللحم والفتة، تحولت في أثنائه شقتنا إلى مولد من موالد آل البيت، كما كانت أمي تحب أن تقول لي وهي تملّس على شعري ورأسي في حجرها.

أعلن عبد المتعال على رفاقه في الطريقة، أنه وهبني لصاحب الملك، كما أوحى له صوت إلهي في منامه، وأنه سيضعني، على سبيل الرمز، وكما نصحه شيخه، في المسجد ليومٍ وليلة.

هكذا يتخلى عني أبي قبل أن تتفتح عيناي على الدنيا، ويقال إن سعيدة -أمي- مانعتْ، ثم أذعنت أمام صرامة رجلها وسيدها، وكانت تقف بباب المسجد طوال الليل، وكلما صحا الوليد -أنا القديم، أنا الذي في اللفة التي في الجامع- وبكى حمله لها خادم المسجد متبرمًا ومبسملاً.

آن لسعيدة أن تستحق اسمها؛ بعد أن أخذت ابنها من الجامع، بعد أن رزقها الله بالولد.

أمي كانت أستاذة في الاختفاء، الانزواء، عدم الظهور، أو على الأقل طوال السنوات التي كان أبي فيها يصول ويجول، ممسكًا بالدفة، قائدًا سفينة الأسرة الصغيرة في بحر الظلمات. لكنها تسلمت الدفة حين رقد رقدته الطويلة قبل وفاته.

تهيأ لي في بعض الأحيان أنها كانت سعيدة حقًّا، ترى في زوجها المثال الأكمل، والبيت لا يعوزه شيء، والعيال بخير. حتى بخل أبي، على نفسه وعلى من حوله، استطاعت أن ترى فيه خصلة حميدة، في أزمنة تتقلب فيها الأحوال في لمح البصر. بل وعاونته على الاقتصاد والادخار قدر جهدها، حتى كادت تتفوق عليه، عندما تفاجئه بين الحين والآخر بمبلغ تحصلت عليه من جمعية مع الجيران.

نعم كانت قد خرجت من عزلتها، وهزمت خوفها الريفي من أجواء المدينة وناس المدينة. اتصلت بالجيران، من باب الواجب في البداية ثم من باب التعاون الذي لا غنى عنه فيما بعد، حتى نشأت الصداقات الحقيقية، وبالذات مع الست مادلين.

تظهر الست مادلين في هذه الحكاية من أولها إلى آخرها، مثل شجرةٍ أو شبح، أيقونة مغبرة ومنسية أمام ماكينة الخياطة. مازالت تنتظر مروري أمام باب شقتها، حتى تفتحه فجأة لتدعوني إلى فنجان قهوة، وحديث إذا بدأ فلن ينتهي بالمرة.

ومع الوقت تتبدل ثياب سعيدة، وتشع الفتنة الفطرية من قسمات وجهها، والصور تشهد، ويفيض جسمها بتكوينات رشيقة لدنة، أمّا لكنتها الريفية فلم تفارقها لآخر يوم في حياتها.

(٧)

قبل أيام، وفي جلستي تلك بمشربي الصغير، وضع الشاب أمامي طبق جبن قريش بالطحينة والخضر شبه المهروسة، بمجرد أن كتبت عن السندوتش إياه الذي لففته في ورقة من كتاباتي. عرفت من هذه المصادفة الصغيرة اللامعة مثل عملة معدنية وسط طين الشارع، أنني على مساري الصحيح، على الموجة، وأنني سوف أكمل هذا العمل، هذه المرة، وانتابني لذلك خوف غامض وقشعريرة.

قلتُ لنفسي، على الورق، إن تتبع مراحل حياتي، مهما حاولتُ أن أجعل منها شيئًا أسطوريًّا يستحق الخلود، غير كافٍ. ونظرًا للخوف الذي وخزني بدبوسه في البار مع مطلع زجاجة البيرة الثانية، قلت ماذا لو أضفنا لمسة درامية دامغة، من قبيل إن هذا الشخص -أحمد رجائي- الذي يحكي حياته، مهووس، ومسكون بهاجس النهاية، ويعتقد أنه سيموت مع اكتمال روايته الأولى والأخيرة.

انتفعت بخوفي، وناولتني المصادفة الصغيرة طوق نجاة. عملة معدنية لامعة، وأنا عدت عيلا صغيرا: "معانا ريال، معانا ريال، ده مبلغ عال ومش بطال!"

لا شك أن اعتقادي هذا، هاجس الموت مع كلمة النهاية، هو نفسه ما كان يقف بيني وبين إكمال أي مشروع لنهايته. نهايته نهايتي، بالمنطق، هكذا. لكنه هذه المرة يتورط؟ كيف أتورط؟ كيف أتورط؟ يشارك آخرين في المشروع، ربما فتاة صغيرة يشتهيها، أو ربما شاب من شباب الكتاب، مثل الولد أحمد الذي يعمل معي بالشركة، مترجم حر

بالقطعة. للوغد اسمي نفسه: أحمد علي رجائي، هذا هو اسمه الثلاثـــي، غير أن اسمه الذي ينشر به أعماله هو اسمي نفسه: أحمد رجائي. لفـــتَ انتباهي إليه منذ تقدم للتعاون مع الشركة، بسبب اسمـــه، ثم اكتشـــفتُ موهبته ونشاطه، ونما حقدي عليه إلى ما لا نهاية.

بكل همةٍ ونشاط أكتب الآن، ملوثًا هذا الدفتر الذي كان جمـــيلا قبل دقائق معدودة، جميلا ونظيفًا ومطمئنًا بين أقرانه المتشابهين جميعًـــا، المتطابقين جميعًا، هو الآن ينأى عنهم، مع كل سطرٍ أضـــيفه، يـــذهب وحده إلى معركته الخاسرة، نحو رحلة التفرد المستحيل.

هل سيكتب شابٌ في الثلاثين تعبيرات من قبيل رحلـــة التفـــرد المستحيل؟ لا أدري.

هل أكتب الآن، باعتباري أحمد رجائي الشيخ، أم أحمد رجـــائي الشاب الأحمق الساذج؟

أُوغلُ الآن في متاهتي القديمة، من جديد، بدلاً من تتبـــع الخـــيط المؤكد الواحد نحو نور النهار.

لا أريد مرآةً، ولا ظلاً، لماذا لا أُترك في حالي.

وحدتي العزيزة تهزمها المرايا حين تقسمني اثنين، ووحدتي الغاليـــة تطاردها الظلال المدربة ككلاب الصيد، لكنـــها —وحـــدتي الحقيقيـــة الصافية الخالصة— لا تريد أحدًا ولا شيئًا، ولا حتى أن تلـــبس ثـــوبَ حكاية.

بدأت أفكاري تتفكك، ما إن انتهت زجاجة البيرة الثانية.

مهلاً، لابد أن نصل لشيء قبل أن نقوم إلى ســـهرة الصـــيدلية في

شبرا، مع العيال الشائخين مثلي. إذن، يقترح أحمد رجائي الشيخ على رجائي الكاتب الشاب، بأن يكتبا معًا قصة حياة الشيخ، بحيث يدعم أحدهما الآخر، أي يُقدم الشيخ تجاربه وتاريخه عن طيب خاطر، بينما يبذل الشاب حماسه ودأبه وخفة روحه، وهكذا يكتب الاثنان روايتهما الأولى، وإن كانت مشتركة، فيوافق الشاب، ويعتبر العرض شرفًا له، بابتسامةٍ تجارية، ثم تبدأ بينهما جلسات العمل بانتظام.

ومع ذلك، فلم أستقر بعد، هل تكون روايتي الأولى عبارة عن قص ولصق من جميع محاولات الكتابة السابقة غير المكتملة، أم مشاهد من حياتي الخاصة، من طفولتي وحتى يوم شراء الدفترين؟

أم أن السبيلين يؤديان لنفس النقطة؟

سوف أستفسر من رجائي الصغير في أول لقاء لنا.

(٨)

لم يكن عبد المتعال بحاجة إلى تفكير طويل ليقـــرر الطريقـــة الـــتي سيعتمدها في تربيتي، أنا ابنه الصبي الوحيد. فإن كانت الشدة هي منهجـــه مع الجميع في البيت والمدرسة، فمعي أنا تجلى هذا المنهج في ذُروته ونقائه.

بعد سنواتٍ من موته رحتُ ألتمس له الأعذار، قلت إنه كان الولد الوحيد، مثلي، ديك البرابر، أتى على أورطة من البنات، سبقنه أو لحقن به، ومع ذلك لم يتلق لهذه الميزة أي قدر من التدليل والرعاية الخاصة، بل على العكس تمامًا. رباه جدي، المزارع الأمي، تربية البهائم، بالعصا والتلطـــيش والسب. لكي يصير رجلا، وقد صار. كان يجبره على العمل في حقـــول الناس في أثناء الدراسة وفي الإجازات على السواء، ثم يقبض اليومية بـــدلا منه، أم يريد أن يأكل مجانًا من عرق أبيه الشقيان؟ ومن ناحيتـــه، يـــدخر جدي، ويضيف مزيدًا من القراريط إلى رقعته الصغيرة.

كان التحاق عبد المتعال بدار العلوم، وسفره للقاهرة، حكمًا بالإفراج عنه. لم يعد بعدها لبلدهم إلا لساعات معدودة نادرًا ما امتدت ليـــوم أو اثنين، ومع ذلك فقد بكى أباه بالدموع ليالي، كما كانت تردد أمي.

وهكذا سارَ الأب الجديد على الدرب نفسه مع الابن الجديد، وقـــد أحس أنه لو لم يتلق هذه التربية الصارمة من أبيه الراحل، لما أصبح رجـــلا يملأ العين، كما هو الآن، وربما أحس بالذنب، لأنه كره أباه الميت كراهية ساذجة، فأراد أن يبر به بعد موته بأن يتبع معي النهج القبيح ذاته.

الحمد لله، لم يرسلني أبي لجمع لطع الدودة، أو لشـــتل الأرز، أو لتكسير البطيخ، أو دش الذرة. من ناحية لا توجد غيطان في شبرا مصر،

ومن أخرى ماذا سيقول الناس عن مدرس محترم يرسل ابنه الوحيد للسخرة. غير أن لكل بيئة طرقها الخاصة في الترويض.

يوقظني لصلاة الفجر من سن السابعة، أكذب أحيانًا وأقول إنني أحببت هذا الطقس الروحي البديع. يعاقبني بالمسطرة المعدنية الطويلة، على باطن اليد أو ظاهر الأصابع الممدودة، حسب نوع الخطأ. لا أطلب تعاطفًا أو شفقة، فمن عاشوا هذه الحكاية جميعهم الآن موتى، حتى هذا الطفل الصغير الذي لم يعد هناك ما يربطه بي. أنا الذي هناك، في الصور، في الذكريات، في الأوراق الرسمية. قبل التحاقي بالمدرسة بفترة طويلة كان قد وضع لي برنامجًا صارمًا وعرفت القراءة والكتابة حتى قبل أن أتعرف شكل الشارع والناس فيه، وكذلك الجمع والطرح، وحفظت جزء عمّ وبعض سور تبارك. كنت أبقى في رعايته هو، بعيدًا عن أمي أو أخواتي، ما دام موجودًا في المنزل، وهو لا يكاد يخرج، إلا للصلاة، فيأخذني معه، أما الحضرة الأسبوعية فمقصورة على الكبار من أبناء الطريقة.

في هذه الغرفة نفسها، كان يعكف على عمله، وعيناه لا تغفلان عني. يصحح كتابًا أو مخطوطًا أو رسالة ماجستير، ينظفها بقلم الحبر الأحمر، من أخطاء الإعراب والإملاء والتركيب، أو يقرأ، إن لم توجد أعمال تصحيح لغوي أمامه، في كتبه القديمة ذات الروائح الكريهة. الكتب لم تزل تزاحمها كتبي الآن، ولا ولد لي لأتابعه بعيني يحل مسائل الحساب ويحفظ صغار السور. أو لي ولد، ولكنه بعيد، أبعد من أن أصل إليه، أو أن يتواصل معه أي شخص آخر.

كنت أنام في غرفة الكتب، وأتصورها عفاريت، تصحو بعد أن ينام أهل البيت. أبيت فيها وحدي، بعيدًا عن غرفة الوالدين وغرفة البنات

المتكومات في غرفتهن الواسعة المطلة على المنور، ومنتهى طموحي أن يَسْمح لي بالمبيت معهن، حتى لا تنفرد بي عفاريت الكتب، ولكي نغني معا، ولو بأصوات هامسة ومرتعشة، ونحكي حواديت حلوة، حتى يلطشنا النعاس. ولكن لا، لكي لا تمسحه البنات فينسى أنه ذكر ويصير كأنه واحدة منهن.

أجلس الآن، أنا رجائي الشيخ، في الغرفة القديمة ذاتها، وحولي أشباح الموتى المغلفين بجلود فاخرة، على الأرفف، متذكرًا أحمد الآخر، الطفل الذي هناك، وهو يتظاهر بالتركيز في واجباته المدرسية. بين الحين والآخر يلتفت الصغير نحو أبيه، يقوم بهدوء ويتناول من رفٍ -بالكاد وصلت له يده- كتابًا صغيرا من كتب أبيه الصوفية الغامضة. لعلني كنتُ الطفل الوحيد في العالم الذي قرأ طواسين الحلاج وهو دون التاسعة من عمره، وظننته دروسًا في الجبر والهندسة حين رأيت كل تلك الدوائر والمثلثات، فأتوجه لأبي -وكان رائق المزاج ساعتها لسببٍ ما- ليشرح لي تلك المسائل والرموز، فيضحك أبي ضحكة صغيرة، ولكنها تدغدغ أذني أحلى دغدغة، فما كان أندر ضحكه وخلو باله، ويمسح ماءً خفيفًا عن عينيه، ويمسد رأسي قائلاً شيئًا من قبيل إن رجالاً بلا حصر أفنوا حياتهم في فك تلك الطلاسم، فأضحك متشجعًا بمزاجه، وأغمغم، مجاريًا له: "ياااااه! دي لازم صعبة قوي!"

رغم أنه شرح لي يومها أن الطواسين، جمع طاسين، حرفين من حروف بدايات السور القرآنية. وأنه كتاب لمتصوفٍ كبير قتلوه بعد أن حكموا بكفره ظلمًا، اسمه الحلاج، فقد أصررت على قراءة الكتاب حتى صفحته الأخيرة، و لم أفهم منه كلمة واحدة، مثل أغلب كتب أبي، التي تحيط بي الآن كأنها جنود قائد مقتول، ينتظرون عودته.

(٩)

في المقام الأول، لم أشتر الدفترين ليكون أحدهما لي والآخر لأحمد رجائي الصغير. بل فعلت ذلك مخافة أن يحدث لي كما حدث مع ذلك الكاتب بطل رواية الأمريكي بول أوستر.

بعد حادثة ورحلة علاج طويلة، يبدأ هذا الكاتب، واسمه نك على ما أذكر، في التعافي، ويُراود الكتابة عن نفسها، في محاولات مضنية، ليخرج من الأزمة المالية ويستعيد نفسه وحياته.

يعثر بضربة حظ على دفتر كتابة برتغالي، في متجر اسمه قصر الورق يملكه صيني غريب الأطوار. تعجبه الدفاتر البرتغالية، بل تفتنه. كانت بسيطة ومتينة، اختار الأزرق. يقول الصيني: لا برتغال بعد اليوم. ويقصد إنه لن يرد إليه شحنات أخرى من تلك الدفاتر. في اليوم نفسه، وفي غرفة عمله، تأتي الكتابة، ببساطة. وتتابع الدوامات الصغيرة المتشابكة، حبكات تتفرع عنها حبكات، رواية أخرى داخل الرواية. ثم يصل بطلنا إلى طريق مسدود. اتخذ الدفتر الأزرق قراره الخاص، ولا كلمة واحدة أخرى، لا مزيد.

بطل تلك الرواية التي يكتبها نك سيبقى في محبس غامض تحت الأرض، لا يستطيع خالقه الأدبي أن يخرجه منه مهما فعل. إنه مخبأ قديم، مجهز لمقاومة قنبلة هيدروجينية، بحوائط مزدوجة سمكها أربعة أقدام، وحتى السقف مبني بخليط من الجبس والإسمنت شديد الصلابة ليكون منيعًا للغاية. والشخص الوحيد الذي يمتلك مفتاح هذا المخبأ، ويعرف بأمر صاحبنا بوين، يسلم الروح في المستشفى دون أقارب أو أصدقاء من حوله. انتهى الأمر، حبسة نهائية، لا مزيد.

إنها لعنة الدفاتر البرتغالية. المشاريع الروائية السابقة تقف صفًّا طويلا، لا يظهر له أول من آخر، ترسل إليّ بنظرات الشماتة، والتهديد أيضًا.

لكنَّ دفتريَّ الحبيبَيْنِ معي، هنا، يساندانني. في أحدهما –هذا الذي أخربشه الآن– أسجل أفكاري ونواياي حول روايتي التي سوف أكتبها في الدفتر الآخر عن حياتي ومشاريعي غير المكتملة، بمعاونة من أحمد رجائي الصغير. ولكن ماذا لو توقف الأمر عند حد التفكير في العمل دون العمل نفسه، التخطيط للأبد لشيء لن يوجد أبدًا. الدفتران التوأمان يرنو أحدهما نحو الآخر في صمت وبلاهة. يفصل بينهما سطح المرآة، أنا واسمي، أنا وظلي، أنا ورجائي الصغير. دفتر تمتلئ صفحاته بغابات من الأحلام والأكاذيب، والآخر أبيض يا ورد، جديد، بشوكه، لم يُمس، دون كلمة واحدة تلوث مربعاته الخضراء المنمنمة.

ألن يكون من الأفضل، أمام تهديد كهذا، أن أعمل بروحين. قدمٌ هنا في هذا الدفتر، وقدمٌ في الآخر، هناك. أخطط وأكتب، أو ربما أكتب وأخطط. أحد الدفترين هو المتن والآخر الهامش، للتعليق والتطوير ورسم العلاقات.

ولعل كل تلك المخاوف لا أساس لها هذه المرة، وهي عاقبة التفكير في روايات الآخرين، والتمحك في حبكاتهم وشخصياتهم. ليس عليَّ سوى أن أنسى تمامًا تجاربي السابقة، المعلقة في الفراغ، كأشباح مهددة، كهذه الكتب القديمة المحيطة بي، قلعة الورق الجوفاء. كلُّ ما عليّ أن أكونَ جديدًا ونظيفًا مثل هذا الدفتر، أن أستعيد حماقة الشباب وشجاعته العزيزة. ما الداعي للفزع ولستُ كاتبًا من الأساس؟ لم أنشر كلمة، ولا ينتظر مني أحدٌ شيئًا، على عكس رجائي الصغير، ورغم سن الثلاثين يصول ويجول في الأوساط الأدبية. الريفي الساذج الذي جاء غازيًا المدينة.

كلا، بل أنا كاتب، رغم أنف المزيفين والمهرجين. وإن كنتُ كاتبًا سريًّا، أتكفل بوأد نصوصي بيدي، قبل أن يقتلها الزمن والنسيان وإساءة التفسير.

يبدو أنني تعبت، ورفاق سهرة الحشيش يمطرونني بالرنات على المحمول. يكفي هذا اليوم، وسأتظاهر -أمام ظلي على الأقل- بأنني مازلتُ أمسك الخيط بين يدي.

سأحكي لهم الليلة حكاية قصر الورق، عندما يأتي دوري في لعبة الحكايات المعتادة. سأحرِّفها كما أشاء، ومنها سيدركون أنني عاودتُ الكتابة على مشروعٍ جديد لن يرى النور، ولن أُطلع أحدًا منهم عليه. سوف تنمو أفكاري مع الدخان بسرعة، كأنها شجرة مسحورة تزهر زخارف شرقية، فألقي عليهم محاضرة مقتضبة تدور حول رمزية قصر الورق في هذه الحكاية، وحول خوف الكاتب من شبح العجز عن الكتابة، أو ربما خوف الشيوخ أمثالنا من العجز الجنسي. أحدثهم ونفسي عن القلعة التي نشيدها بالكلمات، على أساسٍ من هواء، القلعة الهشة المسحورة التي تشبه قصة حياتي.

(١٠)

أذعنُ لأبي، ماشيًا في ظله، في عالم مغلق علينا وحدنا. وأحمد شاطر، أحمد نبيه، أحمد يحفظ القرآن بسرعة، ما شاء الله، لابد إذن أن الواحد المنان هو الذي طلب من عبد المتعال أن يهبه له. وأكبر بسرعة، عقلي يتقدم جسمي على الطريق، ولا أعرف ماذا أفعل مع عفاريت خيالي. ربما تكون هذه الحكاية معادة وقديمة وتكررت حتى حُفظت، لكنها تستمر في الوجود وإعادة إنتاج نسخ جديدة منها. وسريع الضجر عليه أن يلوم الحياة نفسها التي لم تمل حتى الآن من إنتاج الليل والنهار والضحك والبكاء.

في عهد براءتنا لا نميز بين أنفسنا وبين الآخرين، يكون كل شيء واحدًا، تقريبًا. لم يكن هناك حاجز بيني وبين البنات، كنت لعبتهن الأثيرة. فقط يغلق أبي الباب من خلفه فيسرعن نحوي، وإن كنت مازلت نائمًا أيقظنني، أحمد، أحمد، قم نلعب. ويبدأ العيد، ويستمر حتى ناقوس الخطر، مفتاح أبي في الباب. يمتد العيد ما بين الصالة والمطبخ والحمام والشرفة، وقد يتجاوز شقتنا إلى شقة الست مادلين. لي صورة أبيض وأسود عزيزة على نفسي، أقف فيها فوق ترابيزة سفرة الست مادلين، بجلباب مضحك وقد حزموا وسطي بإيشارب، وعلى رأسي زعبوط، وأنا أرقص على إيقاع التصفيق والغناء. لابد أنه عيد ميلاد ابنها عماد، أو هكذا قالوا لي فيما بعد. كنت عندها في الخامسة أو السادسة على الأكثر. أين كان عبد المتعال ساعتها؟ كيف أفلتنا منه؟ أبدو في الصورة مثل نموذج مصغر للفنان محمود شكوكو.

الأعياد تنتهي بمجرد أن تبدأ، ولن تمسحني البنات بمسحتهن، فمفتاحُ هذا الولد في يد أبيه. وفي الوقت المناسب سأعود إلى حفظ صغار السور، تحت عينيه. أغلق هو الباب دون الجميع سواه، هو والكلمة. كيف تعلمت القراءة بهذه السرعة رغم الخوف والغل؟ كيف أحببت القراءة رغم ظل أبي الجاثم فوق جرمي الضئيل؟ أم أنها كانت مهربي الوحيد منه؟ فتح لي هو باب المتاهة، واحتفظ بالمفتاح حتى نزل به إلى مثواه الأخير.

في مراهقتي سريعة الزوال، أكادُ أبكي بين صفحات ثلاثية نجيب محفوظ، وأنا أعاين في مترل السيد أحمد عبد الجواد الصورة الأصلية والأكثر اكتمالا لبيتنا وأسرتنا. وكأنني كنت أقرأ قصة حياتي المكتوبة سلفًا، وإن اختلفت الأماكن والأزمنة، وبطبيعة الحال وجدت نفسي في كمال عبد الجواد، بل وتوحدت به لسنوات. رأيت نفسي هذا العصفور المغرد رسول الغرام وناقل الأخبار. أهيم مع كمال في حب عايدة شداد، وأتخيل بنات الست مادلين، أغيرهن بين صفحة وأخرى من قصر الشوق، مادام لم يوجد أي شيء حقيقي بيني وبين إحداهن، وأتعذب معه بسببها وأنقم معه عليها. ثم أكفر بالحب، حدث هذا معي بدون عايدة شداد، وبدون قصة حب عُذرية، ثم أنشد السلوان من كذبة الحياة في بحر المتع والشهوات، وسوف يستمر معي هذا طويلاً، إلى الآن؟ ومثل كمال أوقفت حياتي على سؤال المعرفة والحقيقة، واستغنيتُ عن الدنيا وما فيها بالسر المطوي في قلب الوجود.

سوف أسألُ كثيرًا أينا الأصل وأينا الصورة، هل الأصل هو المكتوب، حبرًا أسود على ورق، أم الذي يعيش بجسمه وانفعالاته في دنيانا هذه؟ هل أنا الصورة وكمال حيٌّ لا يموت؟

مع الأيام يتسعُ السجن، وتختلف أسواره لحسن الحظ، ففي المرحلتين الإعدادية والثانوية صار الحبسُ زنزانة واحدة ممتدة ما بين البيت وفصول المدرسة، وصرتُ لعهدٍ طويل ابن الأستاذ عبد المتعال، الشاطر النبيه، الذي يجلس في أول صف. وكافحت كفاح اليائس لأكسبَ أصدقاء لا يكترثون لابن الأستاذ عبد المتعال، بل يكترثون لأحمد، أنا القديم، أنا الذي هناك في مساحة صغيرة وراء الفناء، أشدُّ أول أنفاس السجائر، مع بعض العيال من شبرا، وسوف نظل مخلصين للعادة ذاتها، حتى بعد أن شابت العيال وصارت الأنفاس أحلى وأغلى ثمنًا.

(١١)

خلاص. عرفتُ من أين أبدأ رواية حياتي، كيف تاه هذا عن بالي؟ أم أنّ هذه المُقدمات المطولة مجرد استدراج للذات، مناورات لخداعها، بحيث يؤجل هذا الشيخ البائس لحظة انكشافه قدر ما يستطيع؟

أجمل الروايات على الإطلاق ما تحكي قصة حب، حب نتمنى جميعًا أن نعيشه ذات يوم. طبخة مضمونة مئة في المئة، محليًا وعالميًا، ومن زمان وحتى قيام الساعة.

سأبدأ من حكايتي مع منى، التي جاءتني على كبر، مثل انتفاضة أخيرة لطير ذبيح، أنا الطير وليس هي. نزوة أخيرة للشيخ الذي يتوهم رجوعه إلى صباه، وقد ظننتُ أنني فقدت كل قدرة على الحب. نعم، سأبدأ من النهار الأغبر الذي قابلتها فيه أول مرة.

أقول مثلا: يُحكى أن شابًا قد استيقظ ذات صباح، في مصر، بمطلع الألفية الثالثة، ولم يجد حوله ما يشغله، فقرر ببساطة أن يرمي بنفسه أمام قطار الأنفاق، خط شبرا – الجيزة، وتحديدًا من محطة روض الفرج، بينما كنتُ موجودًا في العربة نفسها.

سياقٌ في غايةٍ من الكآبة! أهكذا يمكن أن تبدأ قصة حب؟

أقولُ كنتُ جالسًا بالعربة وكل انتباهي موجه لكتاب صغير عن سارتر بين يدي، وعلى بعد خطوتين صغيرتين كانت مُنى، تقف في ثياب سوداء، وكأنها مُستعدة مُقدمًا لحادثة انتحارٍ مُفاجئة، كمن يستعد لأمطار مفاجئة بمظلة، رغم الربيع.

مهلاً. ماذا عن الليلة السابقة للقائي الأول بها؟ أظنها مهمة. في

تلك الليلة ساءت حالة قرحة معدتي، وحاولت أن أنام. ضبطت منبـه المحمول، ثم أغلقته ووضعته بعيدًا. أدرتُ الراديو فانبعث صوت الشـيخ محمود علي البنا دافئًا ودسمًا، بآيات من سورة يوسف، أحسن القصص. أطفأتُ نور الغرفة وتكورتُ تحت البطانية وتناهى إلى مسمعي القـرآن طمأنينة وسلامًا، وسرعان ما رُحتُ في النوم. ما هي إلا ساعة تقريبـا وصحوت بعينين مبللتين وكأنني بكيت في نومي. نزعتُ بدني من دفء الغطاء واندفعت مترنحًا بين أشباح عتمة خمسين عامًا تتـربص بي. ولا أدري كيف وجدتني أمام حوض الحمام أتقيأ بعض ماء أصـفر غلـيظ القوام، فيه خيوط حمراء لا تكاد تلحظها العين، ثم رفعت نحـو المـرآة وجهًا طمستْ معالمه الدموع وخيوط العرق وضباب الحلم. ولكن بماذا حلمت؟ ماذا رأيت؟ ما الذي نبهني لدموعي وألم معـدتي وضـرورة التقيؤ؟

لو أن عندي أجوبة شافية لأسئلتي تلك لما بكيتُ في منامي، ولمـا أصبت بقرحة المعدة من سن الثلاثين. لو عندي إجابة واحدة شافية لمـا استيقظتُ من نومي على كلمة باترة، هتف بها هاتفٌ غامض، في حلمي المنسي.

تلاشت الكلمة نفسها في الفراغ دون أن أتمكن من الإمساك بها، لكنها تركتْ أثرًا، ترامى صداها يرج أعصابي ويحرك ما بمعدتي من بقايا عشاءٍ هزيل.

اغسل وجهك أيها الحالم لتعود إليك تجاعيدك آمنـة مطمئنـة، والأشواك البيضاء المتناثرة حول فمك المزموم. وددتُ لو أسأل المـرآة: أين وجهي يا مرآتي القديمة؟ لكنني لم أفعل.

لو أن عندي جوابًا واحدًا لسؤال مرآتي لما لملمت ظلي حـــولي، ووضعت على جسدي الروب الذي ورثته عـــن أبي وأكرهـــه، لكنــه يدفئني، ولما تلفعت بكوفية لم أرثها وأحب لونها الأحمر، ولما خرجت في حماية كل هذا الصوف إلى الشرفة، في قلب ليل يناير الجميل القاســي. هكذا وقفت أدخن سيجارة حشيش صغيرة اســتأذنت الصــحاب في الاحتفاظ بها لنفسي، منتظرًا طلوع النهار، متفقدًا ألــوان الســماء، أو السلخة المستطيلة التي تبين منها على الأقل، بعينين محميتين أيضًــا وراء نظّارة تتغير عدساتها بانتظام، حتى توهم الناظر منها بأن قوة بصره كما كانت، بلا وهن أو انحسار.

شعرت حينها أنني أعرف حقًّا من أنا، وتناهى إليّ نداء فيلســوف إيطالي من عصر النهضة يصيح بي، من وراء سُبات شارع منية السيرج، مستفزًّا وجودي الهش: "اعرف نفسك، يا سليل الأرباب المتــواري في حلة فانية". شكرًا يا عم! إنني أعرف من أنا، أنا صورة، خيال، شــبح، ولنُعبِّر عن الأمر ببساطة، فكأنني لستُ سوى شخصية في حكاية مكتوبة بلا أية عناية.

(١٢)

صرتُ أعيش بين عالمين لا يجمعهما إلا أنا وظلي، مع أول كتاب قرأته غير دروس أبي والقرآن الكريم. أول كتاب أفهمه كاملا، وكان قصة موشاة برسوم ظريفة ومرعبة، اشترتها لي أختي الكبيرة، وأنا مريض، وسرَّبتها لي من وراء ظهر أبي. قصة دكتور جيكل والسيد هايد. كتاب صالح لجميع الأعمار، وجميع الأذواق، ولا يموت بسهولة كما تموت أغلب القصص. مازلت أذكر لذة فاقت كلَّ لذةٍ للحواس، وأنستني ألم الغدة النكفية التي ورمت لي خدي. هنا شيء آخر غير القصص القرآني البديع، شيء مرعب وخطير كأنه كتاب مسموم، مثل ذلك الذي قتل الملك يونان في ألف ليلة. وهذا الرجل، كيف صار رجلين؟ كيف توصل لوصفة سحرية قسمته اثنين مختلفين تمامًا؟ ومن يومها ولم تعد مكتبة أبي هي حدود شغفي أو منتهى طلبي. لم تعد ترضي النهم الجشع لقراءة القصص، وكل ما ينتمي إليها بصلة. وفي اللحظة المناسبة، كما في الروايات البوليسية يظهر عماد ابن الست مادلين ليفتح أمامي مغارة علي بابا. كان يكبرني كثيرًا، ربما بثلاثة عشر عاما أو نحو ذلك، ومكتبته تختلف تمامًا عن مكتبة أبي، فإذا كانت كتب أبي يجمعها الواجب والمقاصد السامية، فالرابط الوحيد بين مقتنيات عماد هو المتعة، وأكثرها كانت من الكتب المترجمة حديثًا. افتح يا سمسم، وغرقت في الكنز، ذهب، ياقوت، مرجان، أحمدك يا رب!

ويتبناني عماد ثقافيًّا، كما يقول، بنحافته وهدوئه وطراوة لفتاته وصوته، والكمان الذي يحتضنه كأنه معشوقته، تقول أخواتي البنات

"كمنجة"، وهو يقول "فيولينا"، ويعرفن أن الارتباط به مستحيل، كما أنه ليس مطمعًا بين الرجال. رغم أنف الأب، أو تحت أنف الأب، امتد جسرٌ من الروايات ما بين مكتبة عماد وغرفة أحمد. وجعلتُ أتساءل ماذا لو اطلع أبي على بعض تلك القصص، هل سيضرم فيها النار، أم أنه قد يستمتع بها ويلين فؤاده للشخصيات والمواقف والمفاجآت، وربما فوّت الموعد المقدس للحضرة، من أجل أن يتابع آلام فرتر، أو ليعرف مصير غادة الكاميليا، أو من الذي قتل الأب كارامازوف. هناك كتابٌ واحد على الأخص تمنيتُ أيامها لو يقرأه أبي، نبي جبران، برسومه البديعة وأسلوبه الساحر، ربما لأنه أقرب تلك الكتب إلى عالم أبي وميوله الروحية، ولكن في صورة شفافة وطليقة.

كلُ شيء كان يمضي في سلام مادام طي الكتمان، ومادمتُ أحافظ على تفوقي في الدراسة، ولا أنسى ما حفظته من القرآن.

يزداد انبهاري بعماد مع الأيام، بذكائه وسعة اطلاعه وشخصيته المثقفة الرقيقة، وحتى ميله للعزلة وعدم اتخاذ أصدقاء حاولت أن أقلده فيهما. أتساءلُ الآن أحيانًا عن طبيعة عماد نفسه، وإذا ما كان مثّل لي النموذج الأول للمثقف الحر الذي سأتبعه فيما بعد؟ القراءة المضطربة العشوائية، لا يُرشدها إلا الفضول والمتعة، والهرب مما يحيطُ بنا، سواء كان اسمه الواقع أم الحياة أم مصيدة الفئران، الهرب من الحكم بالحبس إلى ألف حياةٍ حرة، نعيشها ونصنعها بين الصفحات، لا لنعرف الحق ونقترب منه، كما طمحَ أبي، بل ليصبح كلٌ منا شخصًا آخر، ولو لبعض الوقت، تمامًا مثل الدكتور جيكل والسيد هايد.

وبضربة حظ موجعة، انتقلت مكتبة عماد، في كراتين عديدة، من

شقة الست مادلين إلى شقة أستاذ عبد المتعال، تحت سريري تحديدًا. قرر عماد أن يهاجر وانتهى الأمر، أخفى عن الجميع ترتيباته وأعلمهم فقط قبل السفر بأيام معدودة. قال، كما أذكر، بغموض، شيئًا مثل أنه لا يجد نفسه هنا، أو أن طموحاته لا تجد لها متنفسًا في جو مصر. وسمعتُ كلمة استراليا ورحت أتخيلها جنة، كالتي عاش فيها نبي جبران، ولكن عماد سيعود، هكذا أكدتُ لنفسي، تمامًا كما اشتاق النبي عند جبران لموطنه الأول. لم أدرك قدر ارتباطي النفسي به، أخًا كبيرًا ومرشدًا لي، إلا حين سافر، وبكيتُ كل ليلة قبل نومي لأسابيع، وأنا أقول لنفسي إنه لابد سيعود كما عاد النبي في قصة جبران.

صحيح تألمتُ لهذا الرحيل والانفصال المفاجئ عن بوصلتي في محيط الكتب والقراءة والعوالم الأخرى، غير أن هذا الألم سعى جنبًا إلى جنب فرحتي بمكتبة عماد الصغيرة. ومع الأيام راح يتروي الألم والفرحة تترسخ، كلما أوغلت في متاهة الحكايات والأشعار والفلسفات. ولم أصدق نفسي أول الأمر، حين وافق أبي على وجود تلك الكتب بالمترل، شرطَ ألا تعطلني عن المذاكرة. عندئذٍ أدركتُ أننا نبالغُ أحيانًا كثيرة في تقدير حجم العفاريت في الليل، بسبب الظلام والخوف، وإذا ما أضأنا نور الغرفة لن نجد بها غير وجهنا المفزوع في المرآة.

(١٣)

أفسد الآن روايتي بنفسي، كما أفسدت حياتي من قبل. لم أكد أبدأ حكايتي مع مُنى حتى انحرفتُ عن الطريق، مستجيبًا لتلك العواطف المبتذلة ومشاعر الوحدة المثيرة للشفقة. أطبطب على جرحي وأتسول به، كعادتنا جميعًا.

لم يكد المتنحر المسكين يعتلي خشبة السرد حتى أزحته بكتفي بعيدًا، مثل المتزاحمين عند دخولهم عربات المترو في محطته الأولى، لضمان الفوز بمكان للجلوس.

المترو. فكرة أخرى نيّرة. قد تدور الرواية كلها في أجوائه. يكون هو الديكور الواسع المحيط بها، وقد أبدأ من مصادفة لقائي بمنى، ثم أنتقل إلى رحلاتي اليومية من وإلى شركة الترجمة بالجيزة، وبالطبع الكوابيس، التي تهاجمني باستمرار، وتتخذ لها من المترو خلفيةً وساحةً.

بين الأنفاق، في عالم ما تحت الأرض، سوف أهيمُ كالمجذوب باحثًا عنها، عن منى، مثلما شوهد المجنون ينخل تراب الطريق بحثًا عن ليلى، وحينما سأله أحدهم متى كان الدُر الطاهر كامنًا في تراب الطريق، قال إنه يبحث عن ليلى في كل مكان. ويمكنني أن أختلق، بمساعدة رجائي الصغير، لقاءات أخرى بيني وبين مُنى. لقد سبق وأن سجلت فعلاً، ومن فترة طويلة، كثيرًا من المشاهدات والملاحظات حول عالم تحت الأرض، هذا العالم نفسه الذي سجن فيه بطل رواية لم تكتمل داخل رواية أخرى اكتملت. في حالتي لن يكون حبسًا انفراديًّا، بل معتقل جماعي ممتد في جهات المدينة الأربع، شرايين سرية، يسكنها النمل الأعزل، يذهب ويجيء، لسنوات ودهور، دون أن يعرف أن هناك، بالأعالي، شمسًا وهواء. كابوس سياسي؟ فليكن، ولَمَ لا؟

اتخذ الشاب إذن قرار إنهاء حياته الجوفاء، تناول إفطاره في

الصباح، عادي جدًّا. ووقف على رصيف محطة روض الفرج، ترك القطارات تمر من أمامه. وربما يتمنى في خفايا عقله وقوع مصادفة من نوعٍ ما، بل شيء أضعف من مصادفة، فإذا كانت المصادفات التي راحت تحبك غزلها من حولي قد تصلح رواية، ولو مفككة الأوصال، فهذا الشاب لم ينل مصادفة واحدة هشة تمنحه قصة قصيرة، لن تُكتَب، لأسبابٍ جمالية غالبًا. فلم تظهر أي علامة تثنيه عن نيته، تجعله يتردد قليلا ويتساءل، يخاف أو يؤجل التنفيذ ليوم آخر.

لم يظهر، من الفراغ، حصان أسود يركض على طول قضبان القطار، وبالطبع لم تتجل السيدة العذراء أمام أعين الركاب المنتظرين على الرصيف. كلا، وأكرر بيقين سوف يحسدني عليه سكان الأوليمب، لا بد أنه كان ينتظر شيئًا أكثر بساطة، كان سيكتفي مثلا بأن يلحق به أبوه في المحطة، متقطع الأنفاس، لأن ابنه نسي الملف الأنيق وفيه كل الأوراق اللازمة للبحث عن وظيفة. بكل أسف لم ينسَ أوراقه، فها هي معه، شهادة الميلاد وشهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية، والمؤهل الجامعي، أيًّا كانت الكلية التي تخرج منها بتقدير جيد منذ عام، وربما سنجد صحيفة الحالة الجنائية، أو كشف السوابق، أو ما تسميه ألسنة الناس "الفيش والتشبيه"، دون أن يدري أحد من أين جاءت هذه التسمية المخيفة، وفيه أطراف أنامل هذا الشاب، مرسومة بهباب أسود، هل هو زفت؟ هل هو حبر من أسوأ الأنواع؟ حبر مشبوه؟ حبر لا يصلح لكتابة رسالة حب أو قصة قصيرة عن منتحرٍ شاب صباحيّ؟ المهم أن هذه اللوحة الفنية الحكومية تؤكد أن صحيفةً سوابقه ناصعة البياض، لا تشوبها شائبة، ويمكنه دخول جنة الوظيفة، في أي قطاع خلقه ربنا، من أوسع أبوابها.

يكفي هذا، لقد استهنتُ طويلا بإرادة هذا الفتى، لقد اتخذ قراره.

لن يحول دونه وقتل نفسه شيء، لا مصادفة ولا علامة، حتى ولو اتجهت نحوه فتاة في الثلاثين وتبدو أصغر من ذلك كثيرًا، سمراء وحلوة وبضة قليلاً، وتُشبه من الآخر سعاد حسني في أفلام مثل الزوجة الثانية والقاهرة ٣٠، واسمها بالمرة مُنى، منى البربري، لتقول له: "اسمع يا بني، لا جدوى من هذا، فلنعش مادمنا أحياء، ولم يقتلونا بَعْدُ غرقًا أو حرقًا أو استهانة وتجاهلا. أنا أيضًا فكرتُ في الانتحار، لكنني وجدت أن العيش للنهاية، بكل ما في كياني من طاقةٍ على الحياة، هو الرد الوحيد على سفالتهم! كبّر دماغك وتعال أعزمك على شاي". لم يرد عليها الشاب، ليس لأنه منشغلٌ عنها بمصيره الخاص، بل لأنها لم تره، ولم تتحرك نحوه وفي فمها هذا الكلام الغريب، ولعلها لم تركب من روض الفرج، بل قبلها بمحطة أو اثنين. الواقع يقول، وله الكلمة الأخير كما نعلم، إنها كانت معي في عربة واحدة عندما ألقى بنفسه أخيرًا أمام القاطرة الأولى.

فلأرسم لهذا الولد صورة أخيرة. إنه قمحي البشرة، ممشوق القوام، عريض الصدر، نحيف الخصر، له عضلات غير متضخمة، ولكن جيدة التكوين. باختصار لن يجدوا نموذجًا خيرًا منه إن أرادوا نحت تمثال يصور الإنسان المصري الأصيل، المكافح العظيم، من بَنى الأهرامات والسد، ولم يستحق قصة قصيرة مع هذا لأسباب جمالية بحتة، منها ابتذال الفكرة؛ شاب عاطل متخرج حديثًا من الجامعة، يفشل في الحصول على عمل فيلقي بنفسه تحت عجلات مترو الأنفاق. انسَ، لا تنفع.

ومع هذا أظن أنه قد اعتاد الاستيقاظ مبكرًا. من زمان وأبوه يردد: قم تنفس هواء الصبح العليل، قبل أن تفسده أنفاس الخبثاء من الناس. لماذا كلما أردنا الاختباء من الأب يطل علينا من بين السطور؟ لماذا يكون للآباء كل هذه القيمة والسطوة على حكايات الأبناء؟ أقول هذا أنا الأب، حبيس المتاهة، ولي ولدٌ متوحدٌ بنفسه في متاهةٍ أخرى بعيدة.

(١٤)

لابدّ أن الإنسان مخلوق جاحد وطمّاع بفطرته، فما أن تهاون أبي قليلاً معي وأفلت العنان حتى رحتُ أبرطع هنا وهناك. هل أحسّ أنني أوشك أن أصير رجلا فآثر أن يتركني أتمرن على تحمل المسؤولية والاستقلال؟ لا أدري، المهم أنه لم يتسلط عليّ كما كان سي السيد مع أبنائه، حتى بعد زواجهم وعملهم، وإلى أن هدّه المرض. كأنّ أبي شعر بنوعٍ من الغربة نحوي حين رآني أكبر وأناهز الحُلم، أصابه ارتباك، ضاعت من بين يديه العجينة الطرية سهلة التشكيل.

البلوغ دملٌ لا يذبل ولا ينفتح ولا يُداوى ولو كويناه بالنار. نشاطٌ أخرقُ ونفسٌ جامحة، وعذابٌ كل ليلة، يطوف بهذا كله الإحساس بالذنب، وعدم الانتماء لهذا العالم، وحيرةٌ ما بين الرغبة في الرجوع إلى جنة الطفل الذي كان، أو التعجيل بالانتقال إلى هذا المرفأ البعيد المجهول.

بلغتُ مبكرًا للغاية، أو هكذا أظن. قرب نهاية المرحلة الابتدائية، وارتفع حاجزٌ جديد بيني وبين ما حولي، بيني وبين أمي وأخواتي على الخصوص. أما الرجل الكبير فقد آثر الابتعاد في صمت، ولَم لا نقول الابتعاد في جُبن، وكأنه لا يدري شيئًا، غير أنه راحَ يراقب في حذر، وإنْ من مسافة آمنة.

كنت أتقلب بين العادة السرية والقراءة، كمن يخرج من حمام ساخن ليقفز في بحيرة باردة. والقراءة نفسها تثيرني بعض الأوقات، فأنهضُ لأفعلها من جديد. النار والجنة، واللعبة مستمرة وتكاد تبدو بلا

نهاية. لماذا لم يدلني عماد، قبل أن يهاجر، على حل لهذه المشكلة؟ ما نفع كتبه وموسيقاه في حُمى الشهوة؟ هل هي حقًّا قذارة يا عماد؟ هل ستتفق في هذا تحديدًا مع بعض كتب أبي العتيقة؟

بقي عماد معي، رغم هذا، حاضرًا بين صفحات كتبه. كنت أتيتُ على نصفها تقريبًا، وأجد أثر عماد وأرى طيفه كلما عثرت على خطوطٍ مرسومة بأناقة تحت سطر أو عبارة أو فقرة كاملة، بالقلم الرصاص أغلب الأحيان. وكنت أجده حين أقرأ تعليقًا بخطه كتبه بسرعة على الهامش، ساخرًا أو متألمًا أو مؤيدًا أو معجبًا وحسب. كنت أمسكُ بقلمي وأفعل كما فعل، وأتناقش معه، على الهوامش الضيقة للصحفات. سأنتبه فيما بعد إلى خط يد عماد، لم يتغير خطه خلال جميع كتبه، هو نفسه، منمنم وواضح مع هذا، على عكس خط يدي الذي تغير مئات المرات خلال سنوات عمري، دون أن أعرف لذلك علةً معقولة. لكن طيف عماد كان يتوارى من وراء عفاريت البلوغ وشياطين المراهقة ومردة الليالي المُلتهبة. اعتبرتُ هجرة عماد أيامها جرحًا لن يندمل مدى الحياة، لكنه طابَ أسرع مما تخيلت، مثله مثل غيره، ما سبقه أو ما لحق به، كله يمر، كله يُنسى، في الروايات فقط نظن أن الأشياء باقية، وأن كل شيء تمام، وأن الذاكرة مثل بنيان مرصود بلا صدع أو خلل. أجدُ صعوبة الآن في تذكر ملامح عماد بوضوح، ولولا صوره المتناثرة على جدران غرفة الضيوف في شقة الست مادلين لنسيتُ شكله تمامًا.

لا وقت للمزيد عن عماد، انتهت حكايته وخلاص. بعد هجرة عماد بسبعة أعوام انتحر بحبل معلق في سقف غرفة نومه بمسكنه في

أستراليا. وتناثر كلام حول قصة حب غير معتادة، مع مُهاجر مغربي في منتصف العمر. كانت قد وردت لأمه صورٌ لهما معًا، بعد أن تبناه المغربي صاحب المطاعم والفنادق واستضافه في بيته ومع أسرته. ماذا حدث تحديدًا؟ لا أحد يدري. ولعلّ انتحاره لم يكن له أي صلة بعلاقته تلك، وربما العلاقة نفسها مجرد شائعة خبيثة. لا أحد يدري. حين سمعتُ بهذا الخبر لم أكن بحاجة إلى حكاية مثل هذه لكي أقطع الحبل السُّري بيني وبين عماد وعالمه. لم أحزن، لم أشعر تقريبًا بأي شيء، ربما غثيان خفيف، إحساس مادي وجسدي تمامًا، أقرب إلى دوار البحر. كنت أيامها قد شققتُ الطريق نحو الخارج، نحو الشوارع والمخدرات والتسكع مع رفاق السوء، بخيطٍ في يدي يشدني للبيت مهما ابتعدت.

انتصب عضوي لأول مرة أثناء حصة علوم بالصف الخامس الابتدائي، انتصابًا واضحًا قويًّا ومستديمًا، وكان قبل ذلك مجرد نبضات عابرة ولا معنى لها. كانت هذه هي العلامة الفارقة، لأن شعري كان دائمًا، ومن صغري، غزيرًا، فلم أهتم بأشياء مثل شعر العانة أو شاربٍ يخطّ مثل الأولاد الآخرين. برزتْ الأزمة مع بروز هذا الإصبع المجنون من تحت خصري، حيث راح يتصرف على هواه تمامًا، فيمد نفسه، في أبعد الأوقات عن التوقع أو الملائمة، وكأنه إصبع طفل يشير للحلوى التي يود الحصول عليها، حتى وإن لم ير أمامه أي حلوى.

رحتُ أرهف السمع لألتقط كل ما قد يصل إليّ حول تلك المسائل، حول لقاء الذكر بالأنثى، وحول طبيعة شيء الرجل وطبيعة شيء المرأة. ولم يروِ عطشي شيء، لا المعلومات المتناقضة والمخيفة الشائعة بين تلاميذ المدرسة، ولا كتب أبي. آه، أبي، المرة الوحيدة التي

أضطر فيها لأن يتعامل مع مراهقتي بجدية حين ضبطني في الفراش ممسكًا بقضيبي المنتصب من تحت سروال البيجامة بيد، وبيدي الأخرى كتابه رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه، قارئًا للمرة العاشرة ربما حكاية المرأة التي كانت تُفضل الغلمان والولدان حتى أقنعتها جارتها الحكيمة بأن تجرب الرجال الناضجين، على يد أخيها المجنون بحب المرأة، وهيأت لهما اللقاء، وكان ما كان مما يهز الأركان ويعصفُ بالبُنيان.

فتح أبي الباب، وبنظرةٍ واحدة أدرك ما يحدث، تجمدتُ أنا وثبت نظري على الملاءة التي تغطيني. بصقَ ثم تراجع وأغلق الباب. ضاع انتصابي ولم أعثر على الكتاب بعدها لسنواتٍ طويلة. وانتظرت العقاب بنفاد صبر حتى أرتاح وأخلص، لكنه لم يعاقبني، بل أخذني من يدي وألحقني بمركز شباب الساحل، وأسلمني هناك للرجل الذي فتح لي جميع أبواب الحياة والمغامرة؛ كابتن طلعت رحمه الله.

(١٥)

عندما لا أدس أنفي العجوز بين صفحات يحلو لي أحيانًا أن ألحظ الشباب. يُلفتون نظري دون عداهم من الأطفال أو كبار السن. تلك الدائرة النارية البديعة التي تتراوح من الثامنة عشر حتى مشارف الثلاثين، الأولاد منهم والبنات، ألحظهم بعينٍ تستعينُ على الشك في قدراتها بنظارة تزعم لها يقينًا إلهيًّا، فأتساءل، وهم من أمامي ومن ورائي يركضون ويلهثون حتى على سلالم المترو الكهربائية تطلع أو تنزل بهم، أتساءل، بنبرةٍ غريبة على يقين الآلهة: "لماذا يُسرعون هكذا، بخطواتٍ واثقة ومُتقدة؟ نحو أي هدفٍ غامض وبديع يا ترى؟" ولماذا أُفرطُ إلى هذا الحد في الاستعانة بالنعوت، بعد كل اسمٍ تقريبًا؟ كان بمقدروي أن أقول مثلاً: "نحو أى هدفٍ يسعون؟" وخلاص، غير أن الهدف سيبقى مع ذلك غامضًا عليَّ، وبالتالي فهو بديع شأنَ كل غامض. أما الخطوات فهي بالنسبة إلى مشيتي المترددة المتوانية يحق لها أن تنالَ كلَّ أوسمة الحماس والثقة والاتقاد الموجودة في الدنيا.

لو أعرف أجوبة شافية لما تحدثت بنبرة شيخ يحسد الشباب، يحسد فتوته وتعجله، ولما أدركتُ، مع مطلع ذلك الفجر نفسه، بيقين لا ينال منه حتى الآلهة على قمم الأوليمب، ومهما تشككت النظرة أو احترزت العبارة وترددت النعوت، أنني لست أكثر من شخصية في حكاية يتم التلاعب بها من قبل صاحب القلم، والقلم نفسه، هذا إذا وضعنا جانبًا الكلمات نفسها والحروف، وعلامات الترقيم، واحتمالات لا متناهية تؤدي إليها أخطاء الجمع والطباعة وكل ما قد ينجم عن السهو والغفلة والنسيان.

فلأحاول من جديد أن أعبر دون تعقيدات عن حالي ليلتها ونهارها: كنت أتوق لأن أقول لأحدهم إنني نمت نومًا سيئًا ليلة أمس، وصحوت مفزوعًا قُبيل الفجر على نداء عجيب. كنت أود لو أشكو لشخصٍ ما، ولو كان أصم وأبكم وأعمى، لكنني كنت وحدي، وكانت مُنى ما زالت فكرة في خاطر كاتب الرواية، بعيدة عني كل البُعد، ومن يستهن بخطوتين تفصلان بيننا، فليتذكر أنه سيلزمنا موت شاب لنقطعهما، شابٌ نَبتَ من تراب هذا الوطن ولعن هذا الوطن من كل قلبه حيًّا وميتًا.

آه، الشاب، لقد نسيتُه مرةً ثانية، فلنرو عنه ما تيسر ثم نفرغ تمامًا لحكايتي مع منى، حكاية الحب هي طوق النجاة الوحيد من احتمالات الخَرس وجفاف القلم؛ شبح الدفاتر البرتغالية. لنقل مثلاً إن رجفة سرت بأطرافه، قبل أن تتحول إلى انتفاض يستبد بجسمه كله، ولنقل أيضا إن عرقًا باردًا يتفصد من مسام جلده رغم يناير الذي نعتناه من قبل بالجميل القاسي. ثم يداهمه عطش لم يجرب من قبله عطشًا في مثل شدته وإلحاحه. من جانبي يُهيأ لي أن كل شيء سوف يسبق لحظاتنا الأخيرة، في قيد هذه الحياة، سيكون تجربة غير مسبوقة، سيكون فريدًا، ومكتوبًا بعناية مذهلة، مثل فقرة أخيرة، تسبق كلمة "تمت" مباشرة، في رواية مُفردة، بلا سوابق أو لواحق، لشيخ مستوحش كمجنونٍ، حبيس قبو من عشرات السنين، نسي الكلام ونسيته المعاني. الواحد على أي حال لا يموت كل يوم، لا يسعى للانتحار كلما غلبه السأم، فهل أسمح له بالتراجع الآن، دون أي معجزة أو مصادفة، لمجرد أن يروي عطشه الفريد، كلا، سيموت هذا الشاب كافرًا حتى في نظر أقرب الناس إليه، فليمت ظمآن أيضًا!

هذه هي إذن متعة كتابة الروايات، المتعة التي تسري في أوصال من يكتبني، المتعة الدنيئة التي انتقلت إلينا عدواها عن أسلافنا الآلهة المتفرغة للعب واللهو بمصائر المخلوقات الفانية، حتى ولو كانوا بشرًا من حبر أسود على دفتر مسطر بالمربعات الصغيرة، خطوطها تتقاطع كما تتشابك قضبان سياجٍ في سجن، هكذا أراها الآن، وكأنني أنظر من وراء تلك السطور المتعامدة رأسيًا وأفقيًا، أنظر من الناحية الأخرى للمرآة، امنحنيني وجه الإله يا مرآتي القديمة! أصرخ أنا الأسير الجميل، والصفة الأخيرة محض مجاملة ذاتية، على سبيل العزاء والسلوان، ومن يستطع منكم الاستغناء عن النعوت فليلقها بحجر.

كنت أوشك، عند تأملي لهؤلاء الشباب، أن أستوقف واحدًا منهم، مثل هذا الولد الذي أراه حاضرًا في محبسي الآن، بعد أن مات وشبع موتًا، واحد من هؤلاء المتعجلين والمفعمين بالفتوة واللهفة، فأهمس له بالسر المقدس لسكان الأوليمب، وكأنني قد اطلعت عليه في عزلتي بوصفة سحرية خارقة:

تمهل فلا أحد يسبق الزمن يا بني، تمهل، وتذوق نبيذ عنفوانك قطرة قطرة، لا تسفحه هكذا —حرام، هذا نعمة!— بلا ضرورة، على أرصفة اللهاث والمواعيد الخاوية والذهاب والمجيء.

ليكن، سوف أستعيد هذا الشاب ولو على الورق، إنها روايتي الأولى، ولي مطلق الحرية في ارتكاب كل الأخطاء الأدبية التي سجلها تاريخ الكتابة ويحفظها النقاد المتربصون بكل سَطر.

لم يكن بوسع ذلك الشاب، بسمرته النيلية المعروفة في أرجاء

العالم كله، حتى في يومه الأخير على كوكبنا هذا، أن يتكاسل في فراشه لبعض الوقت، لقليلٍ من الوقت، ليحلم حلمًا حارًّا وفاضحًا، فيصحو في حال غير الحال، لأنه اعتاد الاستيقاظ مع النداء،"الصلاة خير من النوم". أين ذهبت طراوة أنفاس الصبح؟ يبدو أن الخبثاء يستيقظون مبكرًا للغاية هذه الأيام يا أبي، أو أنهم لا ينامون. لا جدوى من التردد ومراوغة الوقت، لكل شيء نهاية مهما تحايلنا على كلمة الختام. تناول ملف أوراقه واتجه نحو محطة المترو.

أي بني؛ تمهل، فلا داعي للعجلة، لأن كل آت قريب، وفي العجلة الندامة. أي بني، اسمع، أتعرف؟ لقد قضيت ليلة سيئة، ولم أكد أنام وقرحة المعدة هاجمتني قرب الفجر مثل لصٍ جائع، وأظنني سمعتُ كلمة في حلمي، لكنني فشلتُ في تذكرها، وما زاد المبلة طينًا أنني أبكي في أحلامي.

أي بني، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك. تمهل، قبل أن تنزل إلى محطة المترو، قبل أن تسجن نفسك للأبد في عالم ما تحت الأرض، لن يفتح لك الباب أحد، ليعيدك إلى النور والهواء، مهما كتبوا عنك القصص والروايات، وما هم بفاعلين، فلن يعيدوك إلى الحياة هؤلاء الشيوخ الكذبة، وأنا منهم. نحتوا تماثالك وقتلوك، وانتهى الأمر.

أي بني، امسح على جلدك –الآن، هنا– بقروش الشمس الذهبية والمبذولة في سخاء لا يصدق، حتى في صباحٍ من يناير، وشدّ خيوط الهواء الحريرية عميقًا إلى داخل جوفك، حتى لتنتفخ بطنك، المشدودة هذه، من الشبع والرضا.

النور والهواء كافيان لأن تنتعش أنت، فتنتعش بدورها القطة السوداء التي تسكننا ونسكنها، ولها ألف اسم، وإن كان أشهر أسمائها هو الروح. ماذا ترجو أكثر من ذلك؟ ماذا يمكنني أن أفعل لك حتى أثنيك عن عزمك؟ لديك كل شيء كان عندي، الشباب والعافية والضوء والأكسجين؟ ماذا تريد؟ وظيفة، لا تتعجل، ستجد سجنك، فالسجون أكثر من البشر. أتكفر بالنعمة؟ أليست الحياة نعمة، مجرد الحياة، الحياة وحدها، الحياة وحسب، الحياة فقط، الحياة الحاف، الحياة في ذاتها ولذاتها وبذاتها، الحياة الحياة نعمة، ومن يرفسها أعمى؟

أعرف كيف انتحر هذا الشاب، ولكنني لا أدرى كيف انتحر ذلك الشاب الآخر، تدريجيا وقطرةً قطرة. أيهما كنت أحاول أن أستعيد وأستمهل قبل قليل؟ الشاب الذي كنت أراه، على صفحة مرآتي، في زمان مضى وانقضى، ولم يتبق منه غير فتات من الصور والذكريات. رأيته كثيرًا، كل يوم تقريبا من حياتي السابقة، حتى ظننت أنه باقٍ إلى الأبد، وكأنه يعيش حقا في خلود مستحيل: غدًا سأفعل وأفعل، المستقبل ما زال بعيدًا في علم الغيب، ومن حقي أن أخطئ كأي شاب.

لم ينتحر ذلك الشاب، ولكنه اختفى كأن لم يكن، تركتُه محبوسًا ليتغذى على الكتب والكلمات، وذهبت أنا للوظيفة، بين الكتب والكلمات أيضًا، وخيط لا يُرى يربط بيننا.

ثم تولد منى، لا مثلما تولد الحكايات والأساطير، تدريجيًّا وكلمةً بعد كلمةٍ، بل مثلما تولدُ المصادفات فجأة من قلب النظام المتوقع الرتيب. تولد المصادفات فنتنبه قليلا، أو كثيرًا، لتلك الروح الخفية المهووسة باللعب، بنا أو معنا، لا يهم، فهي هنا. قد تختفي، ولكنها لا

تغيب تمامًا؛ لا تكل ولا تمل من إلقاء رسائلها المشفرة في البريد المسجل، على عناويننا الشخصية، وبالاسم الثلاثي: يلتقي أحمد رجائي عبد المتعال محمد دنيا بفتاة خمرية بديعة الجمال، بين قوسي موت، لا بل بين قوسي انتحار. يعثر على صورة شخصية له وهو شاب بين طيات كتاب ديني من كتب أبيه القديمة، لم يفتحه منذ أكثر من عشرين عامًا. يجد كتاب رجوع الشيخ مغطى بأكوام من التراب فوق صوان ملابس أبيه وأمه.

أيتها القطة السوداء الكبرى، يا أم هذا العالم، يا ذات العشرة آلاف روح والعشرة آلاف اسم والعشرة آلاف وجه، ضرباتك لا تكاد تتوقف يا جدة النمر الحبيس في المتاهة. لماذا أنا؟ لماذا لم تتركيني نسيًا منسيًّا في عتمة بئري؟

(١٦)

كانت الورقة الصفراء العتيقة مطوية عشرين مرة تقريبًا، مثل حرزٍ حقيقي، ومع هذا تعرفتُ عليها من النظرة الأولى.

قمت برفع بنورة مائدة السُفرة، حتى أتأكد. ليس في الأمر هنا مصادفة أخرى، مثل كل تلك التي تتوالى على رأسي منذ اتخذت قراري بكتابة رواية حياتي. لم تكن مصادفة مثل تلك التي أوقعتني على كتاب الأوراد الخاص بأبي قبل أيام، فهذه هي الورقة الوحيدة بين الصور المنثورة تحت لوح الزجاج، والمختفية مع ذلك تحت ركام من الكتب والمجلات والصحف، هي نفسها الدعاء الذي جعلتني أمه، في لحظة غامضة من صباي، أنسخه لها بخط يدي، لكي تثبته مطويًّا طيات بلا نهاية، في حلق باب شقتنا. محاولة شجاعة منها لترد عن البيت وأهله زوارًا محتملين وغير مرغوب بهم من عوالم أخرى.

محاذرًا ألا تتفتت بين أصابعي رحت أفضُّ الورقة، وبي رعشة خفيفة ومضحكة، وكأنني أنفض الغبار عن هيكل سري لإلهة أنثى لها ملامح أمي سعيدة. رحتُ أقرأ ما كتبته منذ أكثر من أربعين عامًا، بخط الصبي الواثق المنتظم:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول رب العالمين

إلى من طرق الباب من العمّار والزوار،

أما بعد:

فإن لنا ولكم في الحق منعة، فإن يك عاشقًا مولعًا،

أو فاجرًا مقتحمًا، أو زاعمًا حقًّا مبطلا؛

هذا كتاب الله ينطق علينا وعليكم بالحق، إنا كنا
نستنسخ ما كنتم تعملون ورسلنا يكتبون ما تكتمون،
اتركوا صاحب كتابي هذا وانطلقوا إلى
عبدة الأصنام، وإلى من يزعم أن مع الله
إلهًا آخر، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه،
له الحكم وإليه تُرجعون، تُغلبون،
حم عسق، تفرق أعداء الله،
وبلغت حجة الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله،
فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم.

حصنٌ آخر لم يفلح في حمايتي، لا من الأرواح الشريرة التي تتلاعب بي، ولا من العوالم الأخرى التي أذهب إليها حرًّا مختارًا. تعويذة تصلني من زمنٍ آخر، ومن بُعدٍ آخر، بخطٍّ يدي، ولا يبدو لي أنه كذلك. لا يوحي الخط الذي أراه الآن بأي شيء يتصل بي، لا ينم عن ملامح الشخص الذي كتبه، ولا عن سخريته الطفيفة -ما زلت أذكر هذا- من أمه وخزعبلاتها، ودهشته من خوفها وابتسامته التي جلس بها بين يديها ينقل الدعاء من كتاب قديم آخر.

تغير خط يدي، عبر حياتي، عشرات المرات، تمامًا كما تتغير ملامح الوجه، وكما تتشعب خطوط الكف. كم أحقد، ومازلتُ، على من يبقى خطهم في الكتابة ثابتًا كما هو، جميلاً أو سيئًا، خلال السنوات. هؤلاء يسهلون المهمة على خبراء الخطوط بالتأكيد. ولا أدري كيف يزعم بعض المحترفين قدرتهم على قراءة الشخصية من خلال خطوط الكتابة باليد، بل يدركون من النظرة الأولى إن كان الكاتب

أنثى أم ذكرًا، وفي أي مراحل العمر، وإن كان أيمن أم أعسر، وربما إن كان شخصًا حقيقيًّا أم ظلا متنكرًا في هيئة شخص حقيقي.

أعدتُ لفّ الورقة مثلما كانت، بحثت عن دبوس مكتب حتى وجدت بعضًا منها في وعاء زهور صغير قديم، لمسات أخواتي البنات لم تختف بعد من هذا الطلل الذي أقيم فيه. ثم ثبتها بحلق الباب مرة أخرى، وفاء لذكرى أمي سعيدة، في الموضع القديم نفسه تقريبًا. وأنا أشعر بثقة هذه المرة. ربما كنت أفتقد للإيمان وحسب. ابتسامة السخرية والاستهانة التي طالما واجهتُ بها كل شيء. أنا الآن أكثر تواضعًا، أكثر تهذيبًا نحو العوالم الأخرى وسكانها ونداءاتها الهامسة بالأسرار.

إذا كان خط يدي يتغير باستمرار، فلم لا أتغيرُ معه باستمرار، مجرد التشبث برأي واحد، مهما كان ذلك الرأي، لسنوات وسنوات، يبدو لي الآن عبثًا لا معنى له. ولكن إذا كانت الكتب والروايات تنشر بخطوط المطبعة، فكيف سيعرف الخبراء الذات التي تحتجب وراء هذا الخط، كيف سيعرفون نوعه وسنه؟

أعرف أن هناك خبراء آخرين لهذا النوع من المقاصد، ينبشون ولكن ليس في شكل الألف ومقدار استقامتها من ميلها، أو ذيل الواو وطريقة توزيع النقاط فوق بعض الحروف أو تحتها، بل ينبشون في المعاني. الرسم للنسيان إذن، فالوجه يتبدل، كل لحظة تقريبًا، في مرآتي القديمة نفسها. لكن هل ثمة شيء لا يتغير وراء الرسم؟

أعود لهذا الدفتر، أول الشقيقين الملوث، العجوز الشائخ المهدم هذا، بعد توقفٍ طويل. أعود خائبًا ومنهكًا، فلستُ الشيخ الذي يرجع إلى صباه، مهما حاولت أن أوحي بذلك لنفسي، أو لقارئ وهمي، أو لمن نفسها، إذ كنت أتخيلها تقرأ كل كلمة أشد حروفها بقلمي الأسود البك، وبخط واضح ناصع صريح.

التقينا كثيرًا خلال الأسابيع الماضية. انتهى عهد المصادفات الحرة وصرنا نضرب المواعيد، عثرت عليها بمساعدة رجائي الصغير. اتضح أنهما يعرفان أحدهما الآخر. ليسا صديقين، أو لم يكونا صديقين حتى قرّبت أنا بينهما، وهو خطأ لم أقصده، ومن المشروع للشيخ أن يرتاب من الشباب ولو حسدهم وأحبهم.

الغريبة أنها دائما ما تأتي ومعها واحد أو واحدة، من الشباب أصحابها، من جيلها. نلتقي إما لمشاهدة مسرحية أجدها بلا دراما أو قوام أو فكرة، أو لنقاشٍ ساخنٍ في مكان كئيب حول إحدى القضايا التي تبدو على ألسنتهم حاسمة وكبيرة، أو على مقهى غريب من مقاهيها المفضلة بوسط البلد.

خلال تلك الأسابيع أدركت بالبينة أن الأمر كله لا يعدو قصة قصيرة هو الآخر، قصة سخيفة، قد تكون مُضحكة قليلا إذا كُتبت بالنبرة المناسبة. لكنها ليست رواية تحمل بين طياتها قصة عشق خرافية ستحمل للمحرومين زادًا عاطفيًّا وتبث الدفء في أسرتهم القاحلة.

أساسًا داخل كل قصة حب أكثر من حكاية أو رواية واحدة. رواية البطل ثم رواية البطلة، ولا ننسى روايات المحيطين بهم. وكذلك رواية ما قبل الارتباط الرسمي -إذا حدث- وما بعده. ما قبل لقاء الفراش وما بعده. هناك نسخٌ عديدة من كل قصة حب، أسهلها وأكثرها سذاجةً هي ما تؤكد لنا الأسطورة الأصلية نفسها، أسطورة الحب، مُتعالية ومعززة مكرمة، ومُغلق عليها أيضًا في عُلبة الموسيقى السحرية.

لعلي أدرك الآن السر الحقيقي وراء عدم إتمامي أحد مشاريعي الروائية العديدة السابقة. ليس لدي حكاية واحدة، لها أول وآخر، ليس لدي حياة مكتملة، ليس لدي أسطورة خاصة، ليس لدي شيء. أو لعلني ببساطة لستُ روائيًّا، فهل يعني هذا أن لديَّ تعريفًا جامعًا مانعًا للراوئي؟

فلأحاول:

١. الروائي هو من نسأله منبهرين: هل حدث كل هذا لك فعلاً؟
٢. الروائي شخص محظوظ ومتكتم ويحتقر النساء.
٣. الروائي غالبًا ما ينام مبكرًا ويحلم بالحلول السحرية لحبكاته.
٤. الروائي يقصقص قصاصات الصحف وكأنه أرشيفجي.
٥. الروائي لا يحشش، ولا يشرب، ولا يهمل ثيابه.
٦. الروائي يتشبه بالله والعياذ بالله.
٧. الروائي امرأة إذا استدعى الحال، ومخنث إذا تطلب السياق، ومصباح في السقف معظم الأوقات.
٨. الروائي شخص له خط يد واضح لا يتغير مدى السنين.
٩. الروائي هو من يلم العالم في منديل.

ليس لدي خط يد ثابت، وهذه مشكلتي، ناهيك عن بقية التعريفات الحمقاء الأخرى.

أتغير، مثل بقية الناس، ما أحبه اليوم قد أنصرفُ عنه غدًا، ولستُ ملولاً رغم ذلك أكثر من الآخرين. على الأقل لابد أن يكون للروائي خط يد واحد، أثناء كتابة رواية واحدة، رواية بعينها، خط كتابة لا يتغير مع الانتقال بين الفصول والفقرات، لا ينقلب معه المعنى كلما انقلبت الصفحة على قَول أحد المتصوفين.

لستُ روائيًّا، و لم أحب على كبر، و لم أرجع بمعجزة الحب إلى صباي. ليس لي جلد ولا صبر ولا طاقة. خط يدي في الكتابة يتملص مني كل لحظة، يعيد تشكيل ذاته باستمرار، رغما عن إرادتي، والأسطورة العزيزة علينا المسماة بالصوت الخاص، بالأسلوب المميز، تسخر مني شر سخرية.

لابد أن أكون قادرًا على تثبيت صورة ذاتي حتى أرسمها. صورة واحدة ونهائية، لا تتغير مع انفراط الساعات، في أثناء الكتابة أو الرسم،

وهذا هو المستحيل بعينه، مع الوضع في الاعتبار انفلات كل شيء من بين أصابعنا، مع الدقائق والثواني.

يبدو أن هذه النزوة سوف تلحق بأخواتها السابقات. محاولة جديدة خائبة، لا أكثر ولا أقل. على الرغم من أنها بدأت مبشرة وواعدة بأعذب الآمال. سوف تتجمد مثل كل الحكايات الأخرى غير المكتملة، وسأضيف مشروعا ناقصًا ومبتورًا آخر إلى الأرفف والأدراج المكتظة.

- رجائي يا صغير، ما رأيك لو أعطيتك كل مشاريعي الروائية القديمة، والتي لم أكملها، لترى ماذا يمكنك أن تصنع منها؟
- موافق طبعًا يا عم رجائي، هذا شرف لي، ولكن بشرط واحد، أن نكتب العمل معا؟
- أي عمل؟
- قصة حياتك، ونستعين بقصاصات من أعمالك ومذكراتك، ما رأيك؟
- خذ الأوراق واقرأها ثم نتحدث في التفاصيل.

أسلمتُ روحي للشيطان، وأهديتُ الدفتر الثاني لسَميي، المُدعي الصغير. لو تمتْ هذه الرواية فمعنى هذا أن حياتي انتهت، وأن رجائي الصغير سوف يحصد النصر والمجد على حسابي، "ياللا، خليه ينبسط هو ومُنى".

(١٧)

لابدّ أن أحد زملاء أبي في المدرسة قد أشار عليه بـأن يسـلمني للكابتن طلعت. وأيًّا كان هذا الناصح المجهول فإنني أدين له. لم يكـن كابتن طلعت مجرد مدرب كرة القدم في مركز شباب الساحل وحسب، بل عم الشباب، قولاً وفعلاً. ومن حيث المكانة كانت كلمته تمشي على كل من يرأسونه وظيفيًّا.

من وراء ظهري، أسرّ أبي له بأنني مهدد بالجنون وفقدان البصـر إذا ما واصلت إدماني على ممارسة العادة السرية، كما أفعل الآن، وأن زميلـه الفلاني —أخبرني كابتن طلعت فيما بعد باسمه، ثم طواه النسيان كالمعتاد— نصحه بالرياضة، ليطلق الطاقة الحبيسة في جسمه الفائر وينهدّ ويهمد.

نفرت من كابتن طلعت منذ أن وقعت عليه عيناي، ومن أول نهـار من الإجازة الصيفية قضيته بصحبته في الملعب. كان قصـيرًا ومـدكوكًا ومائلا للبدانة، ولا يتوقف عن الحديث، حتى إذا سار وحده هنا أو هناك، ودائما ما يسب ويلعن بأبشع الألفاظ وأحط الأوصاف. أذكر الآن أنـه كان موهوبًا في الإساءة بلسانه، إلينا وإلى الجميع. يتفنن في انتقاء اللفظـة المناسبة، واللهجة المصاحبة لها: "إيه يا ممحون؟ بتاكلك؟" "يا ختي يا بطة؟ أتصل لك بماما؟" باختصار أصابني الذعر. كان ينافس شباب شبرا مـن حيث الاهتمام بالمظهر، وإطلاق السوالف والشعر مثل الخنافس، وارتداء السراويل الواسعة من تحت وضيقة حد الاختناق من فـوق، والقمصـان المشجرة ذات الألوان الفاقعة. كما ينافسهم في أمور أخرى، مثل أكـل أكبر كمية ممكنة من الكشري الغارق في الشطة، والدفع علـى الخاسـر

طبعًا، وما كان يخسر أبدًا. عرفت عنه هذا كله بعد أن انقضت الأيام الأولى السخيفة، حين كرهته واحتقرته ولعنت أسلافه مئة مرة. علمت أيضًا أنه التحق شابًّا بنادي الزمالك، وتركه شابًّا كذلك، بعد إصابة غامضة، لا أحد يعرف أين أو كيف وقعت هذه الإصابة، في عراك بملهى ليلي يتعلق براقصة وجماعة من الأثرياء، أم في الملعب نفسه، أم عندما انقلب به أوتوبيس كان يستقله لزيارة أمه في المحلة الكبرى. هو نفسه يروي روايات عديدة، الأمر الوحيد المؤكد صورته وهو بزي نادي الزمالك ووسط لاعبي الفريق، قبل مباراة قديمة غامضة.

انتهى مستقبله الكروي ولم يكد يبدأ، والرجل العجيب البسيط لم يستسلم أو ييأس، فلم يكن من هذا النوع، نوعي أو نوع عماد أو كمال عبد الجواد أو كثيرين آخرين من أمثالنا، سواء كانوا حقيقيين أم متخيلين. راح يسعى بأوراق تعليمه الصناعي المتوسط حتى تم تعيينه في المركز، مدربًا، بتوصية من زميلٍ رياضي له نفوذ. واستنادًا إلى تلك الميزة، وعلى علاقاته القديمة المشكوك فيها، ولمسة جنون لا ينكرها حتى الأعمى، أطلق يده في المركز ودسّ أنفه في كل شيء.

كانت علاقته بنا، نحن الأشبال كما أسمانا، علاقة متناقضة وخطرة، تشوبها القداسة والمسخرة في الوقت نفسه. ما إن يغيب حتى يتبارى الجميع في الاستهزاء به والتهكم على طريقة مشيه وأسلوب كلامه، وترديد لازمته الشهيرة: "إخص!" والتي كان يصقها عشرين مرة في الدقيقة الواحدة، ويستخدمها للتعبير عن طيف واسع من الأفكار والمشاعر؛ حين لا يعجبه أداء أحدنا، أو حين يرى امرأة حلوة، أو حين ينفك رباط حذائه الرياضي ماركة باتا.

بالنسبة إليّ، ومع الوقت، وجدت في مركز الشباب مكانًا مختلفًا عما اعتدته من قبل. أتوجه إلى هناك وحدي تمامًا، مع مصروف جيب محدود لا يغري بالكثير، بعد المدرسة أيام الدراسة، ومن الصباح الباكر في الإجازات. أحببتُ كرة القدم، ولكنني لم أبرع فيها إلى حد أن تجري في دمي، ومارست قليلا من الجمباز، بل وترددت أحيانًا على صالة رفع الأثقال، وغيرها من صالات الألعاب، دون أن يؤثر هذا، ولو بأهون قدر، على شهيتي في ممارسة الاستمناء، بل وكأنما على العكس. أنطرحُ على الفراش بمجرد أن أتناول طعام العشاء، وما هي إلا ساعات قليلة وأصحو بانتصاب موجع وحارق، يطالبني بالواجب اليومي، فأتخلص منه بين النوم واليقظة، وسط خيالات أتعجب الآن كيف كان يزودني بها عقلي عند الحاجة على الدوام. ثم أكمل نومي، أو أنتبه تمامًا فآخذ حمامًا وأحتضن كتابًا في الفراش إلى أن يطلع النهار. بينما أستعيد الآن تلك الفترة أكتشف مندهشًا أن السعادة أمرٌ بسيط وغير بعيد المنال كما يشاع، وأن عمادها التكرار الأعمى، وأنها ليست وهمًا أو بضاعة زائفة يروجها لنا آكلو لحوم البشر، وأنني عرفتُها بنفسي ذات يوم، وإن لم أدرك حينها ذلك. أدركُ ببساطة أن الحياة لم تبخل عليّ أيامها بشيء، حتى بأبٍ بديل، لا يلقي بظلٍ أحمر على كياني. أب يمكننا التبسط معه في الحديث، ودعوته إلى الغداء، حواوشي أو كبدة أو حتى كباب وكفتة إذا تمكنا من جمع المبلغ المطلوب، فقط ليقربنا منه، من المرشد الروحي الذي تتجاوز سلطاته مركز الشباب إلى آفاق بعيدة تأسرنا وتجرّي ريقنا، مثل بيوت المتعة السرية وغرز الحشيش.

رحمك الله يا كابتن طلعت، فلولاك ربما بقيتُ مراهقًا ساذجًا حتى هذه اللحظة وأنا أثبُ نحو الستين.

(١٨)

سألتني منى، وما أكثر أسئلتها هي والآخر رجائي الصغير، عن تجربتي الجنسية الكاملة الأولى، وكيف كانت. أفلحتُ في التغطية على ارتباكي، وتظاهرت بأنني أتلقى سؤالاً عاديًّا تمامًا. أجبتُها باقتضاب، وبنظرة شاردة وكأنني أجاهد لأتذكر دون أن أتمكن من ذلك، قلتُ إنها كانت واحدة من فتيات الهوى وأنا في أواخر المرحلة الثانوية، قادني إلى غرفتها رجل يكبرني سنًّا كان قد تبناني روحيًّا أنا وبعض الصحاب من شبرا، اسمه الكابتن طلعت، رجل عظيم مات وهو يضحك على نكتة قالها هو نفسه، في سهرة تحشيش.

فيما بعد، وبيني وبين نفسي، استرجعت الأمر، لأكتشف أن ذلك غير صحيح. لم تكن تلك هي تجربتي الأولى بكل تأكيد، بل كانت تلك المرأة العجيبة في البيت الحميم بمنطقة دير الملاك، وحتى من قبل أن يفتح أمامنا الكابتن طلعت السكك المغلقة والمجهولة.

ليلتها سهرتُ للصبح، كالعادة أيامها، مع رواية ممتعة، لم أعد أذكر أكانت الجريمة والعقاب أم الحرب والسلام، المؤكد أن عنوانها كان كلمتين، بينهما حرف عطف. نهاية الإعدادية أم بداية الثانوية؟ لا سبيل للتأكد. لا عجب إذن أنني نسيتُ تلك المرأة عندما فاجأني سؤال منى. ويقولون إن المرة الأولى لا تُنسى في حياة أي إنسان، أشكُّ في هذا، فما تبقى بداخلي من تلك التجربة المبكرة لا يمكن الاعتماد عليه، شظايا، قصاصات، مشاهد شاحبة يغلفها ضباب ثقيل. الذاكرة أصلا من يتغطى بها عريان. تتآمر مع الوقت ضدنا، لتُوهمنا أن ثمة ذات صحيحة وسليمة

وراء كل تلك الفوضى الكبرى. ما علينا، انتهيت من الرواية والفجر يؤذن، لكن النعاس لم يراودني، فبقيت صاحيًا. شربتُ شايًا وأخذتُ دشًّا، وقلتُ أخرج، أتمشى لحد المكتبة العتيقة نواحي دير الملاك، بدلا من النوم للعَصر كعادتي أيام الأجازة الصيفية، أروح وأستبدل بهذه الرواية روايةً جديدة، فأعود منهكًا وأنام على طول.

أما كيف عرفتُ بوجود تلك المكتبة العامة، في دير الملاك، وأنا ابن شبرا مصر، فهذا أيضًا مما حجبه بياضُ النسيان. المؤكد هو همي الدائم للقراءة والكتب، كأني كنت أتشمم رائحتها من مسافاتٍ بعيدة كالكلاب البوليسية.

أُنشئت المكتبة في قصر قديم، من قصور عهد المَلكية، حين كانت تلك المنطقة يسكنها أصحاب الألقاب من الأثرياء. القصر نفسه وكأنه خرج من رواية أشباح، ممتلئ بممرات وسلالم وأركان خفية، ولم تمتد إليه يدٌ بالعناية والصيانة بالمرة، تعشش في أركانه العناكب وتنسج بيوتها الواهية، والأرفف مغطاة بطبقة أبدية من الغبار، أما الكتب المغلفة جميعها بأغلفة جلدية أنيقة، وعلى كعوبها عناوينها بالخط المذهب، فكانت صفراء الصحفات، تكاد تتفتت أوراقها وأنا أتصفحها. المكان كان يسحرني ويخيفني. قبل أن تختفي هذه المكتبة بأوامر حكومية غامضة قرأتُ منها على مدى سنوات أغلب الروايات الكلاسيكية، وأعمال العقاد والحكيم ومحفوظ وحقي وغيرهم، هذا غير مؤلفات لم أعد أذكر منها اليوم شيئًا حول الدين والتاريخ والدُول التي حلمتُ ذات يوم بالسفر إليها.

ما زلتُ أشمُّ في أنفي رائحة الغبار والرطوبة التي تخيم على قاعات القصر المكتبة. ومازلت أتخيل النظرات المترصدة، والمتّهمة ربما، للموظفات. كُنّ نسخة واحدة متكررة، الشعور الخشنة الملمومة كيفما

اتفق بينس سوداء، والحواجب الرفعية وأحمر الشفاه غير المتقن الرسم، وانهماكهن الدائم في شُغل الإبرة. كم سألتُ نفسي أين يذهبن بكل تلك الكوفيات والسترات والجوارب التي يعكفن على شغلها طوال النهار. رغم تلك الساحرات الشريرات، ورغم الغبار والرطوبة والجو المرعب لردهات وغرف ذلك القصر الصغير، فإن جنتي -إذا أراد الله أن يصنعَ لكلٍ منا جنةً تخصه وحده- ستكون أقرب إلى هذا المكان، كما أوحى لي بذلك الأرجنتيني بورخيس ذات يوم. مكتبة لا نهائية، قصر من الورق، قلعة الكلمات التي لا أول لها ولا آخر.

قابلتني واحدة من النساء الغليظات القائمات على المكتبة، وبدا أنها انزعجت لحضوري في هذا الوقت المبكر، فلم يحضرن بعد كلهن، ناهيك عن تغيير الريق. ومن خلف عدسة النظارة الغليظة بدت عيناها جاحظتين للغاية وأكبر من اللازم، وقالت في جفاء واضح:

لسه بدرى يا حبيبي، الاستعارة تبدأ كمان ساعة ولا اتنين.

لم يكن معي نقود. أبي واضح في هذه المسائل، قال لو تريد نقودًا انزل اشتغل، لكنني لن أصرف على دخانك وكتب التفاهات والبدع. هل كان يعلم بسرِّ التدخين أيامها؟ أكان قد توقف عن ضربي؟

المهم أن احتمال الجلوس على مقهى قريب لم يكن واردًا، لم أكن قد اكتسبتُ هذه العادة أصلاً حتى لو معي نقود. إن عدتُ للبيت سيغلبني النوم فورًا وأخسر المشوار، ولن أجد بين يديّ رواية جديدة أقضي معها الليالي التالية، أو هذه الليلة على الأقل. قلتُ أتسكع ساعة أو اثنتين هنا وهناك، أستكشف المنطقة، ثم أعود لإناث العنكبوت بالمكتبة

بعد المكتبة مباشرة، في شارع ترعة الجبل، أجد أمامي مسربًا ضيقًا، عُلقت على يمينه لوحة باهتة مكتوب عليها "حـــارة كنيســـة الإخـــوة"، والكنيسة نفسها ظاهرة، يمتدّ سورها الحجري عن يميني ويلوح برج جرسها غير بعيد. سرتُ في هذا الممر حتى أسلمني إلى ساحة رحبـــة ومُشمســـة، عبرت فيها على مقهى ولبَّان وبعض الدكاكين الأخرى التي بدأت تستفتح النهار وترش الماء. أعجبني الحال وأنعشتني طراوةُ البكور، وأحسستُ كأنني أحلم بسبب ثقل رأسي من السهر. أخذتُ أدور هنا وهناك مثـــل مُنَـــوَّمٍ مغناطيسيًّا بينما تناوشني مَشاهد الصباح الجديد كأنها رؤى الخيال، ســـائرًا من حارة إلى أخرى ومن شارع إلى آخر حتى انتبهتُ إلى أن الوقت قـــد حان للعودة إلى المكتبة، لكن كيف سأعود؟ حاولتُ أن أتتبع المسار الذي جئت منه، لكنه أفلت من بين يديّ كأن لم يكـــن. اختلطـــت الطـــرق وتشابهت، ومهما مشيتُ وأوغلتُ بنشاطٍ في المنطقة، نحو الاتجاه المفترض للخروج إلى الشارع الرئيسي زاد ضلالي وانكشف عجزي التـــام عـــن الخروج من المتاهة، دون الاعتماد على ســـؤال العـــابرين أو أصـــحاب الدكاكين، لكن هذا ما لن أُقدم عليه، ولو سأقضي النهار كله تائهًا هنا.

هذا أنا أحمد رجائي، التائه المثالي، التائه وفي يده رواية عتيقـــة لا يعرف لها اسمًا. لعل عنوانها، دون أن يدري ذلك، هو رجوع الشيخ، أو بيت المرايا، أو قصر الورق، وكلها عناوين محتملة لقصة حيـــاتي الـــتي أخربشها في أحد الدفترين. انظروا إليه، مجرد ولد خائب، عيـــل تائـــه، مراهق يستنكف عن سؤال أحد ليدله على الطريق الصحيح. لم يرجـــع بعد لموضعه الأول، لن يرجع أبدًا، لا يستطيع، ولعله لا يريد حتى.

ثم بانت الحارة إياها وكأنها النجاة، من بعيـــد أرتـــاح لمنظرهـــا،

دخلتُها فوجدتُها مسدودة، على جانبيها مترلان متقابلان، يتبادلان النظر في صمت، حارة رطبة وهادئة، لا تسكن الشجرة الوحيدة بها أية طيور، وكأنها معزولة عن أي نوع من الحياة التي نعرفها، متشبثة بحياة أخرى، حياة لا تألف الضجيج الإنساني المبتذل وصخب المخلوقــات التافهــة، حياة بعيدة عن دقات الزمن المتوالية على رؤوس الأحياء من سكان هذه الأرض، ممتدة، ساكنة، خارج العالم.

أتفلسف الآن، وأقول: أرضُ الحلم هي أرض الذكرى، لا زمــن لها. على ثباتها تتشكل وتتغير بلا انقطاع، كل لحظة جديدة، وفي كــل استعادة لها خلقٌ آخر وبعثٌ من العدم.

العيل التائه مازال هناك تائهًا، مهما روى حكايته هذه وبدل فيها وأعاد تشكيلها ألف مرة ومرة. لم أعد أعرف إن كانت العبارة الأخيرة تخصني أم تخص ذلك اليافع الغض.

قبل أن أستدير لأرجع من حيث أتيت، أراها واقفة أمام البيــت الذي على يمين الداخل، وقد ألقت على كتفيها شــالا مــن القطيفــة الزرقاء، ليس اتقاء للسعة برد خفيفة في هذا البكور، ولكن لأن قميص نومها كان يكشف عن كتفيها البيضاوين اللدنين. واقفة وكأنما كانت تنتظرني، بل وتعلم بالتوهة التي سوف تسلمني إليها بلا ريب. واقفــة، ربما منذ مولدي، بعد أن استجاب الله أخيرًا دُعاء المخلص الذليل عبــد المتعال ورزقه بالولد، حتى تستقبلني هي، الآن، هنا، لــتُطعمني الثمــرة الحلوة لأنها محرمة، أو المحرمة لأنها حلوة.

دعتني بعينيها، فتشككتُ، وبسبَستْ لي كما تفعــل مــع قــط،

اقتربتُ وأنا ما زلتُ أسعى في حلمي الغامض، وقد ضاعفت قلة النـــوم من اضطرابي وإثارتي. حين صرتُ قيد خطوتين منها، قالت المرأة الأولى شيئًا ما، جملة صغيرة كان لها مفعول السحر، عبارة حســـمت التـــردد وطمأنت القلب الواجف، ووضعتْ كل شيء في نصابه الصحيح بمنتهى البساطة، شيئًا من قبيل: "إوعى تكون تهت على ما وصلت، معلـــش، خش"، أو "اتأخرت ليه؟" أو لامتني: "مستنياك م النجمة، تعال خش".

تبعها المراهق أحمد رجائي الذي كنتُ أنا هو زماااان، دون تردد، غير مكترثٍ لضربات قلبي أو لاسم الرواية التي أحملها، أو لضياعي الذي لم ينقضِ بعدُ، رغم وصولي إليها.

وجدتُ مدخل البيت القديم، وكان أقرب للحوش الواسع المفتـــوح على السماء، معتمًا بسقيفة من الخشب المشغول الذي تتسلقه كرمة عنب كثيفة الأوراق دون عناقيد ولو حصرم. في الركن زير، وأريكـــة خشـــبية تستند لجدار، وهي تقودني من يدي، كأنها أم تقود عيلها الـــذي تـــاه ثم عثرت عليه، تخاف أن يضيع منها مرة أخرى، في زحمة الأسواق. صعدتْ بي درجًا بلا درابزين، صعدته هي بدربة ومعرفة وبلا خـــوف، فشـــعرتُ بالخجل من خوفي أن يختلّ توازني فأسقط، وبعد تردد سريع مددت يـــدي وتشبثتُ بخصرها، ثم داعبتُ مؤخرتها، التفتت هي نحوي وأزاحت يـــدي برفق، وهمستْ بفحيح مغوٍ: "يا لهوي منك، مش قادر تصبر!"

قبل الدرجة الأخيرة أطلقتْ ريحًا خفيفًا فلفح وجهي وشممت له رائحة دسمة ودافئة، ولم أستطع منع ضحكة صغيرة، فكتمتْ هي فمـــي بيدها، وبقدمها فتحت ضلفتي باب غرفتها، وألقـــت بي إلى الـــداخل، وهي تؤنبني: "هتفضحنا، ماكنش جيص ده!"

لم أكن -واسم النبي حارس وصاين- من هؤلاء المراهقين الشاحبين الهزيلين، بل مكتملاً مثل أي رجلٍ ناضج، طول بعرض. الشعيرات البنية تنتشر في الأماكن الخفية بجسدي، ولي صوت بالغ طبيعي، وآلتي لا تثير الخجل، وإن لم أعرف -بكل أسف- ذلك حينها، لكن الست الجميلة في دير الملاك عرفتْ ولابد.

استسلمتُ لها وهي تترع عني ثيابي، وتدندن، بماذا كانت تترنم تلك الولية؟ آه لو يتذكر الآن الشيخ أحمد رجائي، لآمنتُ حقًّا بالذاكرة وتوقفتُ عن ملء الفجوات معتمدًا خيالاً ماجنًا. هل غنَّتْ هامسةً: "البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي" أم قالت "قمر له ليالي"؟

أخذتني، عاريًا بأيرٍ قائمٍ منتفش الرأس، إلى فراش كبير كاد يبتلع الغرفة لحسابه، على اتساعها، سرير بأربعة عمدان نحاسية مصقولة لها عرائس ملونة وظريفة، تنسدل على عمدانه هذه ستائر تدور حول الفراش، بيضاء قطنية عليها رسوم لعرائس وفرسان على خيول، أو هي عروسة واحدة وفارس واحد تتكرر صورهما بانتظام.

بجهد بالغ فتحتُ عينيّ على اتساعهما، وأنا أراقبها تنضو عنها قميص نومها الأزرق الساتان، فيبين عن لحمها الأبيض المتراكم طياتٍ فوق بعضها، وتترع عن شعرها منديلا أحمر اللون، ثم تنثره قليلا على كتفيها، قبل أن تصعد إلى جواري، فيرتج الفراشُ لحركة جرمها الهائل عليه، وتهبط بثدييها على وجهي فيختفي تمامًا. طوقتني بفخذيها، ودست أيري بينهما فاختفى هو الآخر، ولأول مرة أذوق طعم اللحم الدافئ المبتل يحيط بعضوي، وسوف أرجع، فيما بعد، مرارًا وتكرارًا إلى تلك الذكرى، مغذيًا بها خيالاتي في نوبات استمناء بلا أول ولا آخر.

كانت تهتز اهتزازًا هينًا من فوقي، عندما تغلبتُ فجأة على ترددي وخوفي وانقدتُ لشهوتي منفردة، فنهضتُ ورفعتُها عني بكل عزمي، وقلبتُها على الناحية الأخرى من الفراش، واعتليتُها كما رأيت الرجال يفعلون بالنساء في المجلات الجنسية، وهنا ضحكتْ هي وقالت شيئًا ما، جملة صغيرة، عبارة كان لها وقع السحر علي، شيئًا من قبيل: "آهو كده"، أو "ده إنت فيك نار يا وله!" أو ربما:"إهدا يا حيلي!". ثم وجهتْ أصابعها إلى فمي، لم أفهم حتى أدخلت إصبعًا بين شفتي فأخذتُ ألعقه بلساني وأعضعضه خفيفًا خفيفًا بأسناني، ثم لذّ لي أن أمتصّ أصابعها كلها واحدًا واحدًا، وبدا أن هذا راقها، فسرعان ما تزلزلت من تحتي زلزالاً عظيمًا.

الانتصار، الزهو، التحقق، كانت كلها مفردات بعيدة عن متناولي في تلك اللحظات، لكنني سأجدها فيما بعد، عندما أعيد نسج الواقعة مرةً وألف مرة. نلتَ يا أحمد ما كنت تتمنى، وانتقلت بابتسامة حظٍ سعيد من صفوف العيال الجاهلين إلى مصاف الرجال العارفين.

أخذني النعاس منها أخذةً واحدة، فيما تداعب بأصابعها شعري البني الناعم والكثيف. كانت تُدخن، وهي تشاهد الشمس عبر الستائر تلعلع في الأفق. الغريب أنني استيقظت على صوت أجراس كنيسة واضحة وقريبة مني. تذكرتُ كل شيء، ولم أجد أثرًا للمرأة الكريمة، دخلت في ثيابي في ثوانٍ وفتحتُ الباب واختلستُ النظر من أعلى السلم فرأيتها تجلس أمام طست صغير، هي وامرأة أخرى أجمل وأصغر سنًا، وفي الطست طيران ذبيحان، وز أم بط، لن أعرف أبدًا، وهما تنزعان الريش عنهما بقسوة النسوة الخبيرات.

نزلت الدرج مقدمًا ومؤخرًا، لا أعرف ماذا أقول أو ماذا أفعل. يشلني الحياء وتتلاعب بي ظنون. ضحكتْ الست، وقالت: "إنت

صحيت يا نن العين؟ أنا مارضتش أقلقك!" شهقت الأخرى: "وده إيه ده كمان؟" فردها على الفور: "وإنت مالك يا مرَة؟".

لم أكد أفتح فمي، حتى أشارت لي على الحمام البلدي تحت حنية السلم. كنتُ محصورًا للغاية، وكأنها قرأت أفكاري، دخلت وتبولت طويلاً، ثم خرجت واتجهتُ نحو باب البيت مباشرةً، وهي لم تقم بعد عن الطست، كما لم تتوقف عن سبِّ المرأة الأخرى ومهاجمتها، ثم قالت وأنا على العتبة:

"ابقى زرنا يا حيلي، عشان نعمل معاك الواجب المرة الجاية"

فنطقتُ أنا أخيرًا، قبل أن أختفي تمامًا: "أكيد طبعا!"

تعرفتُ على طريقي هذه المرة بسهولة عجيبة، وقد انفتحت أمامي الطرق والسكك ووجدتُ نفسي أمام شارع كنيسة الأخوة الذي أفضى بي مباشرة إلى شارع المكتبة القديمة، وهناك كانت الموظفات على وشك إغلاق دفاترهن ولملمة خيوط التريكو، وعندما مثلتُ أمامهن فقط تذكرتُ الرواية.

عبثًا سيحاول المراهق أحمد رجائي الوصول إلى ذلك البيت مرة أخرى، ليستعيد روايته، رواية حياتي الضائعة، أو رواية كلاسيكية استعارها من مكتبة دير الملاك. اختفى كلُ شيء بفعل السحر، المرأة والبيت والحارة السد الصغيرة الهائلة. ممحاةٌ كبيرة أزالت هذا كله من على وجه الأرض كأن الحكاية انتهت عند هذا الحد، ولم يبق إلا أن تتحول إلى خرافة شهوانية في ذاكرتي، لا يعلم إلا علام الغيوب ما صدق منها وما كذب.

(١٩)

ماذا لو أنني صرفتُ النظر عن مسألة قصة الحب هذه؟ أليس هناك احتمالات أخرى أطرف وأظرف؟ ماذا لو كتبتُ الرواية كلها، من أولها إلى آخرها، على النمط البوليسي، آجاثا كريستي يعني.

سوف أرسم شخصيتي في صورة مخبر خاص، طُرد من الشرطة في شبابه لرفضه للفساد والرشوة، لكنه صار يقدم خدماته العبقرية مقابل أجر، ولا يقبل سوى القضايا العادلة والزبائن الشرفاء.. طبعًا تورط أحيانًا مع زبائن غير شرفاء، ولكنه يحاول أن ينسى. تقع في يده ذات يوم رواية بوليسية رخيصة، نسيتها سيدة على مقعدها في القطار، وعلى سبيل قتل الوقت يبدأ في قراءتها رغم نفوره من هذا الأدب الرخيص، هو قارئ الفلسفة وعاشق التاريخ.

من الصفحات الأولى يتولد لديه انطباع بأن كل ما يقرأه يعرفه بطريقة أو بأخرى، كأنه عاش هذه الحياة من قبل، أو كأنها حياته نفسها مكتوبة باختصار وبدون أناقة لغوية أو تريث أمام تفاصيل كثيرة. بطل السلسلة مخبر خاص، في منتصف العمر، طرد من الشرطة للأسباب نفسها، ويقدم خدماته للقضايا العادلة، أعزب ويعيش مع كلبة لها اسم كلبته وصفاتها.

إما أنه فقد عقله ودخل في مرحلة الهلوسة، وإما أن تلك السيدة تركت الرواية قاصدة، وأنها جزء من مؤامرة محكمة ضده ليفقد عقله فعلا. من وراءها؟ الله أعلم.

أيام وكان قد اشترى جميع أعداد السلسلة. أعاد قراءة جميع قضاياه

السابقة، حتى آخر عدد كان هو نفسه القضية التي انتهى منها قبل أسابيع، قضية العثور على المرآة التاريخية المفقودة من أميرة من عائلة ملكية. وماذا بعد؟ السلسلة غير دورية، أي أن كاتبها غير ملزم بالنشر مادام ليس لديه أفكار، أو مادام لم يعمل هو في قضية جديدة. هل ينتظر في هدوء، ودون عمل، ليرى كيف سيكتب هذا الكاتب؟ لا ينفع، لن يطيق صبرًا.

سألعب إذن في رواية حياتي دور مخبر سري قطاع خاص، على نمط الأفلام الأمريكية، لبسه هاجس واحد، حتى سيطر على كل لحظة من لحظات حياته، وهو أن يجمع الأدلة والقرائن على أن حياته واقعية، مئة في المئة، وأنه ليس مجرد شخصية في كتاب يخربش سطوره ولد تافه بلا أي خبرة أو دراية، هذا إن كان الكاتب شابًّا صغير السن، وبجمع المعلومات يكتشف أن المؤلف شيخٌ مسن وأعمى ويعيش وزوجته في عزلة تامة.

يروح ويجيء، يقرأ الروايات ويعيد قراءتها مرات عديدة. يلمس جسمه، يجرب أن يؤلم نفسه، ويُجرح ويَخُرُّ دمًا. مع قراءة الألغاز القصيرة والمحكمة أعاد تأمل حياته، من أولها حتى لحظته تلك، ليكتشف أن كل شيء فيها كان محسوبًا بالشَعْرة والميليمتر، كل مصادفة، كل لقاء، كل تحية ألقاها أو تلقاها. فيتسرب إليه الشك، ويتسرب هو إلى أول حارة في متاهة الجنون. يا نهار أسود! ماذا لو كان يعيش في سلسلة روايات رخيصة، هل اقتربت نهاية السلسلة؟ هل ستكون نهاية حياته؟ اللغز الأخير لابد أن يكون هو الأقوى والأصعب على الإطلاق، كلمة النهاية، الخاتمة، مخرج المتاهة السحرية. ماذا عليه أن يفعل؟

انتبه الغافي، قامت الشخصية المكتوبة من قبرها بين الغلافين، وطالبتْ بحق تحديد المصير. لا يستسلم، لا يعود من منتصف الطريق، بعد أن بدأت

الخيوط تتجمع بين أصابع يديه، والمعلومات تتراكم عن المؤلــف الخبيــث، المنعزل في تلك الجزيرة النائية مع كتبه وخرافاته وزوجته. أهي شابة فاتنــة أم حيزبون فقدت السمع والبصر تُعذب الخدم بأوامرها ليل نهار؟

لا أصفي أعمالي، تحسبًا للظروف وعلى أمل أن يكون هنـاك خـط رجعة. أترك المكتب بجميع قضاياه لمساعدي الشاب الطموح، بعد أن أطلعته على قضية حياتي. ثم أسافر إلى مغامرتي الأخيرة، لأكتشف نوايا هذا المخبول نحوي. وهناك أعيش مثل أي سائح ثري أتى للجزيـرة بغـرض مطـاردة الجميلات والاستجمام، ثم تتواصل المصادفات، لأعرف أن الكاتب الشـهير وكفيف البصر بحاجة إلى سكرتير خاص، وشروط الوظيفة أن يكون المرشح مُلمًّا ببعض اللغات ويجيد النقر بسرعة على الآلة الكاتبة، ويتوفر لديه حـس الدعابة والفطنة والصوت الحسن. وكأنه كان يطلبني أنا على وجه التحديد، وسرعان ما تفوقت على جميع المنافسين في مقابلات توظيف أشرف عليهـا مدير أعماله الفظ مثل قرصان من العصور الوسطى.

كان خوفي يتزايد كلما اقتربت ساعة اللقاء بالعجوز، وكأنني سوف أمثل أمام خالقي وليس مجرد كاتب روايات رخيصة. ما شجعني وخفـف توتري أنه كان أعمى. ورحت أتحضر وأنا أطمئن نفسي: أنا لست شخصية في كتاب، هذه كلها مجرد مصادفات مضحكة لا تتكرر إلا مرة كل مليون عام، بل لا تتكرر أبدًا، مصادفات غير واردة حتى في قـانون الاحتمـالات الأكثر تساهلا في العالم. سأملك حريتي بمجرد مقابلته، إذ لا ينفع أن أكون أمامه، موجودًا معه في الغرفة نفسها، أقرأ له بصوتي الرخيم، أو أنقر على آلته الكاتبة العتيقة، وفي اللحظة نفسها أكون هناك في العاصـمة، سـاعيًا وراء العلامات ومفاتيح الحلول في إحدى قضاياي أو إحدى رواياته.

تسلمتُ عملي الجديد، بعينين لا تبتعدان عـــن وجـــه العجـــوز، وصوتٍ يجاهد لكي لا يكشف عن مقدار توتري. لا أثر لزوجته، سواء حيزبون أو شابة فاتنة، ليس سوى مديرة منزل من أهل الجزيرة، نشطة على كبر سنها، وبعض الخدم الصغار، هذا غير مدير أعماله المتـــوحش العملاق وكأنه مدير سجن يظهر بين الحين والآخر فجأة، ولكن يختفي تدريجيًّا مثل قطعة ثلجٍ في شراب، بحيث لم أعرف بالمرة متى ذهب وقد كان بيننا قبل لحظات. الآن على كل حال أستطيع أن أكتب ما أريـــد، لن يرى ما أكتبه، ولن يعرف أن روايته الأخيرة في سلسلته الناجحة لن تكون على هواه. أصابعي تتحكم بمصيري، تمسك بالخيوط التي تحركني، أنا أحرك نفسي بنفسي، فلست دمية إذن. إلا إذا.. إلا إذا كان لصوت هذا العجوز الهامس سطوة غامضة عليّ. سوف أصمّ أذني عما يقـــول، سأضع فيهما شمعًا أو قطنًا أو سماعات موصولة بجهاز الراديو. سأخترع لنفسي حياة جديدة: المخبر الخاص تقاعد عندما اكتشف أنه شخصية في رواية، لم ينتحر رغم أنه فكر في هذا، لكنه أيضًا لم يستسلم للكســـل وبدأ في البحث عن كاتبه.

إما حياتي وإما حياته. يحاول إقناعي بالانتحار، لمجرد أنني لســـت شخصية حقيقية، ما معنى أن أكون شخصية حقيقية أو مختلقة. قد أكون مثله، رجلا طبيعيا وحقيقيا ٢٤ قيراطًا، ولكنه أعمى نصف ميت، لا هم له سوى غزل الحبكات البوليسية، وكأنه عجوز فاتها القطـــار تشـــتغل بإبرة التريكو ثم تعود تفك الخيوط، يريد أن يقتلني الآن، ببساطة، كأنه الآنسة المُسنة قد ملّت هذا المفرش وتحلم بواحدٍ جديد، أحمـــر بزهـــور كبيرة، سلسلة روايات غرامية مثلاً.

المخبر السري وقد تقاعد، هكذا أكتب، استرد شبابه، عاد إليه شغفه بالشعر وبالحب، ويقرر البحث عن امرأة حياته، عن نصفه الآخر الذي ادخرته له الأقدار قبل أن يفتح عينيه على نور الدنيا. وهنا -وعلى غرار المصادفات التي قادت نسيج حياته كلها- تظهر زوجة الكاتب. كأن سلسلة الألغاز البوليسية سوف تتحول إلى سلسلة عاطفية. ظهرت المرأة فشوشت انتظام أفكاره ونقضت الغزل المتماسك لبيت العنكبوت.

تدخل إلى المشهد كما تظهر جولييت في حفلٍ راقص أمام روميو. وردةٌ نضرة في أول أيام الربيع، تجاوزها الشباب لا يحرمها مع ذلك من ألق الشباب وسخونته. عائدة من رحلة تسوق في بعض العواصم. قطة شقراء ذات دوائر ومنحنيات لدنة طيعة، والمسافة بين شبابها وشغفها بالحياة وبين جثمان الشيخ الكاتب وعماه أوضح من نور الشمس على هذه الجزيرة المشرقة.

تلعب على البيانو، تدخل بالشاي والحلوى آخر النهار. والمخبر السابق يستعيد شبابه، مع كل صباح تخفّ التجاعيد الصغيرة ويعود لشعره لونه الأسود القديم، وترهلات بطنه تلتئم، ويشعر أن ركبتيه كالحديد، وأن نخاع عظامه يتزايد مع كل يوم قطرة جديدة. يرجعُ الشيخ بمعجزة الحب إلى صباه يا أولاد. هذا ما كان يكتبه، غير منصت لتوجيهات الأعمى، لكن المرأة الشابة كانت تنصت، بابتسامة متواطئة، تتواطأ مع أي منهما؟ يعلم الله. كانت تنصت لحكاية الحب المحرم، ولحكاية المخبر الذي عاد له شبابه، الحكاية نفسها، وإن اختلفت التعبيرات والصياغة. تطبع قبلة على خد زوجها المنسوج من خطوط دقيقة لا عدد لها. ثم تبتسم للسكرتير الوسيم وتومئ له.

يلتقيان أكثر. يلتقيان في الحديقة أو الردهة، ويتحادثان بينما يأخذ الأعمى قيلولته المقدسة، وربما يحلم بحكبة الخيانة الآثمـــة. ثم يضـــحكان وهما يراقبان كلبًا وأنثاه يفعلانها في الساحة الواقعة وراء المترل، وأخـــيرًا في غرفته وقد جلبت له بعض الزهور، ثم بعد أسابيع ها هي تقول له: إن لم تقتله في الحكاية فلن يموت. افعل ذلك من أجلي، من أجل حبنا. يرد عليها بأنه سيفعل، ولكن من أجل أن يتأكد من حقيقة وجوده، فـــإن مات مع كاتبه أيقن من أنه مجرد حبر على ورق، وإن بقي بعده سيكون من حقه عندئذ الحب والشباب الأبدي.

قاربت الحكاية على الانتهاء، حكاية العجوز وحكاية الشـــاب، منطوقة مرةً بأسلوب ومكتوبة بأسلوب آخر مرة. ثم نهض الشيخ فجأة ونزع السدادات من أذني الشاب، وطلب منه وضع النهايـــة، تســـاءل كيف وأنا أكتب ما تمليه عليّ أنت؟ فقال له: لا داعي الآن للمراوغـــة، ضع الخاتمة التي تروقك، وإلا تركنا هذه الحكاية معلقة إلى الأبد. عينـــا الزوجة في ركن الغرفة تحضه أن يفعلها. وهو يرتعش، هذا هو الاختبار الأخير، إما الخلود وإما الفناء، العدم أو الوجود. وفي لحظات قصـــار، تراءت له حياته كلها مثل كذبة، غير أنها كانت كذبة حُلوة ولا يمكنـــه المغامرة بها في نزوة السعي وراء الحقيقة هذه.

أخرجته من شروده ضحكةٌ مجنونة أطلقها الشيخ، ثم أمره بعبـــارةٍ صريحة أن يضع النهاية الملائمة لثلاثتهم، للزوج والزوجة والعشيق، دون أن يشعر بالحرج من ذلك، فالشيخ يعلم كل شيء قبل أن يحدث حتى. طلب منه بوضوح أن يطلق عليه رصاصة الرحمة، فقد سئم الخلود.

لف الضباب حروف الآلة الكاتبة أمام عينيه، وأخذ يكتب:

كان يتأمل المرآة ولا يرى شيئًا، بينما بدأ مزيج السموم يتسرب لأمعائه، ورغم ذلك رأى بعين خياله وجهه، كما رآه أول مرة شابًّا ومخدرًا، ومذعورًا من احتمال الموت. الآن يطلب الموت، يستنجد به. لم يعد يرى شيئًا، تحسس المرآة السوداء. وغاب كلُّ شيء في نفخة هواء أخيرة.

(٢٠)

رائحةُ الغبار تتكاثف في غرف الشقة مع كل يومٍ يمر، رغم أنني نادرًا ما أفتح النوافذ، وربما لذلك السبب نفسه صار للشقة عبير عطن لا يُطاق. وتذكرتُ فجأة حنان، بعد حلمٍ لم يدع مجالاً للشك في اشتياقي لها، هي تحديدًا وليس لأية امرأة والسلام. قلت لنفسي إنها مهما غابت فسوف تعود في نهاية الأمر، أما عن المبلغ الذي سرقته فقد تتجاهل الأمر كأن لم يكن، وربما اعتذرت وردّته بعد انفراج ضيقتها. المهم أن آخذها للفراش، قبل حتى أن تتناول هي الزعافة لتهدم بيوت العناكب.

كنت أجد سابقًا في اصطياد النساء لذة تفوق لذة النوم معهن. وبالوقت والمران، استطعتُ أن أعرف كل ساحات الصيد المناسبة، فصرتُ أتردد عليها بانتظام، مادامت بعيدة عن مكان عملي ومنطقة سكني. شوارع وسط المدينة، ومقاهيها وباراتها. أمام واجهات المتاجر، وعلى المحطات، في غرف الانتظار بعيادات الأطباء الذين أتردد عليهم من وقتٍ إلى آخر، أو حتى المطاعم والمتاجر الكبيرة. لم أكن أهتم كثيرًا إذا ما كانت رحلة الصيد سوف تنتهي بالنجاح أم لا، أي إذا ما كنت سأعود لشارع منية السيرج ومن ورائي فريسة تتبع خطواتي بمسافة معلومة، أو على الأقل برقم هاتف في جيبي، بقدر ما كان يسرني وقت المطاردة نفسه، اللف والدوران، رسائل الأعين الموحية والصريحة، العبارات الممهدة والأسئلة التي تفتح المسالك نحو الغرض المقصود من البداية، ثم المراوغة والدلال والمحايلة والاستعطاف والإقناع والإغراءات. بعضهن أتين معي بعد أن رأين بطاقتي الشخصية، أو بعد أن عرفن أن عندي سخّانًا في الحمام، أو بعد شراء زجاجة خمر من النوع الذي يفضلنه، أو بعد الاتفاق طبعا على تسعيرة محددة. لم يكن يغيظني إلا الفوز السهل، وفي أحيانٍ كثيرة كنتُ أعرض عن الفريسة الخائبة التي تسلم رقبتها للسيف من أول كلمة أو نظرة، حتى ولو ندمتُ بعدها معانيًا الاحتياج والجوع.

لا أحب تصوير نفسي كأنني دون جوان عصره وأوانه، فلم يكن التوفيق حليفي في أحيانٍ كثيرة، لكنَّ النساء يغريهن وضعي: رجلٌ تجاوز منتصف العمر، مُطلّق ويعيش في شقة طويلة عريضة بمفرده تمامًا، وربما يصلح زوجًا إذا تعلق بالصيد العابر ووقع في الفخ، وإن لم يصلح فهو أمان، وليس وجهه وجه مشاكل وفضائح، ثم إنه في الفراش عفريت خرج لتوه من القمقم.

لو أنني كنتُ حريصًا على تدوين سطور قليلة عن كل مضاجعة لي، ولو أقل القليل في دفترٍ على السريع، لكان الآن لدي مجلد ضخم، يضم حكايات ولا ألف ليلة وليلة أو رجوع الشيخ، وكان سيصلح هذا المجلد باعتباره نواةً ممتازة لروايتي الأولى عن نساء حياتي. لو حرصت على الكتابة عنهن، بترتيب الوقائع والتواريخ لما اختلطتْ في ذهني الآن الوجوه والأنامل والسيقان والفروج والمؤخرات. غير أن مضاجعاتي تلك لم تكن للذكرى، لم تكن مكتوبة لتبقى وتخلد، بل كنتُ أقدمها أولاً بأول قرابين لآلهة المحو والنسيان. ما إن تغادر المرأة منهن منزلي -أو ربما ما إن تنزل عن الفراش- حتى تتبدد صورها مرة واحدة، أو بالتدريج، إلى أن ألتقي بها من جديد، أو تتصل، وهو ما لم يكن يحدث كثيرًا. باستثناء حالة حنان ولا شك، وكنت أظنها هي الأخرى من بنات النسيان والزوال، غير أنها بقيت لتفرض صورها الآن علي وعلى حكاية حياتي.

لم أعثر عليها خلال رحلات صيد النساء ومطاردهن بالساحات، بل كانت هي من عثرت عليّ، وجاءتْ حتى باب شقتي، وبادرت بطرقه في صباح يوم جمعة مُبارك. في حدود علمي كانت تجيء من بعيد، من إحدى القرى القريبة من مسطرد، لم أعد أذكر حتى اسمها. تعرض خدماها على سكان بعض الشقق، تنظف لهم البيوت مرة أو

مرتين في الأسبوع، تلم الغسيل وتضعه في الغسالة وتمسح البلاط وتعيد للمطابخ هيئتها المبهجة، وربما نفضت السجاد بالمنفضة على درابزين السلالم، مقابل أجر متغير حسب عدد الغرف أو عدد سكان البيت، أو حسب ما يتكرم به عليها السادة ممن تخدمهم.

لم أكن قد استيقظتُ تمامًا، عندما رأيتها تقف على باب الشقة، وتذكر اسم الست مادلين التي دلتها عليّ، تحيرت للحظات قبل أن أدعوها للدخول، وتذكرتُ أن جارتي التي تقترب من المئة كانت قد ذكرهما لي في أحد الحوارات الطويلة التي أضطر إليها عند تناول الطعام معها بين الحين والآخر.

بعد أن غسلت وجهي كنت أعرف ما الذي أحتاجه منها تمامًا، وأحسستُ كأنَّ عينها تجيبني على سؤال تردد في داخلي كالجرس: سوف تقبل، بل إنها مستعدة تمامًا، لم يكُن في سلوكها أو نظراتها تلك الإشارات المكشوفة أو الفاحشة، بل لاحظتُ نوعًا من التسليم بالمكتوب، وكأنها الفريسة الحقيقية، أتت تعرض عنقها النحيل النابض بالحياة لحد السكين لتنتهي وتستريح. لم أرقد مع حنان في تلك الجمعة الحزينة التي دخلت فيها بيتي للمرة الأولى. تركتها ونزلتُ، ولم أدر لم أغلقت الشقة بالمفتاح من الخارج. قضيت نحو ثلاث ساعات بين الحلاق والمقهى، قرأت صحيفتين بلا تركيز، وأنا تحت رحمة أكثر الأفكار خبثًا. عدتُ لأجد الشقة كلها في حال غير الحال، بمجرد فتْحها للنوافذ والشرفات مسّ المكان كله بكهرباء غامضة، وكانت قد نضت عنها عباءتها السوداء، وبقيت هناك في جلباب بيتي خفيف، ومن تحته بانت أنثى ممتلئة بلا إفراط، قصيرة ومدملكة من النوع الذي أُحب أن أسميه الضفادع، ولهنّ في الفراش حضور وتفانين. ناولتها الأجر فسألتني إن كنت أشتهي طعامًا ما فتطبخه لي في الزيارة القادمة، ولكنني لم أكن

أشتهي عندئذٍ إلا ثمرة واحدة وبسيطة، فلم أطلب منها شيئًا.

بعد أسبوعين، وفي زيارتها التالية تظاهرتُ بالنعاس، بينما هي تكاد تُنهي تنظيف الشقة، ومن منظرها لدى دخولها عرفت أنه اليوم الموعود، فقد لاحظت رقة ونحافة حاجبيها ووجهها المجلو كأنه وجه دمية من خزف. كان الأرز بالشعرية متروكًا ليستوي ببطء على نار هادئة، وقد انتهت من قبله من دقية البامية بلحم الضأن، ثم أتت لتوقظني لتذهب إلى حالها، وقد كاد يغيب نور النهار تمامًا عن الغرفة. واصلتُ التظاهر بالنعاس وكأنني تلميذ خائب لا يرغب في الاستيقاظ للذهاب والنزول من دفء البيت إلى جحيم المدرسة. ولم أستجب لمحاولاتها أن توقظني، "أستاذ أحمد.. أستاذ أحمد"، إلى أن مدَّتْ يدها ومست كتفيَّ مسًّا رفيقًا، فأمسكتُ بيدها بشدة، وقربتها من فمي بهدوء وكأنني في غمار حلم جنسي لم أفق منه ولا أريد. قبلتُ أطراف أناملها الباردة من ماء الغسيل والطبيخ والتنظيف، ثم أخذت أرضع كفها كله حتى دفئ تمامًا، وكانت قد رمت بجسمها كله على طرف الفراش. قدمتْ لي نفسها عن طيب خاطر بهدوء وإذعان مثل خدمة إضافية تقدمها لزبون، وكدتُ أن أُجنَّ عندما طلبت مني أن نكتب ورقة عرفية، لكي لا نقع في كبيرة الزنا، وفي لهفتي وافقتها رغم معرفتي أن لها زوجًا مسجونًا، ولم يُطلقها بعد. وكعادتي من سنين، حرصتُ على عدم التورط معها إلى الحد المخيف، مشاعري على الحياد، وجسدي على المحك، هذه هي المعادلة المثالية. فلم أحاول أن أعرفها ولو معرفة سطحية، كنتُ أجبن من هذا. لم أسألها ولو مرة واحدة عن أولادها، وأحوالهم وعن أبيهم السجين. الست مادلين هي من أخبرتني أنه كان سائق ميكروباص، دخل بعربته في سيارة ملاكي وهو مسطول، سترَ الله، فلم يمت أحد، لكن حكم عليه بالسجن لسنوات. لم يكن الميكروباص ملكه، واضطرت الزوجة الشابة للنزول للعمل. حكاية مؤسفة ومبتذلة قليلاً.

كنتُ آخذ جسد حنان كأنه هدية بسيطة منحتني إياها الدنيا دون أن أطلبها حتى، أعتقد أنني كنتُ أرضيها بقدر استطاعتي. ونـــادرًا مـــا تساءلتُ هل هناك آخرون غيرى طلبتْ منهم أن يكتبوا عليها بورقـــة عرفية حتى لا يحاسبها الله حساب الزانيات؟ أما هي فلم تتجاوز الخـــط الأحمر الرفيع الذي رسمتُه بنفسي بيننا. للفراش لغة ولما سواه لغة أخرى. وقبل وقتٍ طويل من سرقتها مبلغ الألفي جنيه واختفائها تمامًا، كنتُ قد أضعت حتى نمرة محمول جارتها وصديقتها. أذكر أن سرقاتها الصـــغيرة كانت ساذجة ومكشوفة، وأنني لم أُلمّح إلى معرفتي بها على الإطـــلاق، وكأنني كنتُ أخجلُ لها من ذلك وأشفقُ عليها، أو كأننا اعتبرنا الأمـــر مجرد لعبة فيما بيننا، لعبة مسلية أو سرًّا تافهًا لسنا مضطرين لكشفه، سرًّا آخر غير سر الجسد.

كانت تأتي كل أسبوع أو عشرة أيام أو أسبوعين على الأكثـــر، تأتي من قرية لم يعد هناك ما يربطها بالقرية إلا اسمها الذي نسيتُه، تاركة وراءها كومة لحم، وربما حماها البرواية سليطة اللسان. حالة إنسانية تليق بقصة ليوسف إدريس، تجد فيها الشاشة الكبيرة مادة مناسبة لفيلم رائع، من بطولة نادية لطفي ومحمود ياسين في السبعينيات بكل تأكيد. تأتي في عباءتها السوداء أو جلبابها القطيفة النبيتي ولا ثالث لهما أبـــدًا. وعلـــى رأسها إيشارب قد يُبدل لونه بوتيرة أكبر، ومن فوقه على الدوام الطرحة السوداء نفسها. تأتي بوجهٍ صغير نظيف وقمحـــي اللـــون، بحـــاجبين مزججين ومقوسين للغاية، وكحل عينيها وجسدها الململوم على نفســـه في تكوينات مُحكمة، جسدٍ لا يشي تحت الثياب الواسعة بكل الكنوز والأفراح التي يختزنها لشيخٍ ضائع مازال فيه رمق ولا يخشى إن هو عجز ذات مرة عن اقتحامها. فمن تكون حنان حتى أخجل مـــن عجـــزي أمامها، كما جرى بالفعل مرة أو مرتين. وعدا تلك المناسبات النـــادرة، التي خذلني فيها جسدي، فلم يخذلني جسدها هي ولا مـــرة واحـــدة،

وجعلت أعتمد عليه لإطفاء شهوتي على مدار عامين تقريبًا، توقفت خلالهما عن النزول لساحة الصيد تمامًا، وانحسرتْ شهيتي حتى عافت الأصناف بعيدة المنال، واكتفيتُ بهذا الصنف الواحد، وكأنني تزوجتها حقًّا، ولولا أنها تأتي على فترات متباعدة قد تبلغ ثلاثة أسابيع في بعض الأحيان، لمللتها ونبذتها قبل انقضاء فترة طويلة. قبل أن أنساها تمامًا، وقبل أن ينتبه جسدي لجوعه تأتي فجأة، لتعود المياه إلى مجراها، تأتي إليَّ حتى مطرحي، هنا في محبسي الذي لا أغادره إلا لضرورة العمل أو سهرة الصحاب والتحشيش. وفي بعض الليالي تمنيتُ لو عدتُ من الخارج لأجد حنان نائمة في الفراش، لأزيح عنها الأغطية وأندس إلى جانبها، وكنت أطرد هذه الخواطر في الحال، لكيلا أسمح لظلٍ من الحسرة بأن يتسلل إلى نفسي لعدم زواجي بعد تجربتي الأولى المضحكة والمحزنة معًا. واستغرقت في التعرف على جسد حنان بالتدريج، وكدت أحفظه شبرًا شبرًا، بعلامات الولادة القيصرية على بطنها، وخشونة أصابع يديها وعروق ساقيها وشعر إبطيها وعانتها الذي ما إن تزيله حتى يعود للنمو غزيرًا وفواحًا بروائح فجّة وفاتنة. لم نكن معًا سوى رجل وامرأته الصغيرة في فراش، مغلفين بفقاعة من الصمت التام، مثل اثنين من الصُمِّ والبكم فقدا كل رغبة وطاقة لتحريك أيديهما بالكلام المرئي.

ذات مغيب، وبعد أن انتهت من واجبات البيت وفرغنا من مضاجعة طويلة تركتني متعبًا ومشبعًا، أذكر أنها راحتْ في النوم فجأة على ذراعي منهكة وعارية تحت ملاءة خفيفة. كفلتْ لنا ستائرُ غرفة النوم نورًا وظلاً متمازجين ومتهامسين كما في الأحلام، فازدادت غرابة الصور الموزعة على الجدران، بنظرات ثابتة لأشباح الأسرة الراحلين الأحياء منهم والأموات؟ من جديد الجميلة والوحش، من جديد الأميرة النائمة، مومسًا كانت أم إلهة سُلبت عرشها من زمان. تترامى إليَّ من الشارع نداءات بعض الباعة الجوالين عذبة ومُوقّعة الألحان، مثل أصداء

من عوالم أخرى لا تنتمي إلينا ولا ننتمي إليها. بدتْ لي في نومها عندئذ المرأة الأكثر رقة وعذوبة في الكون كله، و لم أعد أعرف أهي خليلتي، جاريتي مدفوعة الأجر، أم ابنتي التي لا تطلب مني غير الرحمة والشفقة والرعاية. وأصابني هذا بذعر حتى سرت رجفة في جسدي، وأحسست بالعار كمن ارتكب كبيرة غشيان المحارم، وكدتُ أن أوقظها بقسوة، بل أن أوسعها ضربًا ثم أطردها إلى الخارج، خارج الشقة والشارع وحياتي بكاملها، لأمحو أثر هذا الجرم محوًا تامًّا. وسرعان ما تملكني الخذلان وذقتُ طعم حزن صاف مُقطر أمامها، أمام مجرد وجودها نائمة مستسلمة إلى جانبي، فكم كانت أنفاسها ثقيلة على سمعي، وكم كان رأسها شديد الوطأة على ذراعي. كانت غير محتملة، فقد بدت حقيقية إلى أقصى حد. على عكسي أنا، كانت حنان امرأة حقيقية، دم ولحم وعظم كما يُقال، منغرسة في وحل الأرض غليظ القوام، بجذور لا تتزحزح. وفي نومها ذاك، غمغمتْ باسم أحد أطفالها، وكانت تنهره ليكف عن مضايقة أبيه النائم مُتعبًا في حلمها: "يا واد اهمد شوية، أبوك نايم تعبان".

(٢١)

لا أستطيع حتى الآن أن أستقرَّ على نغمة هذه الرواية، أو هذا المشروع الجديد، نزوتي الأخير، امتحاني النهائي.

فهل هي حنين ساذج لزمنٍ مضى، لصوري القديمة الأبيض في أسود، مثل تلك الصورة التي عثرت عليها بين صفحات كتابٍ لأبي؟ الحنين مرض، أعرف. أم أنها تجميع عشوائي لحكايات وقصاصات ومشاريع قديمة غير مكتملة، مثل حكاية التجربة الأولى في دير الملاك؟ أتخيل مُن تقرأ، فأهتم بأدق التفاصيل. هل يتخيل كل روائي شخصًا ما، شخصًا محددًا، له اسم ووجه وتاريخ حياة، يقرأ سطوره بينما هو مازال يكتبها؟ من الروائي؟ ما الروائي؟

١٠. الروائي هو أم العالم، مخاضه يتجدد باستمرار، في كل عمل له، ولا يصل أبدًا لسن اليأس، حتى بعد موته، ولذلك فهو لا يحتقر النساء بالمرة.

١١. الروائي هو من يجيب المعجبين بابتسامة سمحة: نعم، حدثَ كل هذا وأكثر!

١٢. الروائي لا يقرأ الصحف، بل يعيد كتابتها كي تصير أصدق وأمتع.

١٣. الروائي يحُشش ويشرب ويهمل ثيابه ويستمني بانتظام ولو كانت له زوجة أو عشيقة.

١٤. الروائي يستمني أمام المرآة.

١٥. الروائي ليست له قصة حياة، أما سيرته الذاتية فيوزعها على جميع

أعماله، مبدلاً الأسماء والتواريخ، مثل طفلٍ مريض بالكذب، أو يكتبها بعد وفاته أصدقاؤه الصحافيون.

١٦. الروائي يبقى هو ذاته حتى عندما يتحول إلى امرأة أو مخنث أو قاطع طريق أو عنبكوت.

١٧. الروائي هو من ينفضُ المنديل فنكتشف أن المنديل فارغ حقًّا.

ماشي. أكتبُ من أجل مُنى، لأخدع نفسي، لأكمل الطريق حتى نهايته مهما تكن النهاية. لأصدِّق وهمي أن هناك حبًّا ما. كيف يكون شكل الواحد أمام الله والتاريخ والناس، إذا ما انتهت حياته بلا قصة حب واحدة، ولو بالكذب؟ لو أنني تركتُ نفسي للشعر، للشاعر القديم الهامد بداخلي، لما رويتُ موقفًا واحدًا على بعضه، ناهيك عن قصة بطولها وعرضها.

نعم، سيحاول السائق كبح قاطرته بلا جدوى. من العجلات سينطلق صوت صريرٍ معذِّب للآذان، ويشق الفضاء الضيق المغلق طائرٌ أسود، طائرٌ له هيئة صرخة عظيمة. مرحبًا أيها الشاعر ذو السوالف الطويلة على صيحة السبعينيات، هل أعد لك قهوة معي؟ أم نبدأ الاستعداد لسهرة الصيدلية؟ مع العيال، آه، موجودون كلهم، ولكنك قد لا تتعرف عليهم؛ حُكم السن. سأقلب شريط الموسيقى على وجهه الآخر في الكاسيت العتيق أم يروقُ لك هذا الصمت أكثر؟ اكتب، اكتب على راحتك.

هل يفكر هذا الشاعر، الذي هو أيضًا أحمد رجائي بطريقةٍ ما، في مُنى أم يتخيل وجه وجسد منى أم يكتب عن منى أم يكتب من أجل منى، أم يفعل هذا كله معًا في نفس الوقت؟ ما شاء الله، شاطر المضروب.

أجرؤ على السخرية من نفسي، فهل أجرؤ على تصفح دفترها البني الصغير، وأن أطلع على أسرارها إن كانت فيه أسرار؟ أم أنتظر وأتريث قليلا حتى أتعب ويفيض الكيل بالشاعر، فيطلب قهوة أو موسيقى؟ إذا نجحت في التوقف للحظات عن تأمل صورها الصغيرة في كارنيه المكتبة سأتمكن من النهوض لحلاقة ذقني والاستعداد للخروج من المتاهة.

دارت بها الدنيا حين رفرفت الأجنحة السوداء في سماء العربة. في اللحظة نفسها تصرخ العجلات ويستيقظ الركاب من نومهم وبقايا أحلامهم تلمع على شفاههم. في اللحظة نفسها يقول سارتر للشيخ القارئ بالعربة إنه لم يعد يوجد الكثير مما يمكن أن يثير اهتمامه الآن، وإنه صار يتعالى على هذا كله. أتوقف الآن عن مراقبة الشاعر في محبسه، أكتفي بأن أفتح له الباب وأبتعد. ما زال حيًّا يُرزق في زنزانته المتواضعة، سجين أي نعم، ولكنه ينتفض بالحيوية مثل نمر في قفص بحديقة الحيوان. عاكفًا على عمله بإخلاص ناسك، في العتمة شبه التامة، ينتظر أهون إشارة ويتظاهر بالعكس، وبين يديه عدة الشغل الرومانسية المتهالكة، في عينيه فقط تبدو هذه العدة جديدة، لم تُمس، بشوكها الموجع الجميل، يا خيبته!

تدور بك الدنيا يا منى ويتهاوى جسدك نحوي، نحو الشيخ أسير ظلاله ومراياه. أنا وأنت وطائرٌ أسود يتخبط بأبواب ونوافذ العربة مفتشًا عن مخرج. هل كانت أجمل من أن تكون حقيقية؟ أم أنه تأثير قرص الأبيتريل الذي ضربته على الصبح مع فنجان قهوة سريع، بعد ليلة تحدثنا عنها سابقًا، بلا نوم، وكلها أحلام غامضة، تردد فيها فعل أمر واحد، وكأنه دعوة سرية للرقص مع جثة هامدة، جثة في ثياب الحداد، لبنتٍ تشبه سعاد حسني أم سعاد حزني، كما أوشكت أن أكتب؟

ترتدي الأسود مترملة على حبيبٍ وزوج سري، احترق مع آخرين في مسرحية عبثية لن يتذكرها أحد بعد سنوات معدودة. وبلا مساحيق سوى خط الكحل، وخاتمها الزجاجي فيه حجر نرد، فلابدَّ أن لهذا كله معنى. وثدياها عامران ومكوران، وهي نقطة ضعف قديمة في قلوب أكثر أبناء آدم، أو خفيف القلب منهم على الأقل، ناهيك عن شيخٍ على مشارف سن المعاش، ولم يمس امرأة من فترة لا يتذكر مداها، وهكذا يؤسفني أن أعلن أنني أحسستُ بانتصاب مباغت، في سخونة الموقف كما يقولون، وأنا أسندها بين ذراعي، في اهتزازة القطار التي رجت الجميع. انتصاب موجع، وكلي خجل منك أيها الشاعر القديم. مع السلامة، لا تقطع الجوابات.

وكأن انتحار الشاب المصري الصميم الذي أخذ حقه وزيادة من سطور هذا الدفتر الأول لم يحدث إلا ليعيد إليّ شهيتي الجنسية، ويذكرني بالواجب نحو هذا الجسد. رميتُ سارتر على الأرض، ولعنته ولعنت زهوه وثقته وتعاليه على الدنيا بما فيها في آخر أيامه، وتشبثتُ بمنى، تشبثت بالحياة، أو بطيف سعاد حسني، سوف تُنسى هي الأخرى، كما يُنسى الجميع، بعد شهور أو سنوات من أسطورة موتها أو مقتلها أو انتحارها، لا يهم. ورأيتُ أيضًا دمعتين، لهما زرقة الكحل الداكنة اللامعة، تجمدتا بين جفنيها نصف المسبلين. ورأيت أشياء أخرى كثيرة، لو أحصيتها كلها لما وقفت عند حد.

١٨. الروائي يعرف -معظم الوقت- أين يقف عند حده.

١٩. الروائي يصرف الشاعر دون أن يثير حرجه، حتى لا يحرمه كراماته بين الحين والآخر.

٢٠. الروائي من يعيش في منديل، لا يزيد اتساعه عن صفحة دفتره.

يدها اليمنى كانت تمسك بالحلقة البلاستيكية المتدلية من سقف العربة، هكذا أتخيل، وباليسرى كانت تحتضن بعض الكتب والأوراق، وفي كتفها حقيبة صغيرة، تتجاور مربعات الأبيض والأسود فيها، رقعة شطرنج ضيقة تتسع لمعركة العالم النهائية، هكذا أيضًا أتخيل. سمعتْ مثلي ومثل الآخرين طقطقة العظام، وصرخة المنتحر فاضطربت روحها وارتمت نحوي، وقبل أن تكون بين ذراعي، تسقط أشياؤها أولاً، ولا ألحظ هذا كله إلا فيما بعد، بعد أن أغلق عليّ باب عزلتي وأنهمك منحنيًا في تجميع القصاصات والتفاصيل والخطوط والألوان. "ساعاتي الأمانة". آخذها بين ذراعيّ، وألعن سارتر وخاش سارتر واللي جابو سارتر. بانتصاب كامل ومزعج كنور شمس الظهيرة. مؤامرة المصادفات محكمة ضدي، أو أنني – من جديد وللمرة المئة– هكذا أحب أن أتخيل.

لا أجد في الأجندة البنية الصغيرة التي عثرتُ عليها بعد ذهابها ما يفيدني في الوصول إليها. مجرد ملاحظات عن أمور مجهولة تبدو أحيانًا مناقشات سياسية وأحيانًا مشاريع فنية. ثمة ما يربط بيننا إذن، لي تاريخ يا مُنى والله العظيم لي تاريخ. سأكتب وستعرفين كل شيء. ومواعيد، الكثير من المواعيد، موزعة على الصفحات كلها، حياة كاملة من المواعيد والارتباطات، بروفات مسرحية، ورش حكي، ما معنى ورش الحكي هذه؟ هل سأبدو جاهلاً أمامها في لحظةٍ ما؟ لابد أنني سأضطر للمذاكرة على كِبَر. ما فهمته أنها تعيش في متاهة لا تختلفُ كثيرًا عن متاهتي. وبين صفحات الدفتر أجد كارنيه مكتبة مبارك العامة بالجيزة، وبها الاسم، منى على البربري، وبيانات أخرى لا تخص سوى المكتبة

نفسها. والصورة الصغيرة للغاية والكافية لتشويش المسار المعتاد لأحلامي وكوابيسي على مدى أسابيع، بابتسامتها الهشة هذه، ابتسامة غير مستعدة للسقوط في فخ الفرح، ابتسامة مكسورة كأنها تكتم توجعًا وتسخر منه معًا.

لن أستسلم، لعبة المصادفات توجد فقط في أذهاننا، لن أتتبع تلك القطة السوداء اللعينة تقودني إلى حيث تشاء. روح ساحرة، مباركة أو ملعونة. أليس من الجائز أن تكون هذه البنت نفسها، أو على الأقل مشاعري وأفكاري عنها، جزءًا من لعبة الظلال والأشباح التي تطاردني بلا هوادة في أنفاق المترو أو راقدًا على فراشي.

هذا يكفي وزيادة؛ بلا مسخرة. شكرًا جزيلاً للمصادفات والمؤامرات. لا يهم، شاكرين هذا الواجب فعلا. أحمد ومنى! بجد مسخرة.

في ذلك اليوم الأول من دخولي المتاهة، وقبل شهور طويلة من شراء هذا الدفتر، نجحت بالكاد في وضع أجندتها جانبًا، ونزع عيني عن صورتها. نهضت بشيء من الصعوبة وسط فوضى الأوراق والكتب، عازمًا كروائي محترم، أن أضع حدًّا لكل هذا التداعي الشعري السقيم. سوف أتهيأ للنزول، سأتوجه إلى رفاق الأنس بصيدلية شنودة. وفي الأثناء سأفكر فيما قد أحكيه لهم عندما يأتي دوري في لعبة الحكايات. في يدي خيط، مع ذلك، هذا الدفتر، وهذه الصورة، وهذه الابتسامة. ليست أوهامًا من صنع المخدرات. ويدعون أن المخدرات تريح العقل، وباب للهرب من الواقع. المغفلون. لا، لن أحكي لهم بالمرة عن أي شيء من هذا، لا الليلة ولا فيما بعد. سيضحكون، سأشبع من سخريتهم ولن يشبعوا هم. آه، أحمد ومنى! كيف حدث هذا؟ مثل الفيلم العربي القديم تمامًا، مثل كل الأفلام القديمة. غير أننا

لن نتمكن من الجري على شاطئ البحر وكل منا يصيح باسم صاحبه مناديًا عليه: أحماااااااد.. موناااااا. سآخذ حمامًا دافئًا على السريع، حمّـــام يليـــق بيناير. وأحلق لحيتي هذه، حتى أتخلص من كل أثرٍ لمظهر العاشق البـــائس، مراهق بلحية بيضاء شائكة. أحماااااد، عم أحمااااااد، شيخ أحمـــاااااد، بابـــا أحمااااااد! مسخرة. ماذا أقول لهم؟ ثم أمسكت بها وقد أثارني هذا بشـــكل فظيع، تصوروا، في عمر بنتي. أبدًا. ليس عليّ إلا أن أركز قليلاً، أن أعيـــد الشاعر القديم لزنزانته، وأن أقدم المنوم للعاشق الجديد، وأن أفلت من بينهما بجلدي. ليس عليّ إلا أن أفكر في الأمور البسيطة، اليومية والملموسة، حتى أتمكن من الخروج من تلك الحبسة، من بين هذه الجدران الكئيبة الجـــديرة بالهدم فوق رأسي. الحمام أولا، وتشغيل السخان العتيق معضـــلة أخـــرى صغيرة. اختيار بنطلون آخر مع البلوفر نفسه. موناااااا، صغيرتي مونـــاااااا، حبيبتي مونااااا، كتكوتتي مونااااااا. كيف أُخرس هذا الصوت؟ أي قميص والسلام، لا يهم إن كان مكويًّا، لماذا يُكوى القميص مادام لن يظهر منـــه غير ياقته؟ وبالطبع كوفيتي الحمراء العظيمة. لن أحلق ذقني، أنا حُر، ولـــن أحلقها.

لستُ شخصية في كتاب يفيض بالمصادفات الساذجة المكشـــوفة، ولست مخبرًا سريًّا في سلسلة روايات رخيصة يكتبها أعمى مجنون، ولن يسرق رجائي الصغير مني حياتي وسيرتي، وحبي الأول والأخير. لن أسمح له، لن يذلني، ولو على الورق.

نزلتُ يومها، ذلك اليوم البعيد كأنه عُمق مرآة والقريـــب كأنـــه سطح مرآة، وأنا أسخر من نفسي، جاهلاً بما ينتظرني، وغافلاً تمامًا عن النهاية التي بدأت تتحرك، تنقل أطرافها المقوسة الكثيرة نحوي.

الدفتر الثاني

ثُمّ غادر السهرة حين ثقلتْ أنفاسه. كان قد تطلّــع حولــه، في وجوه رفاق شلة الأنس، فلم يكد يتعرف عليهم، العيال الذين شــاخوا معًا. حاول أن يتعرف في هذه السحن على الوجوه القديمة الفتية فعــاد خاسرًا. ولا يعترفون بشيخوختهم بالمرة، العيال الذين مرّت بهم العقود وهم في هذه الجلسة، تقريبًا. يجمعهم ماضٍ صار محل تساؤل وشك، في غمرة هذا الدخان الجميل. استأذن منهم، مغمغمًا بعبــارات متكســرة حول ضرورة النوم ولو لبضع ساعات، قبــل الانطــلاق إلى الكفــاح صباحًا، فألقى بعضهم تعليقات خبيثة عن حريته، وعدم وجــود وليــة تنتظره لتوبخه على سهر كل ليلة لوش الصبح، فيقلبها هو وينقلب عليها حتى تنهدّ وتنام. سلم وانصرف شاكرًا عرْض أحدهم توصيله بسيارته، لأنه أحب أن يمشي، كعادته نهاية كل ليلة، من شارع شبرا لحد بيتــه قرب آخر منية السيرج، لينشط قلبه وينفرد بنفسه، ثم غادر الســهرة، وقد ثقلت عليه الأنفاس، هو وظله.

يهرش رجائي الصغير رأسه، وهو يعيد قراءة الفقرة التي كتبها للتو، بغرفته قرب الثالثة فجرًا، ثم يكوّرها ويلقي بها بحركة عنيفة في سلةٍ صغيرة تحت قدميه قرب المكتب. لا يكتب مباشرةً على الكمبيوتر، اعتاد أن يبدأ من الورق، غير أنه لا يفضل الدفاتر، لا يشعر بالارتياح معها، ربما لأنها لا تتيح له حرية التمزيق والتكوير والرمي كما هــو الحــال مــع الأوراق المنفردة، أوراق الفلوسكاب التي صار يشتريها ملونــة مــؤخرًا، زرقــاء وخضراء. أما الدفتر الثاني الذي تلقاه من رجائي الشيخ فما زال محتفظًــا ببياضه، لا يدري الصغير كيف يستغله، لكنه سيعرف ذات يوم، حــين يحتاج إليه. يتلفت حوله مستعيدًا إحساسه بالغرفة، يعود للشاي وللموسيقى

عمر خيرت، ويفكر في أنه دخل حارة سد، أو أن مزاجه غير ملائم للاستمرار في الكتابة، وهو يكره تلك اللحظات التي يحاول فيها مرةً بعد أخرى أن يعاند مزاجه، وأن يطوّعه حسب هواه فلا يستطيع. يفكر في فيلم إباحي طويل، من تلك الأفلام التي اختارها بعناية وذوق خاص، ثم حفظها في ملفٍ مخفي، تحسبًا للظروف، باسم: قلة أدب. تهفو نفسه إلى أداء عَشَرة طيبة، ثم ينام لحد الظهر، بما أنه غير ملتزم غدًا بأية مواعيد. مترددًا يقلب بصره بين الأوراق المبعثرة أمامه، ويلمح هنا وهناك سطورًا حول منى البربري أو حول رجائي الشيخ، ثم يمسح بعينيه القصاصات الصغيرة الملونة وقد لصقها بعشوائية في لحظات مختلفة على الحائط المحاذي لمكتبه:

منى علامة الشؤم– عام ٧٧ وانتفاضة الجوعى– حكاية المراهق التائه في دير الملاك والمرأة الأولى– لا تنس تعريفات الروائي– أين شلة الحشاشين؟ ومن يكونون؟

كيف يخرج من وسط تلك الفوضى؟ لماذا زجّ بنفسه في متاهة الشيخ أحمد حتى فقد طريقه داخلها تمامًا؟ لابد أنها مُنى. كانت هي الطُعم. كان بوسعه أن يكتب –من أجلها– قصة حب ممتعة وخلاص. ماذا يريد أن يثبت؟ كان يمكنه أن يكتب قصتها مع رجلها المفقود، خالد نادر المثال، بعد أن يحرفها ويغير الأسماء والظروف؟ لكنه الآن لا يمكنه التراجع، وقد صار في منتصف الطريق، في قلب هذه المتاهة تقريبًا.

استقر رأيه، والتفت نحو الكمبيوتر وهو يردد: قلة أدب.

شاقًا سبيله في شارع منية السيرج يحدث نفسه مثـل مسـطولٍ يعرف أنه كذلك ولا يجد حرجًا في هذا ، لولا تلك الطيور الجارحـة التي تكبس على نفسه. ينظر بعين ملأها الشك نحو ظله الذي يدور من حوله، فهو حينًا يحاذيه وحينًا يسبقه أو يتبعه ككلب لعـوب ومخلـص لسيده كفيف البصر. يقول لنفسه إن هذا الظل لئيم وخسيس، وكـل هدفه أن يخدعني فأتوهم أنه ليس إلا تابعًا خانعًا لي، وأنني أصله وحقيقته ومصدر وجوده وسر حياته. أنا؟ أنا؟

بحكم العادة والتكرار صارت حتى هذه الطيور الجارحـة أليفـة ومستأنسة، رغم تحذيرات الأطباء، وهو طبيب واحد في نهاية الأمـر، يردد أخطر التحذيرات بابتسامةٍ لا تفارقه بالمرة، قائلاً له إن للانتحـار ألف طريقة حاسمة، أسوأها هي الأبطأ، وهي بالضبط التي يتبعها رجائي ليموت. هل أموت الليلة؟ بالنهار العمل وتدبير تفاصيل الحياة السخيفة، وما إن يدخل الليل حتى يتوجه مثل المنوم مغناطيسيًّا إلى سهرة الصيدلية أو حتى أي بار بوسط البلد، وبالطبع الأقراص لا تفارق جيبه. الأقراص الممنوعة حسب الجدول، الأقراص المُجدولة الجميلة. وها هو الآن يبدو مثل موظفٍ صغير مسطول في آخر الليل، موظف غير حقيقي أيضًـا، مكتوب في قصة قصيرة ستنشر في جريدة مسائية، وقد يقرأها حفنةٌ من المهتمين، ثم تُنسى إلى الأبد، ولن يعاد نشرها حـتى. موظـف صـغير مسطول، لم يعد يخشى أن يفضح أمره جفناه الثقيلان أو تحريك شفيته بالحديث الهامس إلى ظله: يراقبني من الجانب الآخر للمرآة، منذ أكثـر من خمسين عامًا، ليخدعني، السافل!

يشاكسه روميو، بوجهه الأسمر المدور الصبوح مثل بطل أفلام هندية، واقفًا أمام محل أبيه، محل ساعات بيج بن سابقًا، لصاحبه الأسطى عزت الساعاتي المحنك، وقد قابل وجه كريم، وسار المحل الآن مركز اتصالات روميو، أو رمضان محطم قلوب بنات ونسوان الشارع كله. يسأله الولد متخابثًا: الساعة معاك كام يا بركة؟ فيرد على الفور: لسه بدري! فليضحك رمضان ورفاقه على حسابه، وليُسرع من خطواته دون وعيٍ منه، لينشط قلبه الذي حط عليه الآن طائرٌ جارح بمخالب مقوسة ونافذة وناعمة الحد.

من أنا؟ يتساءل الشيخ في القصة. الموظف بشركة ترجمة نهارًا، المسطول فجرًا، السائر الآن، أم محدث ظله في كل وقت؟ أم نلخص ونقول: أحمد رجائي. اسمي المُركب يخايلني الآن مثل مرآةٍ تقسمني اثنين. أراد عبد المتعال أفندي أن يقول بهذا الاسم إن أحمد هذا هو رجائي من الدنيا يا ناس، فكم خاب رجاؤه! شكرًا على الاسم يا أبي، شكرًا لأنك منحتني اسمين، فلم تنسَ نصيب ظلي بينما تستخرج لي شهادة ميلاد في يونيو من عام ١٩٥٧، بكل تحديد، وكأنك تبدي امتنانك لبرج الجوزاء الذي ولدت تحته، فكأن أمي أنجبت لك اثنين توأم، أنا توأم نفسي، أو توأم ظلي، واحدٌ أحمد والآخر رجائي، أو رجاؤك أنت أو رجاء هذه المرأة أو حتى العيل الذي تسحبه، رجاء من يُريد.

أظلم رجائي الصغير نور الغرفة، فاتضح نور شاشة الكمبيوتر مثل دار سينما منمنمة. بدأ الفيلم، بمجموعة من سيدات الطبقة العليا في فرنسا العصور الوسطى، أو هكذا يبدو الأمر من الديكور والملابس. تلتقي

النبيلات في القصر الريفي لإحداهن، بعيدًا عن العيون، وكل واحدة تصطحب معها عشيقها، ويبدأ المرح آخذين في اللعب والتهتك وأصناف المتعة مدة ساعة تقريبًا. لا يتابع الصغير كل أجزاء هذا الفيلم بالاهتمام نفسه، فقد قفز بالفعل على مواضع كثيرة منها لا تثير فيه فضولاً أو لذة، فعلٌ واحدٌ يتكرر بلا انقطاع، الرجال يدسون ويسحبون أعضاءهم من كل الفتحات الممكنة في الأجساد الممتلئة للسيدات. ما يهمه في الفيلم هو مارسيل، خادم السيدة المضيفة، طوال حفل العربدة يقف بالقرب منهم، خفيًّا وظاهرًا، يراقب كل شيء في انتظار أهون إشارة ليسرع بتلبية الأوامر: حاضر يا افندم، من عيني يا ست! هكذا يحب رجائي الصغير أن يترجم عباراته. واضح أن مارسيل يحب سيدته، واضح إنه تعبان جدًّا، ولا واحدة من النساء تتذكره بنظرة أو ابتسامة أو قُبلة، فهو هواء، هو غير موجود بالمرة. يقدم الشراب، يرفع المراتب، يخلع عن السادة معاطفهم، ويمد يديه بالطيوب والكريمات والدهانات. بعينين متسولتين يظل في الركن يتابع المجزرة، دون أن يحاول حتى إخفاء قضيبه البارز تحت السروال الضيق خفيف القماش، فلن يلحظه أحد على أي حال. ينتهي الحفل، ويذهب الجميع للنوم، ومارسيل ينتظر وراءهم وينظف ويرتب. وأخيرًا، وقرب الفجر يتوجه إلى غرفة حقيرة معتمة، ثم يستسلم لخيالاته الشهوانية. ونحن –أي رجائي الصغير وكل من سيشاهد الفيلم– نشاهد معه كل ما يرسمه عقله من نزوات مجنونة مع النبيلات، وخصوصًا سيدته المعشوقة. وبمعجزةٍ ما تتسرب تلك الخيالات حتى تصل إلى أسرّة السيدات، وتخترق نومهن وتتجلى في أحلام كل واحدة منهن، فيصير حلمه هو أحلامهن. خيال مارسيل يسيطر الآن

على كل شيء، تتأوه الواحدة منهن في نومها حين يختارها في حلمه الذي صار حلمًا مشاعًا. كم يحب رجائي الصغير هذا النوع من الانتقام، هنا يبدأ الفيلم الحقيقي. لا تعذبهن هكذا طويلاً يا مارسيل، الآن وقد رحل عشاقهن المساكين، أنت الرجل الوحيد في الكون، أنت القادر على إرواء عطشهن القديم. مارسيل وجميع النساء وعلى رأسهن سيدة الدار الجميلة. انظروا مارسيل فَحْلٌ حقيقي، برقبة كل رجال البلاط المخنثين. مارسيل ينتصر في أحلام يقظته حين يجبر النساء على الحلم به، بينما يجربن معه، في أحلامهن، متعة مستحيلة. وهو ينتقل بخفة من فرجٍ إلى فرج، ومن فتحةٍ إلى أخرى، بسرعة الريح، وكلهن مرصوصات أمامه، يتريث قليلاً أمام سيدته، ولكنه يغالب نفسه لكيلا يضعف، ويعاود التحرك وهو يضحك. يطلع الفجر، ومارسيل نائم مثل الملاك على فراشه الفقير، وتستيقظ النسوة، المضيفة والزائرات، وقد أوشكت كلٌ منهن أن تبلغ ذروةً غير معقولة، وقد انتبهن الآن إلى ما فقدن، فيصرخن في نَفسٍ واحد: مارسيل، مارسيل، أين مارسيل؟ يتدافعن نحو غرفة الخادم، تقودهن صاحبة الدار بمشعل، وحين يصلن إليه يجدنه نائمًا ووجهه مشرقٌ بابتسامة رضا عذبة، غير أنه لم يكن نائمًا، بل ميّت وكأنما مات من فرط النشوة. فيبدأ العويل والانتحاب والصراخ على شباب مارسيل الضائع في الأحلام، وينتهي الفيلم. هنا يكون رجائي الصغير قد قذف بالفعل قبل قليل، وراح يستمتع هادئًا بمشهد النهاية الرائع، هذا الفيلم من أحب أفلام قلة الأدب إلى قلبه.

مازال عم رجائي يسيرُ بمحاذاة ظله، بينما نراقبه يقدم لنا الملمح الأول والأهم من ملامح المثقف المأزوم، ألا وهو انقسامه على نفسه، أي هذا الحضور لوعيه بذاته ووجوده وأزماته، أي هذا الوعي المرهف الحاد، الذي لا يستسلم ليقين نهائي بالمرة، يظلُ يراقب ويتشكك، يرى ويتعفف، يبصق ثم يمضي، في منية السيرج. ريقه جاف مثل حجر، كلا مثل زلطة، لا، بل حصاة. ما أسهل التشبيهات وما أكثرها، غير أنها لا تروي العطش، وهي أزمة أساسية لشخصية المثقف المأزوم، نقصد الكلمات التي لا تروي عطشًا ولا تصنع حياة، وإن أوهمتْ بامتلاك الحياة برمتها. الأفضل له أن يقترب من بعض القلل الفخارية، فيجدها فارغة وجافة مثله تماما، كم خاب رجاؤك يا أحمد! كفاك نواحًا، واسمع!

تقول له القلل، بصوت موحد مثل جوقة في مأساة إغريقية بطبيعة الحال: معذرة، لا ماء فينا، لا ارتواء للعائد وحده قرب الفجر مسطولاً وبلا غدٍ ومنقسمًا اثنين.

يشيح بوجهه عنها، في كبرياء بطل مأساوي، دون أن يردّ بشيء، على وفرة الكلمات، وهنا تصيح مستنجدة به، أو مبررة لموقفها، بعد فوات الأوان:

لا أحد يهتم بنا طول فصل الشتاء، ينسانا الجميع كما نسوك!

يتغاضى عما قالته له القلل حول النسيان ويمضي في سبيله بالكبرياء نفسها.

"أعرفُ الآن من أنا؛ أنا عابرُ السبيل الذي أتاح له الحشيش فرصةَ الإنصات للغة القلل المسحورة، ولم يعرها أذنا مع ذلك، وربما يرتـاح هذه الليلة نفسها، من دوامة الأيام الخاوية شأن القلل وشأن الرجاء".

لاحظنا سمات أخرى مهمة: الكبرياء الحبيس، الشغف بتحليل الذات والولع بصورة الذات، الإحساس الغريب بالبطولة دون أي مقومات للبطولة. والبقية تأتي في حينه.

من حارة جانبية تخرج امرأة شابة، تحمل رضيعًا ملفوفًا ويسمعها تهمس: "لنا رب اسمه الكريم"، وللمُلاحِظ اليقظ سيبدو كأنه توقف عن سيره، ولو لخطوة واحدة على الأقل، مع سماع عبارتها. وصاحب الفراسة سيظن أن وجهه تقلص للحظات كأنما يكتم رغبةً في البكاء. وسوف يقولُ الحكيمُ منا بنبرةٍ تعدل ما بين الشك واليقين: يرغب في البكاء لأنه يعرف ويسكت، أما ماذا يعرف فهو ما يسكت عنه الحكيمُ تمامًا.

أضف عندك الإحساس بالذنب، مؤقتًا حتى نتأكد.

"أعرفُ أن كرم الكريم لا حدود له، كرمه يُخرس كل كلام باطل، ويدحض كل منطق زائف. أحببتُ لو أُوقف المرأة وأسألها ضارعًا: أنا أيضًا لي رب اسمه الكريم، أليس كذلك؟"

لكنه يستعيض عن ذلك بشراء علبتي زبادي، يبتسمُ له الولد البائع، عبد العزيز، بجفنين ثقيلين هو الآخر، في تواطؤ مسطولين: "صباحك حليب يا أستاذ أحمد!" فيرد بلسان الظل: "تعرف يا زيزو، أنا لي رب اسمه

الكريم!" والولد ما صدق، فما إن سمع عبارته حتى انفجرت ضحكته، مثل نافورة دم، كلا مثل قنبلة موقوتة، لا، لا، بل مثل زهرة خشخاش رُسمت بألوان الزيت على قماش. ثم أوقفَ عم أحمد تداعي التشبيهات التي يشيد عليها عالمه الوهمي، ويسمعُ الولد يردد أخيرًا "ونعم بالله يا عم أحمد!".

"كلا، لستُ أحمد، بل أحمد رجائي، إنهما اثنان لا واحد، واحدٌ يتكلمُ فيستمع إليه واحد، واحدٌ يفتحُ باب المترل، ويحمل له واحد الزبادي وشنطة الأوراق، واحد يفكر في دفترين توأم وقلمين توأم كذلك، معه بداخل حقيبة أوراقه هذه، فيرتعد بدنُ واحدٍ آخر وكأنه يحمل معه إلى بيته جراثيم، أو حصان طروادة، أو متاهة نائمة، وواحدٌ يُوقف دَفق التشبيهات، وواحدٌ يعتبر الدفترين خيطَ نجاةٍ من المتاهة التي بدأت تستيقظ لتوها، وواحدٌ يعود ليقف في وجه تيار التشبيهات، واحدٌ يطلع الدرج، وواحدٌ يهش ظله أمامه ويأمره بالصمت ويراقبه وهو يلعق الدرج، وواحدٌ يبحث في جيوبه عن سلسلة المفاتيح المعلق بها ميدالية رأس جانوس ذي الوجهين، وواحدٌ يعثر عليها في جيب الحقيبة الصغير.

لا يا عم أحمد، إننا كثيرون للغاية، لسنا اثنين فقط.

"ششش، اسكتوا يا أولاد الكلب، ستوقظون الناس!"

كيف نُنهي هذا التقرير المبدئي؟

اكتب عندك: يستمتعُ المثقف الحالم المأزوم –أحمد رجائي نموذجًا– برفقة ذاته أكثر من رفقة الآخرين، لأن بداخله وجوهًا عديدة له، تُسليه. واكتب أيضًا أنه يتعشى زبادي ولقمة عيش، ويُشيد حياته

على التشبيهات التي لا تُسمن ولا تغني من جوع.

منى علامة الشؤم. وجدت نفسها بين الآخرين، وقد انتهى العرض المسرحي الصغير فلم تمانع في الذهاب إلى أحد المقاهي المزدحم على الدوام. ولا تدري كيف بدأت تشرب ببطء وهدوء وهي تتابع الحوارات المتناثرة فيما حولها، ورأسها مازال يدور حول العرض. ممثلة واحدة، هي بطلة العرض وكاتبته ومخرجته كذلك. هي العرض كله، مثل مُنى في مسرحية حياتها. كان باللغة الإنجليزية فبذلت تركيزًا مضاعفًا لمتابعته، وقد راحت مبدعة العرض تستعرض رجال حياتها، من جدها لأمها الإنجليزي مرورًا بأبيها المصري، وأصدقائها وطليقها. استطاعت أن تكون كل هؤلاء، بنبرة أصواتهم وطريقتهم في الكلام، بل والدفاع عن أنفسهم ومواقفهم. استطاعت أن تكون ذلك الجد الكريه الذي يدس أصابعه تحت ثياب طفلة في السابعة من عمرها وقد هوسته بلون الكاكاو الفاتح الذي ورثته عن أبيها المصري. مثله تكح بقوة، وتتحرك بظهر محنيّ وخطوات ثقيلة، وبلمسةٍ سحرية تتغير لتعود هي هي، وبلمسة أخرى تتحول إلى أبيها المصري، ليشرح لها كيف أحبّ أمها صادقًا، وكيف تركها لعجزه عن التكيف مع حياتها هناك، وكيف اضطر لخطفها تقريبًا.

اتصلت عمتها ثريا أثناء العرض أكثر من مرة، فهل تتصل بها الآن؟ ستغضب منها مثل كل مرة. المكان لا هو معتم ولا هو مضيء، وعلى الوجوه لمعانٌ مخيف، وهدير الثرثرات والضحكات والصراخ يتجمع متحولاً إلى طنينٍ عجيب لا يمكن تمييزه. تميل على أذنها د. عزة لتطمئن عليها: "مالك؟ إنت تمام؟" فتومئ برأسها وتبتسم لها. أمها

الثانية، أمها الروحية. ناقدة وأستاذة المسرح في الخمسين من عمرهـــا، ومازالت جميلة ومرحة ومرغوبة ودماغها توزن بلدًا. تعرف الرجال ولا يمتلكها أحد، بعد زواج وعيال وطلاق وحكاية معـــادة ألــف مـــرة. تُذكرها بضرورة أن تتورط في شيء، في عمل، في مشروع، في شـــيء كبير لتخرج من حدادها. لم تقل حداد، قالت حالة.

ورغم ذلك لمحت منى في تصوير الممثلة لأبيها شيئًا مختلفًا، عذوبة أو ضعفًا، إذ رسمت له صورة صافية واضحة وطريفة. رجل مشوّش ورجعي لكن حبه لابنته يغطّي ذلك كله، ويظهر في نبرة صوته – صوتها، وكذلك في مفردات النص والمواقف التي يصفها. هكذا راحت تثرثر منى حـــول العرض وصورة الأب، لتبتعد عزة قليلاً عن تلك الحالة، حالة الحداد أو أيًّا كانت. متى تنهض وتتصل بعمتها؟ لكنها تشرب، لا تريد أن تشـــرب، ولكنها تطلب زجاجة جديدة. تحاول التركيز فيما تقوله أستاذتها الآن ولا تستطيع، تقول شيئًا بخصوص فرصة السفر لورشة عمل في فرنسا، تتدرب فيها مُنى مع آخرين من دول مختلفة على النقد المسرحي. وتنظر كل خمس دقائق إلى هاتفها مثل من يستعجل الوقت لبلوغ موعدٍ غـــامض. هـــل ستكون ذات يوم مثل دكتورة عزة؟ المرأة الحرة، لكن الوحيدة كـــذلك؟ المرأة التي تختار فارسها، دون أن تسمح له باختطافها إلى ما هو أبعد مـــن الفراش ولا يدفع لها أحد مليمًا؟ ولكن خالد كان شيئًا آخـــر، لم يـــدر أحدهما أبدًا من الذي خطف الآخر. تشرب وتبتســـم وتـــؤمئ لعـــزة وللآخرين، وفجأة تضحك حتى تدمع عيناها. لماذا هي؟ علامة الشـــؤم؟ لماذا انتحر الشاب تحت عجلات المترو؟ ثم يسندها هذا العجوز الغريـــب الذي بحث عنها طويلاً لمجرد أن يرد لها أجندتها وكارنيه المكتبة. لماذا هي

وليس الآخرون والأخريات، من هؤلاء الضاحكين السعداء المارين على الحياة مرورًا خفيفًا وهنيئًا. ستنهض الآن، معتذرة. بعد قليل، حالاً. خمس دقائق أخرى. دقائق وتنهض، يكفي ستغادر حين تقرر ذلك.

هذا ما يمكن أن نحسد عليه أي فنان، هكذا تفكر منى وقد عادت لتأكل ملوخية عمتها ثريا الشهية، وقد فتحت زجاجات البيرة شهيتها، بينما تقلب في قنوات التليفزيون. تمامًا مثل تلك الممثلة بطلة العرض وصانعته، استطاعت أن تكون كل الآخرين، في لحظة، بلمسة سحرية تتغير. منى تريد أن تتغير، ولا تدري كيف، هذا ما يمكن أن تحسد عليه أي فنان حقيقي يستطيع أن يخرج من ذاته، أن ينظر نحوها من بعيد، أن يكون أي شخص وربما أي شيء. كان هذا من بين ما تحسد عليه خالد قبل رحيله، قدرته على التحول والتجدد رغم أنه يبقى كما هو. غيّرت القناة بمجرد أن تذكرته، وكأن هذا سوف يساعدها على تنحية ذكراه جانبًا. رأت على الشاشة مهرجين في عرض من عروض سيرك عالمي، فتذكرت رجائي الصغير. أحيانًا تكون له تلك القدرة على أن يصير أشخاصًا آخرين، في بعض قصصه ينجح في هذا. لا تدري من أين طلع لها هذا الأراجوز العجيب ليصير واقعًا حاضرًا أغلب الوقت، ولم يكفِ هذا بل جرّ وراءه العجوز المخبول الآخر بلعابه يسيل على شفتيه. كل واحد يريد قطعة منها، من منى، القطة السوداء على رأي خالد. كان لها تجاربها، معه أولاً ومع آخرين، مثلت على المسرح مرات وأعدت نصوصًا، غير أنها أبدًا لم تجرب ذلك الإحساس بالخروج من سجن الذات، من سجن جسدها مثلاً، أن تكون رجلاً ذات مرة، أن تكون قطة، قطة سوداء كما أسماها خالد. من تريد أن تكون هي؟ د. عزة،

بعد سنوات طالت أم قصرت، أم عمتها ثريا العانس الوحيدة. كلٌّ منهما امرأة وسط الرجال، مثل بطلة العرض. ستقوم لتنام، وربما تستيقظ، وقد تحقق حلمها وصارت إنسانًا آخر غيرها، أو حتى كائنًا ما أو شيئًا ما. وربما ترى نيران المحرقة من جديد، وبينها سترى خالد، واقفًا يبتسم هادئًا وهو يغني لها: "أنا أتوب عن حبك أنا؟ أنا ليا في بُعدك هنا؟".

ينام الشيخ ويرواده كالعادة مؤخرًا حلمٌ ساخن، كأنه يلعب لعبة الدكتور والمريضة التي لعبها طفلاً مع ابنة عمته ماجدة وهم عيال تحت السرير. لم يستطع أن يُحدد، في حلمه أو بعد أن استيقظ، من كانت المريضة، رغم أنه أجرى كشفًا مفصلاً على جسدها، لكنه لم يقذف، انتهى أوان هذا العبث، وصحا بانتصاب يؤلم مثل خنجر مغروس أسفل بطنه.

في المترو راح يقلب صفحات رجوع الشيخ الذي عثر عليه أخيرًا فوق دولاب أبويه مغطى بطبقات من الغبار ونسج العناكب. ومع المفردات والسطور يستعيد الحلم ويحاول معه استعادة وجه مريضته. إنه جائع للجنس، هذا هو الأمر بوضوح وبساطة، ومازال يخجل من شعوره بالإثارة حين أمسك بمُنى قبل أن تسقط في صباح الانتحار عند اللقاء الأول. أين نساؤه؟ أين نساء حياته؟ بل قل أين حياته؟

أمسكت شقيقته الكبيرة به هو وماجدة تحت السرير، بينما يلعب دور الطبيب ويحاول الوصول لمناطق بعينها في كشفه. سخرت النساء،

بعد أن تلقى صفعتين أي كلام من أمه، وأعلنوا ارتباطهما وهما لم يدخلا المدرسة الابتدائية بعد. كان هذا أيام زيارات العمة لشقة أخيها البسيطة في شبرا مصر، تلك الزيارات التي راحت تقل حتى انعدمت، للخلافات بين زوج العمة وأبيه، وخصوصًا بعد أن تحوّل البنّاء إلى مقاول كبير، وسكن الدقي، وارتدى البدلة والكرافتة. ومن بعيد لبعيد، ومن فترة إلى أخرى، يرى ماجدة، في زفاف أو في عيد، يرى كيف تفور وتتكور فيخاف، إلى أن جاء وقت الظهور الأخير وهو في عامه الأول بالجامعة، وقد استوت تمامًا شابة بدينة متينة، بها خجلٌ فطري وخفة دم أغلب البدناء، والأهم نظراتها المكشوفة والساذجة نحو أحمد، وكأنها تذكره بلعبة الطبيب، وكأنها تقول له إنها مازالت مريضته. ولم تكتف بهذا بل راحت ترسل الرسائل المزخرفة بأغنيات العندليب، آه منك يا عبد الحليم، ورسوم القلب المخروق بسهام الغرام، وأساليب أخرى أثارت في نفسه الشفقة، وإن لم يحتقرها أو ينفر منها. راح يراقب تصرفاتها ولا يمنعها، وكأنه يتمتع بأن يكون موضع غزل هذه البطة. مبسوط باللعبة المبتذلة، دون أن يدري إلى أين يمكن أن تنتهي. أصرت العمة أن يساعد أحمد ماجدة في اللغة الإنجليزية، هي في الثانوية، وهو في آداب إنجليزي، فلمَ لا؟ ولكن لماذا وافق؟ غالبًا، على سبيل اللعب.

في حلمه، في غفوته، في القطار المنطلق، يشعر وكأن منى البربري تجلس إلى جواره، وحين يتذكر أنه يتصفح رجوع الشيخ يشعر بالخجل، ويقول إنها لابد سجلت كل شيء فكّر فيه على لاب توب صغير مما يحمله العيال هذه الأيام، فينتبه وينظر عن يمينه ليجد رجائي الصغير

مكانها، ولا أثر لمنى، والصغير يسجل كل شيء بالفعل على لاب توب، ولكن مستخدمًا ريشة قديمة ودواة حبر. يقول له الشيخ، في حلمه، في غفوته، في القطار المنطلق، بنبرة ضجرٍ وتذمر: "هو إنت ورايا ورايا؟"

قبل ماجدة وبعدها. قبلها كان قد جرب الجنس مدفوع الثمن مرات قليلة في البيت الذي قادهم إليه كابتن طلعت طيّب الله ثراه. وهناك كانت سميحة أولى تجاربه، التي أحبته هي الأخرى لسببٍ أو لآخر، أو ربما أحبت أن تمنحه هذا الإحساس. بلكنةٍ ريفية كانت تغني له أغنية شادية الجديدة، بكلماتها التي تلسعه في أماكن حساسة من جسده: "لا يا سي أحمد، لا يا حمادة، أنا حبيتك حب عبادة...إبعد عني، هتجنني، أنا مش قادرة عليك بزيادة...لأ، لأ، لأ يا حمادة..". مجرد الذكرى هيّج الشيخ، فلا شك أنه الحرمان، فأين نساء حياته؟ سميحة أولى التجارب المؤكدة إذا ما استثنى امرأة دير الملاك، على أعتاب المراهقة، وحكايتها الخرافية المشكوك في صحتها. هذا كان قبل ماجدة، أما بعدها فانفتح السوق ونزل هو إلى شوادر البيع والشراء. ماجدة كانت برزخًا سريعًا، محطة فارقة، بنت عمته والزوجة الأولى والأخيرة له، وأم ابنه الوحيد والمكتفي بعالمه الخاص. بنت بنوت خجلة وعاشقة ومتيمة، جسمها أقرب إلى مجموعة كرات من اللحم الأبيض المدموجة معًا في كيان أنثوي يكاد ينفجر من وطأة هرموناته. والتليفزيون لا يكف عن عرض أفلام الأبيض وأسود، وعبد الحليم يهمس في أذنيها ليل نهار، وأحمد طويييل وعريييض، وشعره بني له خصلات ذهبية وعيناه ملونة وفيها لمعة. ثم أنها لم تنظر إلى أحمد نظرة سميحة والبنات الأخريات

هناك، زبون يعني، حتى ولو زبون مطلوب ومرغوب. أعطته سميحة نظرة البنت نحو فتى الأحلام، وهو الساخر أبدًا من تلك الرومانسية المضحكة، متحصنًا بكتبه وأفكاره وفلسفته وجد نفسه سعيدًا بتلك النظرات والرسائل والحركات، وأخيرًا دق جرسهم في عمارة الدقي. وأمام الشاي والحلويات، في غرفة الصالون البعيدة عن مركز البيت وضجيج التليفزيون والآخرين، كان أمامهما الوقت ليفعلا كل شيء غير مطالعة دروس اللغة الإنجليزية. داعب هذا الحب الساذج غروره، فنسي كل شيء حتى عدم حبه لتلك الفتاة الغريبة. أما الانجذاب الحسي فلم يكن هو أو هي بحاجة لبذل أي جهد فيه، نبت بينهما ضئيلاً جافًا مثل وجع بذرة الصدر أيام البلوغ، حتى شقت النبتة الأولى طين الأرض وراحت تتطلع نحو نور السماء. احمرار الوجه، ارتعاش الأصابع، والركب التي تخزلنا فكأنها انفكت من أماكنها، وسخونة الأذنين وبرودة الظهر. الشياطين تتلاعب بهما، وهما يتخيلان الملائكة ترقص من حولهما. أخذت النبتة تصعد في وجه الشمس، تستمد عافيتها من فتوة الصبا ويرعاها لقاءٌ منتظم، غير بعيدٍ عن أم هائمة مع برامج التليفزيون بالخارج.

كنتَ سعيدًا باللعبة يا شيخ أحمد، اعترفت بذلك أم أنكرته؟ وظننت أنك من يضع قواعدها وينظم إيقاعها. يُمسك بالأنامل، أنامل ماجدة الصغيرة الطرية الناعمة للغاية كأنها زبدة تشف وتسيح تحت نار التلامس حتى تذوب تمامًا، ويفركها ببطء بين أصابعه. وفي المرة التالية، يقدم على أن يقترب بفمه من تلك الأصابع، ثم يضع أصغرها في فمه، ولولا شهقة البنت المكتومة لأخذ يمص أصابعها واحدًا واحدًا، كما

يعشق أن يفعل، دون أن تشهق هي كما في المـــرة الأولى، وإن كســـا وجهها تعبير مريع، كأنه أحدهم يلسعها بشمع مذاب قطرة بعد أخرى. إحملها يا أحمد يا شاعر الجامعة على جناحك، ولكن برفق، فهي ابنـــة عمتك يا مجنون، وحلّق بها فوق وديان المتع وانـــزل بهـــا إلى ســـفوح المواجع، ولكن برفق يا ابن الحلال وإلا وجدت نفسك في مصيدة قذرة للجرذان، إحملها يا شاعر كما تحمل في جيبك قصيدة مطوية بعنايـــة، تحرق صدرك مثل جمرة إلى أن تجد من تقرأها عليه وترتاح وتهمد.

أما جمرة ماجدة فلا بدّ أن تظل مشتعلة وإلا زهـــدت البنـــت في اللعبة، ولا بدّ من أن تخطو خطوةً جديدة كل مرة، وأن تتذوق طعمًـــا جديدًا كل مرة، ولكن إياك وأن تسمح للنيران بالانتشار بعيـــدًا حـــتى تطال ألسنتها ستائر البيت، فتؤدي إلى حريق لا يمكن السيطرة عليه ولو بقوةٍ من المطافئ.

"حمادة يلعب، شاعر بقا وكده!"

العبارة الأخيرة تعليق كتبه رجائي الصغير سريعًا في غفلة من الكبير الذي أغلق كتاب رجوع الشيخ وغفا في القطار، مثل مُســـن أرهقـــه السهر ولم يشبع من النوم.

ماذا لو يتناول شيخنا، في لحظة يأس صافٍ، بمجموعة رائعة مـــن الأقراص المخدرة متضاربة الأغراض مما يزوده بها صديقه شنودة، شرائط بكاملها يفضها ويبتلع محتوياتها، بالكبشة، دافعًا إياهـــا نحـــو بلعومـــه بجرعات كبيرة من زجاجة فودكا كان محتفظًا بها لمناسبة تســـتحق؟ ثم ينزل من البيت وكأنّ شيئًا لم يكن، بل يستقل المترو عادي جدًّا. ها هو

يجلس في العربة شبه الخالية، مريحًا رأسه على المسند المعدني بجانبه. يغمض عينيه عن الدنيا من حوله، متجاهلا طعنات معدته وعرقه وغثيانه، يتصرف وكأنه نائم وحسب، حتى آخر الخط.

ماذا لو وجد الشيخُ نفسه في فضاءٍ غامض أقرب إلى البرزخ، بينما هو مستلقٍ بين الموت والحياة لساعات طويلة بالمستشفى، وخلال ذلك الوقت لا يرى حياته كلها تمر أمام عينيه وحسب، بل يحاكم نفسه بمساعدة شبحين شابين لرجائي الصغير ومُنى؟ قصاصات حياته تختلط برؤى خيالية عجيبة، وتتداخل المشاهد والشخصيات، ويكون الحُكم في النهاية: هل ستُكتب له النجاة، بعد محاولة انتحاره، فلا تنتهي رواية حياته هذه النهاية كما توقع، أم يمنحه المؤلف فرصة أخرى للحياة وتصحيح الأخطاء؟

يتخيل رجائي الصغير منى تقول بالفم المليان: بيض!

فيكتب بقلم أحمر سميك الخط: بيض!

ورغم كل هذا فقد ظنّ أحيانًا بأنه يحب ماجدة، رغم إدراكه لضيق أفقها وافتقارها لأي ثقافة أو طموح، ورغم تكوين جسدها الأقرب إلى بطة بلدية مزغطة. ربما أحبَ لديها ما كان يحبه بين أمه وأخواته، الحرص عليه وتدليله والإذعان له. أحب أن يعيش دور أبيه وإن كره أباه، دور سي السيد المطاع. في الوقت نفسه الذي كان يناقش فيه زميلاته بالجامعة حول دور الشعر أو ضرورة التحام الطلاب بالطبقة العاملة، دون أن يجرؤ على اختلاس النظر نحو صدور تلك الزميلات، فتفضح عيناه شهوته المكتملة. غير أن هذه الشهوة اتخذت مسارًا مُحددًا

لها، فتوجهت نحو ماجدة وحدها ربما لتغفل عن الأخريات من الزميلات والصاحبات، ممن يجب التعامل معهن بالاحترام واللياقة اللازمة، في اعتقاد أحمد الشاب على الأقل الذي مرّ بالجامعة دون قصة حب واحدة. حين خطا أولى خطواته الجامعية كان متقدمًا على أقرانه بنظارة طبية محترمة، وقراءات واسعة النطاق ومشوشة للغاية، وخبرات لا بأس بها لابن موجّه لغة عربية في وزارة التربية والتعليم، يسكن في شارع طويل بشبرا مصر اسمه شارع منية السيرج، ومازال يأخذ المصروف والهبات الخفية من أمه، ليصرف على جلسات التحشيش المنتظمة مع شلة الأُنس.

وكان حينها مُرشحًا لأن يكون أشياء كثيرة، زعيمًا سياسيًّا رغم سرعة ضجره وضعف إيمانه بالتغيير الجماعي، أو ربما قطبًا من أقطاب الصوفية، ليس فقط بحكم الوراثة وبتأثير الشعر والمخدرات، أو ربما شاعرًا فذًّا، أو دونجوان آداب عين شمس، بهذا الجسد العملاق والوجه الرجولي الوسيم، وربما أيضًا عبيط الدُفعة. ثم أنه لم يكن شيئًا من هذا كله ولا غيره، لم يُصدّق شيئًا للنهاية، لم ير نفسه في صورة واحدة نقية. يقول -بالرجوع إلي تلك الأيام- إنه لم يستسلم أمام أي شيء، ليحتويه فيستنفد طاقة الحياة منه، لا صورة ولا دور ولا مغامرات عاطفية ساذجة، ويُعد هذا نجاحه الوحيد. ولعدم إثارة الحرج لا يسأله رجائي الصغير ومنى البربري عما كان يفعله بطاقات الحياة المختزنة داخله تلك. يهمس الولد للبنت: آه، كان يغوي البطلة بنت عمه!

غير أنه في ركنٍ قصيّ من نفسه كان يسخر من مشاعره تلك تجاه ماجدة، ويعلو عليها، ويتلاعب بها كأن كل شيء ليس إلا فرصة للعب،

حتى عواطفه واندفاعات دمه. كان يقول ليست ماجدة سوى أكذوبة أخرى بين الأكاذيب العديدة التي تغلف كتاب حياتي، لا تختلف عن الطرق الصوفية التي لا يبخل عليها أبي بماله ووقته بينما يبخل على أولاده بكل شيء، ولا تختلف ماجدة وأحاسيسي نحوها عن أحجبة أمي التي تحاول بها حراستنا من الجن والعفاريت.

ومع ذلك، فلماذا توجهتَ إلى بيت عمتك وأنت تعلم بغياب العمة والزوج في البلد لظرف وفاة، وأن شقيقها الوحيد يمضي أجازة في أوروبا، واستحق لذلك منك كل الحسد والنقمة؟ لماذا ذهبت بدون موعد، ومعك ثلاث سجائر ملغومة بالحشيش، وكلك شغف بما تقوله ماجدة أو ما ستفعله بعد أن تجرب الحشيش معك؟ مغامرة؟ لعب؟ ادفع الثمن إذن! تحاول المسكينة منعك من الدخول، ولكنك تخدعها، تدّعي أنك مضطرب وحزين ومشوش وتحتاجُ لمن تتحدث إليه. تجلب لك الشاي ببراءة وأنت تعلم أن الظنون والأفكار تفتك بعقلها. ورحتَ تتحدث عن الوحدة، وتمسك بيديها، وتدّعي أن أحدًا لا يفهمك سواها، وتشعل أول سيجارة. وتغريها بشد نفس، نَفس واحد فقط على سبيل التجربة. وماجدة البطة المزغطة تبتسم وتضحك، وتهيم وتمسك قلبها وتشهق: هاموت يا أحمد! هاموت! وتحيطها أنت بذراعيك، تدلك رأسها وأعلى صدرها. فتعود هي للابتسام والضحك وتخطف منها قبلة فلا تمانع، وتبادرك هي بالثانية. السيجارة الأولى تبعتها الثانية، وأنت تتخفف من ثيابك دون حتى أن تنتبه هي لذلك. لا تدافع عن نفسك الآن، فقد كنت واعيًا بكل شيء طوال الوقت، وعلى السجادة الغالية أرقدتها وأخذت تستكشف أقواس بياضها المتلاحمة، وهي تساعدك بشجاعة مَن ينتحر، أو من يظن أنه مات ودخل

الجنة وانتهى الأمر. وربما تكون بلا وعي منك قصدت ذلك وتعمدته حتى يزوّجوك من ماجدة دون أن يطالبوك بأي شيء. لا تعتقد أنك بهذه الخسة! كل حجتك أنك تتحدث الآن عن شخصٍ آخر، لم تعد تربطك بـه أي صلة، الشاب الذي كنته في منتصف السبعينيات تقريبًا، وهمُ الشاعر، وهمُ المخلص، وهمُ الإنسان. وهي حجة وجيهة، رغم كل شيء. نظـف الآن بماء ساخن وصابون السجادة من قطرات دم فاقعة وتجاهل نشيج ماجـدة الهادئ إلى جوارك، وأبشر، فمازال بجيبك سيجارة حشيش أخرى.

قرأ الشيخُ الاسمَ الثلاثي مرة واثنتين، أحمد علي رجائي. قبل ثلاثة أعوام تقريبًا، حين تقدم رجائي الصغير بسيرته الذاتية للعمل مترجمًا حرًّا للشركة التي يعمل بها الشيخ مراجعًا ومشرفًا على المترجمين الشـباب، لأنه لم يعد يستطيع أن يدّعي أنه مترجم شاب، مثل هذا الولد. لاحـظ في سيرته الذاتية أن له كتابات أدبية منشورة حريص على أن يذكرها في سيرته كمترجم. لما نشوف! ما إن رآه شيخنا حتى أحس بنـوع مـن الألفة نحوه، ذلك الإحساس الغامض الكريه الذي يُحدثنا بأننا نعـرف أحدهم من قبل أن نلتقي به للمرة الأولى. أجرى له الاختبار، ثم اتصل به، ودعاه للحضور لاستلام أول كتاب يترجمه بالتعاون معهـم. هـو حضرتك كمان اسمك أحمد رجائي؟ وعلى وجه القرد النحيل ابتسـامة واثقة. آه، بس أنا اسمي لوحدي أحمد رجائي، اسم مركب يعني، وانت بتكتب من زمان يا أحمد؟

وهكذا بدأت المهزلة.

كان الصغير يكتب لأكثر من مجلة أو جريدة ثقافية بالقطعة، ولكن ما يتلقاه من أجر منها جميعًا لا يكاد يكفي الأكل والسجائر، وكان لزامًا عليه تخصيص جهد أكبر للترجمة، وينسى حركات الكتابة والأدب قليلاً. وحين رأى الإعلان في أهرام الجمعة أرسل سيرته على الفور، على أمل أن يسمحوا له بالعمل من المترل، وقد كان. من خلال مكافآت الترجمة التي حصل عليها من الشركة عن الكتب التي ترجمها لهم، استطاع أن يُغير الشقة التي كان يسكن بها، مع آخرين من زملاء الغربة، بحيث تكون له غرفته الخاصة أخيرًا، حلمه الكبير. واشترى الكمبيوتر، وحصل على وصلة النت. ظبّط نفسه يعني، مقاومًا إحساس المرارة الناشئ عن أن اسمه لا يُذكر على الكتب المترجمة في دار النشر السعودية، وأن أحدًا لا يهتم بتقييم ترجمته، فيما عدا أول كتاب حين أثنى عم أحمد على ترجمته بصورة عابرة، وأن النقود التي يحصل عليها مضحكة لو قورنت بمكاسب الشركة أو الأرباح الخيالية لدار النشر نفسها. متجاهلاً هذا عكفَ على ترجمة كتب التنمية البشرية ومساعدة الذات، وبين الحين والآخر يلتقي بعم أحمد ويأخذهما الحوار إلى نقطة أبعد كل مرة، وأنبأه حدسه أن هذا الرجل مثقف، وقارئ جيد جدًّا، لكنه لسبب ما يخفي ذلك وكأنه عاهة، فأقسمَ العفريت الصغير أن يجعله يكشف أوراقه كلها، ورقة ورقة، ولو ببطء شديد. ثم ظهرت مُنى لتعاونه على دفع هذا العجوز لخلع ثيابه بالتدريج، قطعة بعد أخرى، ولو ببطء شديد، ولو على الورق، من خلال قراره البطولي بكتابة قصة حياته.

تقول منى، وهي تضع على رأسها باروكة كبيرة ذات لون أخضر فسفوري: وأنا صغيرة كنت أريد أن أصبح نجمة سينما، مع أني صعيدية سمراء قصيرة ومدكوكة.

يرفع الشيخ حاجبيه: لا تقولي هذا عن نفسك، أنت صعيدية مثل القمر.

يقول رجائي الصغير: أتخيلك الآن وأنت عيلة صغيرة، مغرمة بفوازير شيريهان، وكل ليلة من ليالي رمضان تقدمين عرضًا مسائيًّا بتقليد كل حركاتها أمام إخوتك الكبار!

منى: أنا وحيدة يا حمادة، نسيت؟

رجائي الصغير، هارشًا رأسه: آه صحيح، إذن أمام أبناء الأعمام والعمات، على بسطة السلم!

مُنى ورجائي الصغير في اللحظة نفسها: ياشي ياشي ياشي ياشي، من فيكم ماعرفهاشي، واللي مايعرفش يسأل، والمعلومة ببلاشي، وياااااشي.

يُطئمن عم أحمد رجائي نفسه، بينه وبين نفسه: رجائي الصغير ومنى توأم ملتصق، لا خوف من وجود شيء بينهما بالمرة، الولد يتمنى، لكنها لا تنظر إليه تلك النظرة، أنا واثق. إنه يرقصُ جيدًا، وهي تموت في الرقص. فليرقص الشباب وليُمنِّ الشيوخ أنفسهم بقطف ثمار الجنة.

عادت من أكاديمية الفنون للبيت على العصر، لتنام قليلاً وتُقرر ما إذا كانت ستخرج مساءً أم تحاول البقاء في البيت لتقرأ أو تفعل شيئًا له

معنى؟ معضلة كل يوم، كل الأيام المتشابهة والمتكررة. شرحت للطلاب بالقدر الأدنى من التركيز بعض أساليب كسر الإيهام، ولم يبد عليها التشوش من سهرة الأمس، ربما لأنها تكاد تحفظ ما تقوله، وربما لأنها ممثلة في الأصل، تلميذة خالد النجيبة، مازالت تؤمن بهذه الحقيقة حتى الآن، وتعرف كيف تبدو كما تريد.. تبدو شخصًا آخر، لكن أن تكون شخصًا آخر غيرها فهي أمنيتها الأولى والأخيرة، وهي؟ تحدثت إلى الطلاب ببطء وهي تنقل عينيها بينهم وكأنها تترصد لهم أو تحبهم جميعًا بالقدر نفسه، معجبة بسلطتها الصغيرة على هؤلاء الصغار لبعض الوقت. أهؤلاء الطلاب حمقى بالفعل كما يبدون أم أنهم ماكرون ويسخرون منها وراء ظهرها كما كانت تفعل في مثل عمرهم؟ يسخرون منها ومن جديتها المفتعلة ومن تجاربها المسرحية القليلة التي لم يفهمها أحد ولم يكترث لها أحد. وربما يتحدثون أيضًا عن ثياب حدادها السوداء التي لم تغيرها منذ حادثة حريق المسرح في بني سويف، هل يعلمون الحقيقة؟ كسر الإيهام، اختراق حاجز الحكاية، هذا يعني أن هناك حقيقة ما، يمنعنا عنها الإيهام، وهي؟ تستلقي تحت البطانية الناعمة الدافئة وتجد في ذلك عزاءً من نوعٍ ما، بعد أن أكلت من طاجن الأرز بالمكسرات الشيء الكثير. لولا عمتها لضاعت، لولا ذلك الصوت المنبعث الآن من الصالة خاليًا من أي دلالة على عمر صاحبته، يثرثر على الهاتف مع أحد أطراف العائلة الممتدة في أسيوط. وهي؟ تضحك بينها وبين نفسها من مشروع الرجاءين، كما تسميهما، مشروع كتابة قصة حياة الكبير في عمل مشترك بينهما. الواهم العجوز يتبنى الواهم الشاب ويحتقره في اللحظة نفسها، بينما الواهم الصغير -ليسترضيها-

يكتم إعجابه بالشيخ وملكوته ويسخر منه بينهما وربما على الورق كذلك. واللعبة تدور، وهي؟ تحط بيدها اليمنى ما بين فخذيها، منذ متى؟ منذ قرون؟ منذ خالد، أين هو الآن؟ كم من الزمن تحتاج جثة محترقة لتختفي تمامًا من الوجود؟ هل صار رمادًا؟ أمازال هيكله العظمي الرشيق يقاوم الفناء، وذات يوم قال لها: نحس نحس، خليني أجرب حظي!

بدأت هجمات النيران عليها تقل، في البداية كانت تحيط بها يوميًا، وأحيانًا على مدار يوم كامل حتى تكاد تختنق فعليًا، فلجأت للشراب، وكانت نادرًا ما تشرب مع خالد، أيام الطيران والفرح باللعب على المسرح كالأطفال. وجدت نفسها فجأة في مشربٍ صغير يحتفي بروادِه النهاريين القلائل، اصطحبها إليه خالد عدة مرات، وطلبت بيرة وتوهمت أنها أتت لتنفرد بأفكارها ودفترها البني الصغير، ربما تتوصل إلى شيء، ربما تتلمس مخرجًا. وأصبح مشوارها هذا معتادًا مثل حلقات النيران التي تتسع أو تضيق من حولها. وكأنها كانت معهم ساعة الكارثة، وكأنها لم تبق هنا مع عمتها لاستئصال المرارة. لم يكن خالد من أعضاء لجنة التحكيم، لكنهم دعوه، أصدقاؤه، أصدقاؤهم المشتركين، ليشاهد العروض، فوافق على الفور وتحمس للذهاب. لماذا لا تذكر شيئًا من لقائهما الأخير؟ كأنه انمحى بموته، ربما لأنه كان شبيهًا بكل لقاء آخر قبله. تحدثا ونام معها مرتين. لم يكن غاضبًا من شيء كعادته، تذكر هذا جيدًا، لم يكن ناقمًا كحاله أغلب الأوقات، ونام معها في شقته بعابدين مرتين، وحين همّ بالثالثة أوقفته -لماذا؟ لماذا أوقفته؟- وتلمست ثيابها وهي تصيح به: ياللا ننزل، عايزة أرقص!

ضاقت حلقة النيران يومَ فقدت الوعي في المترو، حتى أنها كادت تستعيد المشهد كاملاً، بانفجار أجهزة التكييف والمتزاحمين حول الباب والممثلين المتفحمين بسبب بعض الشموع. لحظة انتحار ذلك الشاب اليائس أعادتها لاحتراق رجلها الوحيد. كانت عبارة من نوعية "لا قيمة لإنسان في هذا البلد" من السهل أن تقال، ولكنها لم تعرف لها معنى قبل هذا، قبل الحريق. صارت تعرف بماذا تشعر الأمهات والزوجات، عند انتظار الجثث من مشرحة الحكومة، هذا إن وُجدت للأبناء والأزواج جثث، بعد الغرق والحرائق وحوادث القطارات. كوارث طبيعية جدًّا، ولا معنى لشيء. لذلك تتردد على مشربهما الصغير كلما استطاعت، لذلك تجلس ساعات وهي ترسم أشكالاً لا معنى لها في دفترها الصغير. لا تملكُ شيئًا، وحدها أضعف من أن تفعل أي شيء، أما الوقفات الاحتاجية والبيانات والمواجهة والرفض، فكله عبثٌ ولهو كما كان يردد خالد، رغم نشاطه في المسرح المستقل وتكوين الفرقة بعد الأخرى دون لحظة يأس واحدة، ودون أي أمل كبير كذلك.

في جلسة على مقهى سوف تسأل مُنى الرجاءين عن سبب وجود غشاء البكارة، لماذا خلقه الله للمرأة؟ أو لماذا أوجدته الطبيعة مصادفة أو قصدًا؟ أله دورٌ ما؟ أكان له دور غامض فيما مضى ثم صار بمرور الوقت شيئًا زائدًا لا قيمة له؟ وللحظات لم يقل أي من الرجاءين شيئًا، غير أن الصغير سرعان ما انبرى يردد كلامًا قديمًا عن المعنى الذي يصنعه الإنسان، فربما يكون هذا الغشاء معنى الانتقال من حالة إلى أخرى بالنسبة إلى المرأة. أوشكت أن تسأله: والرجل؟ ماذا عن الرجل؟ لماذا يُحرم مما يدل على هذا الانتقال؟ غير أنها سكتت، ربما لعلمها أنه لا

يملك جوابًا مُقنعًا. استمعت إليه صامتة، وسرعان ما غيّرت الموضوع وقد لاحظت شيئًا يلتمع في نظرات العجوز، شيئًا كالحيرة أو الخجل، لم تعرف.

يرى الشيخُ نفسه محشورًا وسْط الآخرين، على السُلم الكهربائي لمترو الأنفاق، وبدا كأن السلم قد امتلك إرادته الخاصة، أو سكنته روحٌ مجنونة. في البداية راح يتحوّل ما بين الصعود والهبوط كما يحلو له، ثم أخذ السُلم يترنح وينبعج وكأنه مادة سائلة، إلى أن أخذ يطيح بكل من عليه في الأجواء كما يحدث في مدينة ملاهٍ مجنونة بلا روابط، كل هذا تحت الأرض، والأفق هو سقفٌ آخر فوقهم.

لم يُدهش هذا كله أحمد رجائي قدر ما أدهشه الناس، وقد بقوا محتفظين بالصمت والهدوء وكأن شيئًا من هذا كله لا يحدث، دون أن يهتز لأحدهم بدن أو يرف له جفن أو يرتفع له صوت بكلمة اعتراض أو صيحة فزع واستنكار. شعرَ وكأنه الوحيد في هذا الكابوس الذي تتملكه نزعةٌ بسيطة في الصراخ مثل طفل، بأعلى صوته، وهنا انتبه أنه كان الصغير الوحيد في عالمٍ كله من الراشدين، أو كله –إذا دقق النظر– من الموتى.

"نُوجّه عناية السادة الركاب أن القطار لن يتوقف في أي محطات بعد الآن، وأن عليهم التكيف مع هذا. وأن الصعود من الباب الثاني والثالث والنزول من الباب الأول والرابع، ومن يتجاوز حدود ذلك فهو مسؤول عن التبعات والعواقب الوخيمة. كما أن الشركة غير مسؤولة عن أي حوادث سرقة أو أحلام مُشينة أو صفقات مشبوهة أو تحرشات أو انتحار، فرديًا كان أم جماعيًا، ونتمنى لكم جميعًا رحلة موفقة".

دوائر حمراء باهتة حلت محل الأعين، والوجوه نفسها بلون رمادٍ مبتل. حاول طويلاً ألا ينظر إليهم، لأنه يعرف، ويسكت. الموتى، مواكب الموتى. لا ملامح لتلك الوجوه، والأجساد ملفوفة في ملاءات بيضاء لإتقان أدوارهم كأشباح، وتُقرقع عظامهم من تحت الملاءات في حركة دائبة.

ثم يجد نفسه وحده تمامًا، بعد أن يمر من بين فكي ماكينة التذاكر بسرعة، ويلاحقه الصوت المعدني، نداءٌ آلي مصدره مجهول، كأنه ينبعث من جميع الجهات من حوله، من جميع الأشياء: "نوجه عناية السادة الركاب أن القطار الموجود الآن على رصيف المحطة هو آخر عربات القطار المتجهة إلى محطات شبرا الخيمة، وعلى السادة قاطعي التذاكر مراعاة ذلك، وشكرًا لسائق القطار". جسده ثقيل ولا يطاوعه في الحركة، رغم الشراب الذي يرخي زمام الجسم، وعيناه ساخنتان مثل من بكى طويلاً، أو على وشك أن يبكي الآن، طويلاً أيضًا. متى توقف الوقت؟ أين ذهب الجميع؟ من المفترض أنه يحفظ هذه المسالك تحت الأرضية كأنها نشيد من كتاب المحفوظات بالمرحلة الابتدائية، مسالك أنفاق المترو بمحطات وسط المدينة أو الجيزة أو شبرا، كل يوم معها، كل يوم محبوس فيها لبعض الوقت، ذهابًا أو إيابًا، قارئًا أو نائمًا، أو متأملاً في الناس من حوله دون أن يكشف عن نفسه كأنه مخبر سري. يحفظها مثل نشيد قطتي سميرة تمامًا، ولكن ماذا كان يقول ذلك النشيد القديم: قطتي سميرة.. قطتي سميرة..؟ وبعدها.. ماذا بعد قطتي سميرة؟ لو لم يتذكر هذا النشيد فلن يخرج من هنا بالمرة. سيظل حبيس العالم السفلي، بصحبة الموتى أو وحده تمامًا لا فرق.

نهار خارجي. المنظر على شاطئ هادئ لبحرٍ مضطرب، إنما لا صوت يصدر عن ألسنة الموج التي لا تتوقف عن لعْق الرمل والموت في حضنه. رجائي الصغير يجلس أمام منضدة الكمبيوتر، وعليها الجهاز العادي دون أي مصدر للكهرباء هنا. الشاب منهمك في الكتابة:

"هل يُمكن المزج بين فقرات من كتاب رجوع الشيخ القديم ومشاهد من حياة أحمد رجائي الشيخ؟".

"التركيز على أحداث عام ٧٧، بوصفها آخر انتفاضة كبيرة حقيقية جرت في مصر حتى نهاية القرن، ولأهميتها في حياة عم أحمد وفقدانه للإيمان..".

"إغواء الشيخ رجائي لبنت عمته، ماجدة البطة البضة..".

الكاميرا تقترب بالتدريج من وراء الصغير، وكأنها تتلصص عليه.

ينتبه أحمد الصغير إلى ظلٍ كبير يكاد يغطيه هو وجهازه وأوراقه، يرفع بصره فإذا بعم أحمد رجائي وراءه مرتديًا بيجامة كستور مقلمة بخطوط زرقاء وبيضاء كثياب البحارة، وتحت إبطه مع ذلك حقيبة أوراقه الجلدية البنية العتيقة.

يسأله الشيخ: لماذا تصر على تحويل حياتي إلى فيلم عربي ساقط؟

تظهر من ورائه منى ممسكة بميكروفون صغير، وتسأله وهي تُدني الميكروفون من فمها: هل لديك أي اعتراضات على تسجيل حياتك؟ أم تعترض على الطريقة التي يتبعها رجائي الصغير في ذلك؟ أقصد استخدامه للكمبيوتر مثلاً وعدم التدوين اليدوي لها في الدفتر الثاني الذي أعطيته له؟

يقول الشيخ أحمد، وهو ينقل بصره بينهما: غيّرت رأيي، ببساطة رجعتُ في كلامي. إذا كان ولابد أن أحاكَم فلأحاكِم نفسي بنفسي، لن أسمح لعيلين مثلكما أن يقيما حياتي، ويحكما عليّ بعدها إن كنت أستحق أن أعيش في نهاية الرواية أم أن العدالة تستوجب الحكم بالإعدام.

هنا ينهض رجائي الصغير من أمام الكمبيوتر، ويتحدث بجدية عاقدًا ذراعيه أمام صدره: لماذا تستعجل الأمور وتقفز على الأحداث؟ نحن لم نقرر شيئًا بعد. ولكي أطمئنك أكثر فإن مصيرك ليس بأيدينا نحن فقط. الأمر أكثر تعقيدًا مما تظن.حسب الأوراق التي أمامي، فقد أصابتك نوبةٌ قلبية، وأنت منذ ساعات طويلة تنام فاقدَ الوعي بغرفة العناية المركزة بإحدى المستشفيات الخاصة بعد أن نقلك إليها أصدقاؤك الحشاشون حين سقطت بينهم، أخواتك عرفن بالخبر، وجئن ومعهن الأزواج والأولاد. زملاء العمل والمترجمون الشباب والشابات أرسلوا لك الزهور والبطاقات ودعوات مخلصة بالشفاء. كل ما تراه حولك الآن ما هو إلا تفاعلات كيميائية في عقلك، ما هو إلا وعيك يلعب متراقصًا بين السماء والأرض، ورُوحك معلقة على شاشة هذا الجهاز الذي تحتقره. لستُ أنا أومنى أوهذا البحر والسماء وكل شيء هنا إلا جزءًا صغيرًا من تلك الرؤى، أما إن كانت رؤى الموت أو رؤى الرجوع للحياة، فهو ما لا يمكننا تحديده الآن بالمرة.

يتردد الشيخ قليلاً، ساهمًا، يحتضن إليه حقيبة أوراقه، ويلتفت نحو البحر فيرى بعض السفن الشراعية العتيقة آخذة في الاقتراب من الشط. يشعر أنه قرأ أو رأى تلك الوضعية نفسها في روايات وأفلام عديدة

سابقًا، ينام البطل فاقدًا للوعي بين الحياة والموت، بينما وعيه يُعيد بناء حياته من الأول للآخر، بحرية تامة. حيلة رخيصة، هي أقصى ما يمكن لخيال الصغير أن يتوصل إليه. يقول موجهًا حديثه إليه: لابد أنك من دبر هذا كله، أنت وكمبيوترك الملعون، وأفكارك المسروقة حتة من هنا وحتة من هناك.. اسمع، إذا اخترت أن أموت في النهاية فيجب أن يكون هذا بقراري أنا، وليس بحكم إعدام من عيل يظن نفسه دستوفسكي.

يهمس رجائي الشاب لنفسه: دستوفسكي؟ قديم طحن!

من السفن الشراعية تتدلى قوارب بالحبال، القوارب رفيعة مستطيلة، وممتلئة بنساءٍ تتنوع أعمارهن وأشكالهن، كما أن أزياءهن تنتمي إلى عصور وبلادٍ مختلفة. ثم تبدأ النسوة في التجديف نحو الشاطئ بقوة وهمة، حيث يقف أحمد رجائي الشيخ، ومنى في ثياب الحداد، وهي لا تتوقف عن التقاط الصور بآلة تصوير فوتوغرافي، وقد اختفى رجائي الصغير تمامًا، بكل أشيائه.

تظهر ماجدة في ثياب راقصة شرقية قديمة وقد تجاوزت الخمسين من العمر رغم الألوان الفاقعة لمساحيق وجهها. تبتسم لفلاشات الكاميرا، تتحدث بسرعة ولهفة متشبثة بالميكروفون:

تم زواجنا في أيام معدودة، بعد أن اعترفتُ لأمي بكل شيء.زوجونا بسرعة رغم أنني لم أحمل من أحمد إلا بعد ذلك بفترة، أسبوعين تقريبًا من عقد القران، بلا زفاف ولا معازيم ولا فرح. فكرتُ قبلها في الانتحار، قبل أن أعترف لأمي، ولكن لم تهن عليّ نفسي وخفت عذاب النار. واللهِ من ناحيتي كنت أعبدُ أحمد عبادة، لكنه حين

تزوجني رغمًا عنه بدأ يتصرف معي وكأنه شرب مقلبًا، وكأنني كنت دواء مرًّا لا يريد ابتلاعه، ولم يحاول حتى إخفاء هذا عني، مع أنه كان يأكل ويشرب ويأخذ مصروف جيبه ومعزز ومكرم ٢٤ قيراطًا! صار شخصًا آخر غير أحمد الرقيق الناعم، الذي يجلس معي في الصالون ويكلمني عن الشعر والمشاعر. أسابيع قليلة وأعلن صراحةً كراهيته لي ولأهلي وللجنين الذي أحمله في بطني منه، وأشار للانفصال، لكن حاجز المؤخر كان يمنعه، ولولا هذا لطلقني من قبل حتى أن يُسجن مع أصحابه الشيوعيين. وأنا رحتُ أتوسل إليه أن يُصلح من حاله، وأن يتحمل العيش مع أهلي صابرًا على أفعال أبي وكلام أمي الجارح، حتى يتخرج وبعدها نستقل بحياتنا مع أولادنا بعيدًا عنهم، دون فائدة. وأخيرًا عاقبنا الله بهذا الطفل المسكين، ضنايا عبد الحليم، فأراد الله أن يصوّر فيه ذنبنا، فجعله متخلفًا عقليًّا تكفيرًا عن سيئاتنا.

طوال هذا والشيخ يستمع إليها وعلى وجهه تعبيرات ألم وقرف ودهشة، ولا يتوقف عن النطق بتعليقات صغيرة ساخرة، إلى أن ينفجر صارخًا ومستفَزًّا تمامًا:

بل هو ثمرة زواج الأقارب يا جاهلة، اسألي أمك عن عمة أبيها الهابلة، اسأليها عن الجدة التي كانت تُكلم التراب وعاشتْ مئة عام، محبوسة في غرفة الخزين، يخيفون بها الأولاد والأحفاد.

هنا توجه له منى الميكروفون بسرعة، ثم تعود من جديد إلى ماجدة، التي تقول وهي تجهش بالبكاء:

سوف يجازيني الله خيرًا على صبري مع ابني وابنك، وسوف

يحاسبك أنت على إهمالك له طول السنين.

يصرخ أحمد: أنتم منعتموني عنه، ثم أخذته وزوجك وهربتما به إلى دُبي، لتسجنوه هناك مع خادمة أسيوية؟ تمامًا مثل جدته، ولعلكم كنتم تخيفون به أولادك من البغل اللص.

فتصيح ماجدة: زوجي أشرف رجل في الدنيا، أكرم ابني وأحسن مثواه، وأبوه الحقيقي يجري وراء مزاجه ويعيش دور فيلسوف الغبرا.

ولد وبنت وشايب، ثلاث صور في الكوتشينة، ولا أحد يدري أين ذهب الجوكر، أو من هو الجوكر؟ ثلاثة في متاهة، مُنى والرجاءان، أو هذا ما يبدو من هُنا على الأقل، حيث نُنصت إلى ضحكة الجوكر الخفي. الثلاثة في متاهة حتى من يظن منهم أنه يتفرج على تصميم المتاهة من الخارج، من أعلى. الممرات مبطنة بالمرايا، وفي غابة المرايا هذه لا يجد أي واحد منهم صورًا واضحة أو صافية لنفسه أو للآخرين، كلها مشوشة ومشوهة أو مضحكة وغريبة، ومع ذلك فلا سبيل للرجوع إلا بالعثور على المخرج الوحيد الممكن.

يبتعد رجائي الصغير عن المرآة، وقد اطمأن لشكله، دون أي درجة من الرضا رغم ذلك، ثم يخرج لخوض معارك المجد والفخر.

تمرّ مُنى بعينيها على الحرائق الصغيرة من حولها فتنطفئ تلك الحرائق واحدةً بعد أخرى بفعل نظرة عينيها، ثم تختطف حقيبة يدها وتخرج هاربة.

يُنهي رجائي الشيخ دفتره الأول، ويضعه مع الآخر الأبيض الجديد في حقيبة أوراقه الجلدية العتيقة، ويخرج مستسلمًا للقضاء والقدر.

ثلاث نقاط متباعدة، لكنها الآن تقترب ببطء، من أعلى، نراها تقترب، على الخريطة الإلكترونية الذكية للمتاهة. ثلاث نقاط حمراء، يعني موحية بالخطر، تومض بسرعة بينما يزداد اقترابها. ولعلهم الآن اقتربوا إلى حدٍ مريب، تلك الحميمية المنذِرة، حين نعرف مناطق الوجع والضعف عند بعضنا البعض، فنبدأ بإشهارها كلما لاح خطر. لعلهم مثلاً في ثلاث عربات مختلفة من قطار الأنفاق نفسه، ويمكننا بحادثة مأساوية صغيرة أن نتخلص منهم في ضربة واحدة أخيرة.

المعلومات المتوفرة لدينا تخبرنا بأن كلا من رجائي الصغير ومُنى ولدا في العام نفسه الذي ولد فيه عبد الحليم، الابن الوحيد لأحمد رجائي، وقد مات العندليب الأسمر. تكبر بطن ماجدة وكأنها على وشك الانفجار، وتتوقف عن الذهاب إلى المدرسة، وتستسلم لشراهة الأكل والنوم، لتصحو بكابوس جديد كل مرة يدور حول ما ينشأ في بطنها. وتستغيث بأحمد فلا تجده، أو تجد نفورًا وتقززًا واضحين: "أحمد أنا خايفة، حاسة إن العيل مات جوايا"، "أحمد، ممكن يكون الجنين مشوه ". وفي أغلب الأحوال أحمد لا يرد، أحمد غير موجود. ثم أنجبته وأبوه في السجن على ذمة أحداث يناير ١٩٧٧، وأصرت على تسميته عبد الحليم حسب أمنيتها القديمة. ثم تولد مُنى البربري، لا كما تولد الأساطير، بل كما توجد المصادفات السعيدة، كما عبر رجائي الشيخ في دفتره الأول ذات يوم، لعائلة صعيدية سوف يتردد اسمها بعد سنوات في أغلب شوارع مصر، على واجهات محلات البربري للفول والفلافل وكل أنواع الطعام السريع. ويولد رجائي الآخر، فأرًا أبيض نحيفًا، على

عكس أغلب أشقائه، لتاجر خشب على قد حاله، وإن كان طَموحًا، في دمياط، قبل أن يتمرد —هو الآخر، ولم لا؟- على الأسـرة وطمعهـا وضيق أفقها، ويذهب إلى الجامعة في الإسكندرية، على غير رغبة أبيه، ثم للعمل في القاهرة، وحيدًا تمامًا أغلب الوقت، وبطموحات تفوق طاقـة هذا البدن الخفيف، وكأنه —كما سيكتب رجائي الكبير في دفتره الأول ثم يشطب عليها بسرعة— دودة جائعة للخلود.

"اصحى يا أحمد؛ الدنيا مقلوبة بره!". انهض أيها الملاك الكسول، فاتتك القيامة. تعال، تعال، تعال. انتزعته جارية شابة سمراء مـن بـين أحضان جواريه النائمات وحدهن في الكتاب، ومثلت بين يديه لتحكي حكايتها.

انتهت اللعبة وبدأت المشكلات. أسلمَ نفسه لأبيه وأمه يفعلان به ما يشاء، واتفق الكبار على زواج الولد والبنت، وإقامتهما في شقة العمة وزوجها، بغرفة البنت كما هي دون أي تجديدات. يتزوجان وبعـدها نرى. لزم الصمت، وأحس في إطاعة الأوامر راحة كبرى، لم يكن عليه أن يفكر في أي شيء، لم يكن عليه أن يقرر، وها هو سيصبح زوجًا وما زال في السنة الثانية بالكلية. كيف سيتلقى زملاؤه وزميلاته خبرًا كهذا؟ لن يعلم أحد بذلك، أبدًا. صبر عليه زوج العمة ثلاثة شـهور بالتمـام والكمال، والبيه يعود كل ليلة يترنح من السُـكْر علـى وش الفجـر، وسكان العمارة يتكلمون، ومهنة رب البيت تعتمد على سُمعته بدرجة

كبيرة. انتظره زوج العمة ذات ليلة حتى عاد من سهرته، وماجدة بغرفتها تحتضن بطنها وتبكي وحدها أمام الهواجس الخبيثة والكوابيس المفزعة. وجد أحمد حقيبة جديدة بانتظاره، حقيبة جديدة غير تلك الحقائب الرثة الأصغر حجمًا التي حشر فيها الكتب والثياب يومَ كتبوا الكتاب وانتقل العريس إلى عش الزوجية. أعجبته الحقيبة، وفي غمرة السطل تناولها وخرج، وناول زوج عمته مفتاح الشقة، و لم ينس أن يشكره على الحقيبة الجديدة، اتفقا على الطلاق قريبًا، غير أن أحمد قبض عليه في اليوم التالي مباشرة. أحسّ أحمد أنه استعاد حياته، بتلك الحقيبة الجديدة يمكنه أن يبدأ من جديد، أن يسافر، أن يهرب، أن يولد بجد من جديد. أرجأ التفكير في مغامرات المستقبل حتى صباح الغد، وتحت وطأة الرغبة المُلحة في النوم أخذ تاكسي بآخر نقود تبقت معه، واتجه إلى أحد الزملاء المغتربين من شلة الجامعة يسكن شقة على السطح في عمارة قديمة بحدائق القبة. لم ينصت إلى حديث سائق التاكسي العجوز حول قرار رفع الأسعار الذي هيّج الناس كلها. فتح له الزميل وهو يتثاءب و لم يسأله عن شيء، اكتفى بالإشارة نحو كنبة بالصالة، فارتمى أحمد عليها والحقيبة الجديدة بالقرب منه، وسرعان ما نام نومًا عميقًا بلا أحلام. أيقظه زميله قبل الظهيرة بقليل: "إصحى يا أحمد؛ الدنيا مقلوبة بره".

أراد أحمد أن يفهم، أراد أن يشرب فنجان قهوة وأن يدخن سيجارة. أراد أن يحدد أين سيذهب وكيف سيعيش، لكن صديقه لم يمهله، اكتفى بالعناوين الرئيسية وانطلق. سوف يلتقي به بعد يومين في سجن القلعة.

شرب شايًا ودخن سيجارتين وأحس تدريجيًا بشيءٍ من الفضول،

إلى أن تمكن منه حين نظر من فوق السطح. الشوارع الجانبية هادئة إلا من بضعة أشخاص يهرولون من هنا إلى هناك، وقوات الأمن المركزي تتحرك في الشوارع الرئيسية. الثورة؟ غير ممكن؟ وهل هذا وقتها المناسب؟ لم تنضج الأمور بعد، لا ينفع. لعلها مجرد زلزلة صغيرة. حين ارتدى ثيابه ونزل شعر بالندم، عاوده الصداع وأخافته حالة الشوارع. عشرات الصبية الفقراء يمطرون السيارات المارقة بالحجارة، ويحطمون واجهات المتاجر، ومظاهرات صغيرة سلمية هنا وهناك، لا تبتعد هتافاتها كثيرًا عما يدعو إليه أصدقاؤه اليساريون في الجامعة. تُرى ما الذي يفعله الزملاء الآن؟ أهم في الجامعة أم انضموا إلى الناس في الشوارع، يحاولون قيادة هذا الطوفان الخرافي من الغضب والنقمة، يحاولون أن يضعوا الجني في القمقم، حتى يحقق لهم أمنياتهم: الثورة. أي شعارات يمكن رفعها الآن، وقد سبقت هتافات الناس كل أحلامهم؟ لابد أن يلتقي بهم، لابد أن يُسرع وأن يتجنب المشكلات الصغيرة هنا وهناك. في طريقه شاهد شابًا يبدو طالبًا أو متعلمًا يحاول إقناع رجلين بعدم كسر باب متجر بقالة صغير لنهب محتوياته، سمعه يتكلم بحماس وحرارة عن السرقة وعن ضرورة توحيد الجهود نحو هدفٍ واحد، وهو إسقاط حكومة الأكاذيب والنهب التي أفقرت الشعب بينما تمنيه بوعود الثراء والرفاهية الزائفة. التفت نحو الولد أحد الرجلين، ولكزه بعنفٍ في صدره، وهو يقول "إلعب بعيد يا شاطر".

راح أحمد يبتعد مُسرعًا نحو الجامعة، يأكله الفضول ويتخذ الخوف في قلبه شكلاً ولونًا وملمسًا. لأول مرة يحس الخوف لذيذًا ومقبولاً ومُرحّبًا به تمامًا. نسي الآن كل ما يخص ماجدة وحملها وعمته وزوج

عمته. سار حتى الجامعة متجنبًا التورط في التجمعات الصغيرة التي يقابلها بين الحين والآخر، انخلع قلبه بهتاف الناس، وتمنى لو استمر هذا الهتاف للأبد، إلى أن يشبع آخر جائع على وجه الأرض، إلى أن يُعالج آخر مريض، إلى أن يتحرر آخر سجين، إلى أن يلعب –بجد– الصغار والكبار معًا في نزهة الإنسانية الكبيرة نحو فردوس المرح المجنون. عُد أيها الشاعر إلى محبسك القديم، فالكلام الآن للعنف، والقافية ستكون هي ضربات العصيّ المتواترة على العظام والرؤوس.

كان الجو شديد البرودة، والناس مع ذلك تتحرك في الشوارع وكأن بها نارًا حامية. ويلتقي أحمد أخيرًا بزملائه ومعارفه، في مظاهرة كبيرة بالجامعة كان قد بدأها طلبة الهندسة بمؤتمر حاشد، وسرعان ما انضم إليهم طلاب الكليات الأخرى، واتجهوا معًا–وأحمد ذائب تمامًا في التيار الهادر– نحو مجلس الشعب للاحتجاج على قرارات رئيس الوزراء، وفي شارع الجيش انضمت إلى المظاهرة نساء الأحياء الشعبية.

القطط البلدية، قطط الأسواق الشعبية وعتبات المنازل والسلالم والحواري الضيقة. قطط القلي والتحمير والتسبيك والسلق والطواجن والمحاشي. قطط السبسبة والتنعيم والحنة والنتف والحلاوة. قطط حقي برقبتي ويا واخد قوتي ولك يوم يا ظالم. تخرج جماعات، من الشقوق المنسية، من غرف النوم الصغيرة، من المطابخ التي تشبه الأفران، ومن طوابير الخبز وطوابير الجمعية وطوابير أكياس الإعانة والزكاة والإحسان. طلقات الرصاص المطاطي والحي لها صفير تقشعر له الأجسام حتى من بعيد. عمال حلوان بدأوا يومهم مبكرًا للغاية، كانوا أول من خرج، وأحمد مازال نائمًا ناقمًا على زوج عمته وعمته وابنتهما والشعر والثورة

والدنيا بما وسعت. استيقظ أيها الملاك الكسول، فاتتك القيامة. عايزين حكومة حرة دي العيشة بقت مُرَّة. قوات الشرطة، والأمن المركـــزي، وثمة شيء كالتردد يسري بين العساكر، بل الضباط أيضًا، فيتزل الجيش لاحتواء الموقف. شغبٌ شغبٌ، قلة أدب. قنابل الغاز والركل والسحل والتهشيم والتكسير والمرمطة والإهانة، إهانة هذا الجسد الحي الجميـــل بكل وسيلة ممكنة، من قديم الأزل وحتى متى يا رجائي؟ وقبل الجســـد إذلال الروح وكسْر النفس. المتظاهرون يهاجمون أقسام الشرطة، عمال الترسانة البحرية في الإسكندرية هم أيضًا بدأوا يومهم مبكـــرًا للغايـــة. عمار يا إسكندرية، عمار يا مصر. والخراب يزحف، دميمًا وعجـــوزًا ومشوَّهًا كأنه أعمالنا السيئة يوم القيامة. خراب كبير مثل إخطبوط يمد لوامسه حتى أبعد ثقب في هذا الجسد الجميل الحي. من يناير ٧٧ وحتى ما بعد الألفية الجديدة، ما الذي حدث؟ أين أحمد رجائي؟ أين الحلـــم والقصائد والبنات الحلوة؟ محاولات لاقتحام مديريـــة الأمـــن، صـــور السادات يتم تكسيرها وإهانتها، وابلٌ من الحجارة يسقط فوق الجامعة الأمريكية بميدان التحرير، وأحمد يتلقى الضربة القاضية على نافوخـــه، فيحتويه ألمٌ كبير، أكبر من الأحلام والقصائد والبنات الحلوة. ألمٌ واحد يتفتت بسرعة البرق إلى ملايين الآلام الصغيرة، بعدد هـــذه الـــرؤوس المتناثرة على الطرقات، ثم يسلمه الألم الخالص إلى دوار الغياب.

الآن يسند الشيخ رأسه على الحاجز المعدني لمقعد عربـــة المتـــرو، مستريحًا مبتسمًا، وكأنه لا يشعر حتى بالألم الذي يفتـــرس أحشـــاءه. مستعد تمامًا لكلمة النهاية.

ينتبه فجأةً وقد شعر وكأن ريشة خفيفة تمر بوجهه، يفتح عينيــه فيرى رجائي الصغير ممسكًا بريشة الكتابة. أهذا ما تريده؟ أهكذا تحوّل حياتي إلى بيان سياسي؟ إكليشيهات صفيح صدئة؟ خردة؟ روبابيكيا؟

لم يجد الشيخ طاقةً فيه لينطق بهذه الكلمات التي فكر بها وهــو في موضعٍ غامض بين ما نسميه الواقع وما نسميه الخيال.

-

تعبَ من الرقص فعاد رجائي الصغير إلى المائدة. ترك مُنى تــرقص هناك مع آخرين من الصحاب، يزدحمون على الموسيقى وينفضون عــن أجسادهم الأرواح والعفاريت التي تسكنها. يعرف أن مُنى مســكونة؛ ربما بأرواح قديمة أو بالنيران التي أكلت رجلها، ولا يملك لها شيئًا.

رأى صورًا قديمة لخالد على موقع الفيس بوك، ووجــده جمــيلاً ومُشعًّا بالذكاء، أشقر كأنه إله روماني شاب، وقرأ له بعض نصــوص مسرحية قصيرة نُشرت بعد موته فاعترف لنفسه بتميز روحه في الكتابة وتمردها على الأشكال المعروفة، وهو أمر لا يمكن لرجائي الصــغير أن ينافسه فيه، التمرد وتجاوز الحدود. مهما رقصَ كالقرد أو شرب بــيرة لحد الصبح، فسوف يبقى مجرد صورة مقلدة لخالد، للمتمرد الحقيقــي، بشعره الأشقر المتدلي خصلات هائجة على جبينه وحول رأسه. لــيس لأنه كان رجلها الأول، بل ربما لأنه قد يكون الأخير. صدقت القطــة نبوءة جدتها وسقطت في الشرك، وربما لأنه أُخذ منــها غــدرًا دون أن تتاح لها فرصة الاختيار. إنها هناك، تحاول الفرار بجسدها من دائرة نيران المحرقة، تواصل المحاولة كل ليلة تقريبًا، يعرف، سواءً كان معهــا أم لا،

سواءً كانت وحدها أم بصحبة الآخرين وهم حاضرون دائمًا، ســواءً كانت بالخارج أم اشترت "الأشياء" على حد تعبيرها واتجهت للبيــت لتسكر وحدها في غرفتها.

وحده على المائدة يستخرج رجائي الصغير دفتره خلسةً، ويسجل ملاحظات سريعة وكأنه يخشى أن يراه أحد. يعيش أم يكتب؟ ســؤال قديم، سؤال كبير، أجاب عنه رجائي الشيخ إجابة حازمة من زمــان. عاش، ونفضَ عنه همّ الكتابة دون حسرة أو ندم. ولكن أي حياة؟ لماذا يصر الصغير على الانتقام منه وتشويهه، أيرى فيه جميع الآباء الآخرين؟ تجار الأخشاب الناقمين على طموح أولادهم غير المفهوم. أم يرى فيــه مرفأ أمان ممكن لهذه القطة السمراء الشاردة، ولهذا يخافه؟ تعود مُــنى، بثيابها السوداء، من حلقة الرقص، وترتمي على أقرب مقعد إليها، وتشير بزجاجة فارغة نحو البار مطالبةً بالتالية. كان أفلحَ في إخفاء دفتره وقلمه قبل اقترابها، ونظر إليها مبتسمًا، أراد أن يقول لها أن تكتفي، لكنه خاف شراستها التي يُفجرها فيها الكحول.

نظرتْ مُنى إليه بابتسامة عابثة؛ القطة تتأمل الفأر ومخلبها في الهواء، وهو –الفأر المرتعد- يروح ويجيء وكأنه سيتحرر منها بهذه الحركــات العابثة. "أنت عارف إني شؤم؟" أومأ برأسه إيجابًا، غــير مســتعدٍ الآن لمعارضتها حول أي شيء.

منزل العائلة القديم بالخلفاوي، طابقان متــهالكان، وفي حجــرة خارجية بالأرضي المستوقد مشتعل النيران ليل نهار. أولى ذكريات مُنى لا

تنفصل عن رائحة تدميس الفول أبدًا، القدور الهائلة التي ينضج فيها الفول على مهله، فول البربري الذي سيكتسب شهرةً بمذاقه الطيب وطراوة حباته المكتملة. العربات ستتحول إلى مطاعم، وأعمامها الأميّون سيعرفون حسابات البنوك، ويعلقون الأختام بسلاسل في الصديري تحت الجلباب أو في الميداليات الفضية المزخرفة بآيات القرآن. المستوقد اختفى وطلعت مكانه عمارة جوهرة البربري، ولكنه قبل أن يختفي كان قد أكل أباها في نيرانه. أولى ذكرياتها هي القدور والنيران، وبجانبها تتمدد الجدة الصعيدية العجوز، عمود الدار وأم البنين والبنت الوحيدة ثريا التي نشأتْ جافة مثل البنين وأكثر. الجدة لا تترك مكانها في المستوقد صيفًا أو شتاءً، تطّلع على كل شيء، من مكانها الثابت، وتتدخل أيضًا في كل شيء. منذ أن مات ابنها المحبوب لم تنتقل من المستوقد، وكأنها كانت تنتظره بالمكان الذي احترق فيه. تتذكر مُنى استيقاظها ذات ليلٍ، لعله يوم وفاة أبيها نفسه، وهي في الثالثة ربما، على حِجر جدتها، في المستوقد، بجانب وشيش النار ورائحة الفول المدمس تُفعم الهواء حولها. نظرتْ الصغيرة إلى الوجه العجوز الناشف، فرأت دموعًا لم ترها بعد ذلك أبدًا، دموعًا انزلقت ببطء وراحت تنحرف في مسارها مع التجاعيد الكثيرة إلى أن تجاوزت الشناف الفضة المعلق في الأنف حتى بلغت الوشم الأخضر المدقوق على الذقن. يغلبها النومُ من جديد، وسيقول لها العيال فيما بعد إن أباها احترق، وكأنهم يعايرونها بذلك.

عاودتها النيران من جديد، المستوقد، محرقة بني سويف، المسرح، تعال، تعال، تعال.

جذبت رجائي من ذراعه، وقد أتت على منتصف زجاجتها، ليقوم ويرقص معها، فقام مُبتسمًا ومُكرهًا.

"فقال الوزير والله لقد ذكرتماني بما كنتُ عنه غافلاً، ثم التفت إلى الجواري وقال أريد منكن أن تخبرنني عن أمر الجماع وما شاهدت كل واحدة منكن فيه، فمن كان حديثها أحسن من غيرها نالت الجائزة، فتقدمت إليه عشر جوار حكين له عشر حكايات، كل واحدة حكت حكاية".. وقامت سميحة فخلعت عنها جلبابها وبركت فوق حجر أحمد رجائي، وهي تترنم بأغنية ريفية خليعة: "الواد أبو صديري مفتوح.. البوسة منه ترد الروح"، ولفت ساقيها من حول خصره وهو عنها في غفلة وشرود يدخن سيجارة. "تقدمت الأولى، وكانت ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال عليها حلة خضراء، قال فقبلت الأرض بين يديه، وقالت سألتني يا مولاى وأمرك مطاع. إني كنت يومًا من الأيام جالسة تحت حائط فانخرط عليّ من حائط الدار شاب، ولم يتمهل دون أن بادر لي وضمّني إلى صدره، فقطّع شفتيّ بالبوس، وأخذ أوراكي في وسطه، وأخرج إيره كأنه إير بغل، وأخذ من فيه بصاقًا وحك به شفري قليلاً حتى غبت عن الوجود ولم أعلم أن".. لم يكن أحمد مجرد زبون، كان ردة الروح في البدن، وزهرة أصحابه وعلة وجودهم ونجم الشمال والخضاب والبرج وديك البرج وعرف الديك. وأشهد أنا سميحة بنت المجهولين المنسيين أنني إلى الآن أشتاق إلى أحمد رجائي، ولو عرفت مكانه، وقد تبتُ وحججت بيت الله، لذهبتُ إليه وطلبت منه أن يعقد عليّ ولو لليلةٍ أو بعض ليلة.

أيقظه رنين الهاتف بعُنف، وخطفه من بين أحضان الحكايات الشهوانية القديمة، و لم يكن قد غفل لأكثر من ساعتين. إنها مُنى، الحكاية الأخيرة، أخبرته ببساطة إنهم في طريقهم إليه الآن. يعلمُ الله كيف أقنعت رجائي الصغير واثنين آخرين من الصحاب بالتوجه إليه بعد انتصاف الليل بساعات، وقد تعبوا جميعا من الرقص إلا هي. كانت قد اتصلت بعمتها وأقنعتها بأنها سوف تبيت بالخارج لظرفٍ طارئ عند إحدى صاحباتها. ولا جدوى من أن يتساءل رجائي الصغير كيف لها أن تتصرف بهذه السرعة وكل هذا الحسم –حين تشرب خصوصًا؟ تتعامل مع جميع من حولها وكأنهم مجرد رعايا: سنرقص. لا تذهب، إبق. سنشتري ذرة مشوية. سنأخذ سيارتك ونطلع على الحسين الآن. سوف نستأجر مركبًا في النيل. والآن، فجأة: سنطلع على عم رجائي. لا تستشِرْ أحدًا في شيء، وعلى الآخرين السمع والطاعة، وإلا..

ضائعًا داخل متاهته المترلية، لا يدري الشيخ ماذا يفعل. أيقظه رنين الهاتف بعنف، فانتشله من حكايات شهوانية قديمة تبددت في الهواء، و لم يستطع الاعتراض، لم يجد الوقت للتفكير حتى. كان يمكنه أن يرفض، أن يقول لها إنه متعب أو أي شيء آخر، لكنه وجد نفسه يقول بحماسة طفل: "يا أهلا وسهلا، تنوروني!" وألقى نظرة سريعة على الشقة، ثم على محتويات ثلاجته العتيقة. وأخيرًا على وجهه في المرآة، لم يجد الوقت لأن يسأل مرآته أي أسئلة وجودية سخيفة: "يا مرآتي يا مرآتي، هل يمكن أن تنظر إليّ مُنى، هذه الليلة، فتكتشف شيئًا آخر، شيئًا جديدًا لم يخطر لها على بال؟ كأنها تراني لأول مرة، بلحية هيمنجواي هذه والعينين الزيتونيتين والوجه الأبوي؛ وجه الذئب".

رجائي الصغير راح يبالغ في الاعتذارات ما إن اختفت مُنى في الحمام، ربّت رجائي الشيخ على كتفه: "معلش، أنا عارف مُنى، بتعمل اللى ييجي ف دماغها، وبعدين أنا كنت فعلاً محتاج شوية وَنس معايا.. إيه أخبار الرواية يا بطل؟".

انتزعته جارية شابة سمراء من بين أحضان جواريه النائمات في الكتاب، ومثلت بين يديه لتحكي حكايتها.

أول بنت تلتحق بالجامعة في عائلة من صانعي الفول والطعمية الصعايدة. ظلت لأسابيع تتسوق هي وعمتها استعدادًا للحدث الكبير. ثم جاء قرار خلع الحجاب، الذي أثار عاصفةً في عمارة العائلة، وقاطعوها هي وعمتها التي تشجعها على الانحلال. في أيامها الأولى بالجامعة يطغى ذعرها على فرحها. ضجيج وزحام وقبح وهمسات عن فضائح لا يمكن تصديقها، مخدرات وجنس وطبعًا سياسة. إخوان مسلمون واشتراكيون وناصريون إلى جانب اتحاد طلاب لا معنى له، وأُسَر كل همها الحفلات والرحلات والترفيه. كان من السهل أن تتعارف وتُصادق، وتسمع حكايات عن زيجات عرفية تولد وتنتهي في لمح البصر، وعن رجال يتسللون للحرم لاصطياد البنات. ومُنى هاربة من أسرة تريد تقييدها بالحبال، لأنها بنت، ولأنها جميلة حبتين، ولأنها يتيمة الأب، ولأنها –حسب الأسطورة– وجه شؤم، ومات خطيبها ابن الجيران بعد إعلان الخطوبة بأسابيع. عندما تقدم لها كانت طفلة تقريبًا لم تبلغ السادسة عشر، ولكنها مستعدة للتخلي في لحظة واحدة عن كل طموحاتها، الفن والتمثيل والشهرة، من أجل أن تتزوج هذا الولد، أن ترقد عارية بجانب جسده الأسمر الطويل، وأن تنجب منه، لكن تعجل

الموت ليتأكد الشؤم وتعود نبوءة الجدة على ألسنة سيدات الأسرة والجارات.

ووسط سيرك الجامعة لم تكن تنوي التورط في أي حكايات غرامية تراها حولها وتسخر منها، حتى ظهر خالد في قلب هذا السيرك كأنه وافد من عالمٍ آخر. حين رأت إعلانًا عن تكوين فرقة مسرحية، وحاجتهم لممثلين وممثلات من الطلاب، تقدمت على الفور، وكان هو المُخرج والمُمتحِن. طلب منهم أن يرتجل كل منهم شيئًا في حدود دقيقتين أو ثلاث دقائق، سواء كان مصحوبًا بكلام أم لا. جلست تشاهد الطلاب والطالبات يقدمون سخافات لا حصر لها، مشاهد من أفلام ومسلسلات ومسرحيات كوميدية خفيفة. وقبل أن ينادي اسمها بدقائق معدودة كانت قد عرفت ماذا ستفعل.

مندمجةً في حكايتها صعدت مُنى فوق مائدة السفرة، وقد أذهلتها الخمر وأثقلت عليها الحكاية لكي تفضي بها، فلم تنتبه أنها تدوس بذلك على صور حياة مضيفهم الكريم، مرصوصة بمحبة تحت بنورة المنضدة، وراحت تحكي كيف تعرفتْ بخالد، الموضوع الأول والأخير كلما ضحك عليها الكحول. يزيح عم أحمد علب البيرة وأطباق الطعام، وتتعلق أبصار الحضور الشباب بالمرأة الوحيدة بينهم، القائدة، السلطانة، المحاصرة بالنيران، والأرملة دون زواجٍ حق، والبنت بحكم الأوراق الرسمية، تتعلق عيونهم اللامعة المُرهقة بجسدها القصير المدملج، وبشرتها السمراء المشربة الآن بحمرة طفيفة، ووجهها التفاحي.

على خشبة مسرح صغير بالجامعة، وفوق ترابيـــزة الســـفرة الآن، راحتْ تنادي على شخصٍ غير موجود، دون أن تعرف من هو. لم تقــل سوى كلمة واحدة فقط: تعال. مرة تتخيل أباها الذي لا تكاد تذكر عنه شيئًا، وصوره لا تفصح إلا عن رجل طيب وخفيف الروح، أتى في نهاية سلسلة من الذكور الغلاظ الأشداء، فلقي التدليل من الجميع، وقالت لهـــا أمها إنه كان حلو الصوت وحاضر الضحكة، ولم يقسُ علـــى أحـــد أو يظلم أحدًا طول عمره. ومرة كانت تنادي على حبيب مراهقتها، النجار الطويل داكن السمرة، الذي قرأ فاتحتها واشترى الدبلة ثم ذهب كـــأن لم يكن. تعال، تعال، تعال، تقولها في ضراعة ولوعة، ثم تقولها آمرة حازمة، ثم همس بها كأنما بقداسة ويأس. ثم ترفع يديها للسماء وتـــدور حـــول نفسها، وتنشد: تعاااالاااا.. تعاااالااااا.

لم يقاطعها خالد، حتى حين تجاوزت الدقائق الثلاث بقليل وهـــي تردد كلمة تعال بكل النغمات والتنويعات الممكنة. حتى انهارت تبكـــي وتدق بيديها على الخشبة وتهمس كأنها تدعو الموت: تعال، تعال. صعد إليها الخشبة مع بعض الفتيات أحضنها، وأدركتْ عندها أنها لم تكـــن تنادي إلا هذا الولد الجميل، بعينين لهما لون غيطان فســـيحة، ووجـــه مُنمش، وشعر فاتح.

تعال، تعال، تعال.

اندمجت تمامًا في عرضها المنفرد، حتى خشي عم أحمد أن يـــوقظ صوتها الجيران.

ولشهور تالية لم ينادِها أحد في الفرقة المسرحية، إلا بهذا الاسم "يا تعال"، ما عدا خالد الرزين الهادئ.

لم تُفاجأ مُنى حين رأت اسمها بين المقبولين بالفرقة المسرحية الجديدة. منذ أن رأت خالد لأول مرة راحت تتخيل طعم قبلاته، ووحدها بالليل جرت أصابعها على جسده وعلى خطوط وجهه، وشدت أذنيه وهي تشتمه لتعاليه وعجرفته، ومعاملتهم كأنهم عرائس معلقة بخيوط تتجمع بين أصابعه فيتحكم بهم كيف يشاء، غير أنها تجملت بالصبر واحتملت أوامره وغروره وهي تبيّت الانتقام منه في اللحظة المناسبة، دون أن تدري أن الحب قد تسرب إليها، يومًا بعد آخر، متنكرًا في قناع من النقمة والغيظ. حين بدأ هو التقرب إليها ودعوتها إلى بعض العروض المسرحية خارج الجامعة، أدركت أنه أوان دفع الحساب. أسابيع وهي تعد وتخلف المواعيد، ولم يكن هناك موبايلات لكي ترحم المنتظر المسكين من ذُل النظر إلى الساعة كل دقيقتين.

وقبل أن ينال منه اليأس تُلقي إليه بشيء ما، صدقة صغيرة من نفسها، ابتسامة، كلمة حلوة، موعد لا تتغيب عنه أو تتأخر. ثم تنفتح أمامها أبواب سماوات طرية، فتسبح فيها معه ببساطة ودون حساب. كانت قد استقرت مع عمتها المطلقة بشقتها الخاصة، منذ أن تزوج العم من أمها كما تُوصي بذلك تقاليدٌ عائلية أقوى عندهم من أركان الدين. عمتها ثريا سندها الوحيد في الحياة، يقولون لا بنات لدينا يذهبون للجامعة فتقول العمة ستذهب وسوف نرى، ولهذه العمة –كما لمُنى نفسها– عند هؤلاء الرجال حقوق يخشون المطالبة بها. انشغل الأعمام بالتوسعات، وفتح فروع جديدة كل يوم تقريبًا لمطاعم البربري. تعرف

مُني أن لها نصيبًا من هذا الثراء، ولكنها لم تستعجل حصولها عليه. لم تكن النقود أهم ما يشغلها في ذلك الزمان؛ زمان الحب والطيران واللعب المسرحي والسهر على المقاهي واكتشاف الدنيا. استمرت الرقصة حتى الحريق.

انصرف الضيوف من الأولاد معًا وبقيت هي وقد غابتْ تمامًا، رقدت على فراشٍ صغير بالغرفة التي كانت ذات يوم غرفة البنات. وأغلقوا عليها الباب في هدوء، ولن يتمكن عم أحمد من النوم، ولا النزول في الظهيرة لزيارة إحدى أخواته كما اعتاد كل جمعة. ربما يخطفه النوم للحظات فوق الكنبة، لكنه أغلب الوقت سيبقى مضطربًا ويقظًا حتى تصحو هي على العصر، منزعجة من صداع رأسها، ومتأخرة على أشياء كثيرة لابد أن تقوم بها، وتختفي في ثوان، بلا نظرةٍ واحدة نحو وجه الذئب العجوز الجائع.

لم يكن الشيخ أحمد هو الرجائي الوحيد الذي لم ينم تلك الليلة. أخذ رجائي الصغير المترو، بعد أن اشترى لِبانًا قويًّا بالنعناع حتى لا تفضحه رائحة الكحول، رغم نُدرة الركاب خلال الرحلات الأولى للقطار في نحو السادسة صباحًا. وحين عاد للسكن كانت السيناريوهات التي راح يتخيلها تتلاعب به، بمشاهد حية وواضحة تلتف حوله مثل حلقات شيطانية، والنور ينسرب من بين الزجاج فيجافيه النوم، ويقرر أن يعد كوب نيسكافيه ويقعد أمام الجهاز للعمل على الرواية. إنهما الآن معًا في الفراش، الجميلة والوحش. ولعلها كانت قد دبَّرَتْ كل شيء مسبقًا، بين السُكر والوعي وفي موضع من عقلها دبرت كل هذا

لتكتشف الوحش، لتترل أسيرةً في قلعته، وبدا الأمر كله طبيعيًّا، سواء أمام نفسها أم الوحش أم الكومبارس الآخرين. خرج رجائي الصغير من هناك وهو يشعر بأنه مارسيل، بطل فيلم البورنو الذي مات في نهاية الفيلم كما سيموت رجائي الشيخ في نهاية روايته. مارسيل الذي يحب ويتعذب، وهو الفحل الرائع. مارسيل الذي يتجاهله الجميع وكأنه هواء. الكتكوت الفصيح، الطفل المعجزة، سوف يقلق نومكم أيها الكبار. يستيقظ أكثر من مرة في الليل، وهو صغير، مدعيًا المغص، لمجرد أن يأخذ أمه من حضن أبيه. ويلمح عند الصباح في عيني أبيه هذه النقمة وهذا الغل. من أحقّ بها؟ الابن الضعيف الصغير أم الوحش الذي يؤلمها ويجرحها؟ الوحش الذي سجن الجميلة في قصره ليكسر اللعنة، وينفك السحر، ويستعيد شبابه وجماله.

لن يعود للعيش في دمياط، أبدًا. لن يعود بالخيبة متوسلاً الصفح والغفران، وسائلاً أباه العون، ليتزوج ويستقر مثل بقية إخوته. بل سيترجم ويكتب ويشقى حتى يصير شيئًا، وشيئًا كبيرًا، شيئًا يتجاوز حدود هذا البدن النحيل الضعيف. ولكن ماذا يريد هو حقًّا أن يكون؟ ما الشيء الذي سوف يُرضيه حقًّا عندما يبلغه؟ الشهرة أم المال أم النجاح والنفوذ؟ أم أن كلها أسماء لشيءٍ واحد له وجوه عديدة. والشيخ يلعب دور الزاهد في الدنيا، يكتفي منها بالفتات، بالحشيش والبيرة، ويخفي وجه الوحش بلحية رمادية كلحية شيوخ الصوفية، ويخاطب المطلق مخاطبة الأصدقاء القدامى؟ وفي هذه اللحظة نفسها يفرك جسد البنت الأرملة بين يديه، ويعريها وهي تترنح من السُكر وتردد اسم خالد. لا موضع لك يا مارسيل بين شبح خالد وظل هذا الشيخ الهادئ

الواثق المطمئن. سيعرفون قيمتك فيما بعد، ربما بعد أن تموت، وتثبت لهم فحولتك في أحلامهن. ربما بعد أن يُهينوك ويعاملوك مثل انتهازي صغير، ابتساماتك في وجه الآخرين تملق، ومجاملاتك للآخرين وصولية، وحرصك على مُنى وانصياعك لها بقايا عبودية ورثتها عن سلالتك، و لم تنفضها عن نفسك رغم كل محاولاتك.

في دمياط إخوتك يبنون البيوت وينجبون الأولاد والبنات، ويصنعون الحياة، وإياك أن تنكر أنهم يصنعون الحياة الحقيقية، وإياك أن تنجرّ إلى ألغاز الشيخ المخرف حول الحقيقة والسراب. هم يعيشون هناك ويملأون الدنيا عيالاً وصخبًا بينما تملأ أنت الزجاجات بالهواء هنا، تتعيش على الكلمات، تبيع وتشتري الأوهام، وتحلم بعرشٍ مستحيل وبمجدٍ لا تعرف حتى إن كان طعمه مستساغًا أم حامضًا مقيتًا. ومازالت سنوات الدراسة في الإسكندرية تطوف بك لتلفك في سحابةٍ من الضباب المعطر. تحججتَ بلقمة العيش لتأتي إلى العاصمة. ألغيتَ حُلمك بالحياة والاستقرار بين يدي البحر، حتى تكون أقرب إلى بؤر الضوء، وتبتعد عن الهامش الخانق والمزدحمين في الظلال المريضة. رغم هيامك الصريح والبسيط بالمدينة السحرية، ونفورك التام من هذه العاصمة المجنونة القبيحة، أتيت لتعمل وتركض هنا وهناك، فماذا كسبت؟ والوحش يضمها الآن، ويقبل نهديها واحدًا بعد الآخر، كأنهما طفلان مولودان من ساعات قليلة، رزقه الله بهما على كَبر. ثدياها الرائعان المكوران. وأنت هنا تكتب، تتوهم أنك تصنع الحياة، بينما مازلت أنت نفسك لا تعرف ما الحياة ولا تدري حتى إن كان شغفك بمُنى يمكن أن يُسمى بالحب أم لا.

أحدث الموضات في الثياب لا تصنع جسدًا رشيقًا ورجوليًّا، وتباطؤك في النطق بالكلام لن يفلح في محو لكنتك الدمياطية الملتصقة بلسانك مثل القراض، وخصوصًا إذا اندمجت في الحديث -كما يحدث كثيرًا في الندوات والسهرات، أو تحت تأثير الشراب- فتنفضح وتلمح الابتسامات الخفية. مارسيل سوف ينتصر في النهاية، نهاية هذه الرواية، كما في نهاية الفيلم على السواء، ولن يموت، بل سيموت الوحش الشرير الذي يرفع الآن ساقيها وهي تموء كالقطة.

إن كان لا يرغب في العودة خائبًا إلى أهله في دمياط، تُجار الخشب وبناة البيوت وصانعي العيال، فالمؤكد أنه يحلم بالعودة إلى الإسكندرية، حيث تعرف على نفسه لأول مرة، بعيدًا عن مظلة الأب وتحدي الأشقاء. هناك قرأ وكتب ودرس ومارس الجنس أيضًا ولو مراتٍ معدودة ذات ذكريات مشوهة. لو امتلك شجاعة أن يولي ظهره لهذه العاصمة القبيحة، التي يتقاتل فيها الناس على كل شيء، من أول مقعد المترو ورغيف الخبز حتى الصفقات والجوائز والمنح، سيتوجه دون تفكير إلى البحر، بحر إسكندرية، حيث وجد نفسه وعرفها لأول مرة، وحيث كتب أحلى قصصه التي مازال يتباهى بها حتى الآن، ويعيد قراءتها في الندوات كثيرًا. كتب تلك القصص قبل أن يأتي إلى القاهرة، قبل أن يترل إلى حلبة الصراع، قبل أن يكتب سيناريوهات قصص الأطفال ويترجم كتب التنمية الذاتية ويجرب حظة في كتابة السيناريو ويحلم بالرواية الأولى. حتى ولو كانت حلبة الصراع تمتد للإسكندرية، لكنه سيعرف كيف يختفي هناك، سوف تعيد له تلك المدينة نفسه مرة أخرى، وربما عليه أن ينهي روايته الأولى هناك، بعيدًا عن مُنى ورجائي

وهذا المثلث المزعج السخيف. مصادفة عجيبة أن تكون روايتـه الأولى هي نفسها رواية الشيخ رجائي، ليس أعجب منها غير تشابه اسميهمـا، صدّق رجائي الصغير هذه العلامات وأحس أنها ذات معنى. لكن ذلك الشيخ الشرير لم يعد يؤمن بأي معنى ويرى في العلامات وكـل هـذه الأشياء قمامة يعاد تدويرها من وقتٍ إلى آخر. سخر الشيخ منـه ذات مرة أمام مُنى وقال إن كتب التنمية الذاتية لحست دماغه، وعليه من باب أولى أن يلجأ للدعاة الجدد إلى إسلام عصري خفيف أفضل من الاعتماد على باعة الأحلام في أمريكا وفي غيرها، وانتقل الحديث إلى باولو كويلو وأكذوبته، وأعرض الصغير عن الجدال ساعتها، ربما لأنـه يعـرف أن كويلو دجّال، ولكن طالما اعتمد الأفاقون على شيء من الحقيقة، هناك جوهر صادق وراء كل تلك الأكاذيب وأسواق التنمية الذاتية وسـاعد نفسك بنفسك واكتشف طاقاتك الخفية. جوهر لا يتوقـف رجـائي الصغير عن التشبث به واكتشافه وتنشيطه بداخله، رغم سخرية الشيخ وعدميته. نعم يا عم رجائي، هناك أمل، بالعند فيك، رغم كل شـيء. وفي الإسكندرية نامَ مع عروسة البحور ذات مرة، واتضح أنها إنسـية وليس لها ذيل سمكة واسمها سماح واسكندرانية. تُرى أين ذهبتْ؟ كانت تحلم بالسفر إلى أوروبا والعيش هناك عيشة حرة لا يسألها فيها أحد عن أي شيء. هل هي الآن في فرنسا أو إسبانيا؟ هـل نجحـت محاولاتهـا وتمكنت من الهرب إلى الشاطيء الآخر، بزواج أو بمنحـة دراسـية أو بمعجزة من السماء؟ أعطته سماح جسدها كأنها تتنازل له عن شـيء لا يخصها، بل عن شيء يثقل كاهلها. أتريده؟ هو لك، كأنها قالت له هذا وقد لاحظت جوع عينيه، في الندوة الأدبية الأسبوعية التي جمعتهما. وما

إن بدأ يردد الكلام الناعم العاطفيّ المنسوج برقة على إيقاع قلبه الصغير حتى ضحكتْ كثيرًا وانفضتْ عنه كأنه ليس شيئًا. سيعرفون جميعًا فيما بعد، سيهتفون باسمك يا مارسيل، ولو بعد موتك. ولنترك الوحش يفترس الجميلة لعلها تفيق من سكرتها ومن أحزان ترملها.

ماذا لو نال شيخنا هذا ما تمنى؟ تأتيه منى الآن في هذه اللحظة، رافعةً الراية البيضا، بعد مدوارات ومرواغات طالت أكثر من اللازم. ماذا لو حدثت هذه المعجزة فاكتشف أنه لم يعد لديه ما يهبه لها؟ لا، لن يسمح أحمد رجائي بمهزلة كهذه، ففي كل المرات السابقة كانت النساء عابرات خفيفات، لم يناقشهن في الكتب والموسيقى والأحلام، ومعنى غشاء البكارة، ولماذا خلقته الطبيعة أو خص الله به الإناث؟ أما منى فعيناها تكشفان كل شيء، حتى دون أن يخلع كل منهما ثيابه أمام صاحبه.

ومع ذلك، فالصغير لا يمكنه المجازفة بكتابة شيء من هذا القبيل. لا بدّ من تقييد هذا الوحش، لا يصح أن يُترك حرًّا طليقًا ليُفسد في الأرض، بزعم أنه لا معنى هناك ولا غاية. لا بد من أن يُسجن وأن يُقتل. سوف يتركه رجائي الصغير في أنفاق المترو، هائمًا تحت الأرض، بين ذراعي كوابيسه، روحًا ضائعة إلى الأبد، ظلاً بين الوجود والعدم، دون أن يتأكد بالمرة إن كان إنسانًا حقًّا مثل كل الناس أم مجرد شخصية في حكاية رخيصة. هذه هي حيلته الوحيدة للتخلص من الآباء المغتصبين للأمهات ومن الوحوش المفترسين للبنات الأرامل.

لو تذكر الشيخُ الحبيس في أنفاقٍ تحت الأرض نشيد قططي سميرة لخرج واستعاد حريته وحياته على الفور. لو كانت لديه أجوبة شافية لما ضاع وحده في مدينة أخرى مخبأة تحت الأرض، مثل سجنٍ مجهز بانتظار نزلائه المحتملين. يضعُ الشيخ نظارته ويتطلع نحو اللافتات من حوله، أين هو؟ لابد أن ينتبه إذا ركب من محطة محمد نجيب، لأن تكرار سلم النزول يخدعه كل مرة، فلا يدري إلا وهو في طريقه إلى محطات الجيزة، بدلاً من أن يعود للبيت في شبرا مصر. يفرك عينيه ليؤكد لنفسه إن هذا ليس كابوسًا آخر من كوابيس المترو، من خدعه هذه المرة؟ الشباب أم الأحلام أم الطموح الساذج بمستقبل وردي؟ حياته وراءه الآن، وها هو يعيش مستقبله الوردي. قططي سميرة، اسمها نميرة..هه.. هه.. سوف يتذكر، سوف يستعيد القطة السوداء ذات الأرواح الألف والأسماء الألف، التي تتلاعب بالفأر الحبيس الآن في متاهة ربما تنتهي بقطعة جبن عند مخرجها. لا، لا، بل قططي صغيرة واسمها نميرة، أكانت سميرة أم نميرة؟ لو تذكر نجا، لو تذكر فاز وخرج من هذه المتاهة وأكل قطعة الجبن. هل هو شخصية حقيقية أم مجرد رسم في لغزٍ بإحدى مجلات الأطفال، يقرأها الآن رجائي الصغير مستمتعًا بحلّ اللغز، وربما إلى جواره مُنى، تتمنى من كل قلبها أن ينجو الفأر ويخرج حتى تلتقطه بمخلبها وترفعه في الهواء وهي تتأمل لعبتها بإعجاب. قططي سميرة واسمها نميرة، هل هذا أقرب الاحتمالات؟ هل كانت سميرة صفتها ونميرة اسمها؟ أم أن ذاكرته تخذله كالعادة؟

لا ملامح للناس من حوله في العربة، الوجوه ممسوحة، ليست سوى صفحات بلون الرماد الميت من كتابٍ واحد مهلهل رث، تتفتت أوراق صفحاته وتتلاشى مادته ومعانيه إذ يقلبها الشيخ بين يديه جالسًا في عربة المترو، فيرفع عينيه عن الصفحات مغامرًا بالنظر حوله إلى وجوه الناس، على أمل أن تَسْقط عليه من سماء الجنة التفاحة مُنى، ليصرخ: وجَدْتُها، قطتي سميرة أو نميرة لا يهم، وجدتها. لا يجد منى، ومع ذلك يشعر بأثر وجودها قريبًا منه للغاية، وكأنها اختفت قبل ثوانٍ من رفْع عينيه. وجد مكانها رجائي الصغير، مرتديًا زيًّا معدنيًّا لامعًا أقرب إلى زي رواد الفضاء ويظهر وجهه غريبًا من وراء زجاجها الشفاف، فيسأله رجائي الشيخ:

من تكون مُنى هذه التي أتمنى أن أراها ولا أراها؟

فيرد الشاب بصوتٍ يخرج كهربائيًّا مثل الأزيز: إنها المرأة التي تخيلناها معًا، وكلما رأيناها بصورة أوضح اقتربتْ هي خطوة من الوجود الحقيقي الحي.

وأنا؟ يسأله الشيخ.

يصدق عليك ما يصدق عليها، كلما تخيلت صورةً واضحة لنفسك اقتربت خطوةً من الوجود. وهذه الرواية طريقة في العلاج، لا أكثر.

ويزعق الشيخ فيه: ولكن من منا سيكون الروائي في هذه الحالة؟

٢١. الروائي نملة تعيش في منديل، تُضيّع حياتها في وصف متاهتها تلك ومحاولة إقناعنا بأن المنديل قصرٌ لا نهائي.

٢٢. الروائي هو من يُحيي ويميت شخصياته، دون أن يكون هو نفسه حيًّا أو ميتًا.

٢٣. الروائي شخص مستعد لأن يقتل نفسه إذا تطلبت ذلك الضرورة الدرامية للأحداث.

٢٤. الروائي من لا يؤمن بأي ضرورة درامية، بما أنه صانعها ومدبرها.

٢٥. الروائي من لا وجه له، يكتفي بالأقنعة المؤقتة، يَصْدق هذا على شخصياته وعلى أساليبه كلها.

قلبَ الصغير الكراتين وحقائب الملفات القديمة حتى عثرَ عليها. تذكر فجأة وهو بين النوم واليقظة تلك القصة الطويلة التي كتبها، دون أن يكملها، منذ فترة طويلة بوحي استغراقه في عوالم بورخيس. تذكرها فجأة وهو يستعيد ما يجري بينه وبين الشيخ رجائي من جدل وخلاف حول طبيعة روايتهما، وضرورة موت عم أحمد في النهاية. كان قد وضع خطوطها العامة، وكتب بضع صفحات منها، ثم وضعها جانبًا حين لم يعرف هل ستكون مشروع رواية أو مشروع فيلم أم مجرد مشروع وحسب.

كتبها رجائي الشاب تحت التأثير المُدوخ لكتابات الأرجنتيني بورخيس، المعلم الأمهر في كتابة القطع السردية الصغيرة، حيث يمكن لصفحة واحدة بقلمه أن تمزأ بآلاف الروايات المطولة، لأنها تكتنزها كلها بداخلها، وزيادة، حيث يتكثف لغز وجودنا الإنساني ويتقطر صافيًا وحارقًا. العالم في منديل، وهم الشاعر ومن بعده الروائي، شابًّا كان أم شيخًا.

في تُحفة نثرية صغيرة عمدها اللاعب الأمهر بعنوان الآخر، يلتقي

بورخيس العجوز ببورخيس الشاب على ضفة نهر يوجد في زمانين مختلفين ومكانين منفصلين، في اللحظة نفسها، أو للدقة على نقطة غامضة من محيط الزمن السيّال. أما مشروع رجائي الصغير، الذي ربما كان يمكن أن ينتهي إلى عمل درامي للإذاعة أو التليفزيون، فهو أكثر تواضعًا، ولو قُدّر له أن يكتبه للنهاية لحكى فيه عن ناقدٍ عجوز ومبدع شاب، ليسا هما الشخص نفسه، رغم التوازي بينهما.

الناقد في الدراما المأمولة يعيش حياتين، حياة نهارية علنية، وفيها يلقي المحاضرات بالجامعة وأماكن أخرى، يسطر المقالات والدراسات، ويتابع —قدر المستطاع— الإصدارات الأدبية الجديدة، وربما تحدّث عن بعضٍ منها أحيانًا أمام جمهور محدود العدد في إحدى الندوات. الناقد، وراء قناع النهار، يرعى أسرته الصغيرة مثل أي راعٍ صالح، ويتجاهل المرايا، التي يخلد إليها ليلاً، ليتأمل قناعه الآخر، السري، حيث يعتزل العالم مع الموسيقى، والكتب والدفاتر والأقلام. حين ذلك ينغمسُ في محاولاته الأدبية التي تتنوع ما بين الشعر والقصة والمخططات الروائية التي تتوقف دائمًا عند لحظةٍ بعينها دون أن يتمكن ولو مرة من الوصول إلى سطرها الأخير. ودون أن يكشف لأحد عن سره، كان يختلسُ مُتع الكتابة متخفيًا ومرتعشًا بلذةٍ آثمة. يكتب دون محاولة للنشر، حتى في أيام الشباب والرعونة، يكتب عن أشخاصٍ يشبهونه ولا يشبهونه مع ذلك، يرسم بالكلمات بورتريهات لشخصيات مرّتْ بحياته أو قابلها خلال نهاره، أو ينغمس في تخطيط حبكات روائية بالغة الدقة والصرامة لروايات لن ترى النور بالمرة، ومن المشكوك فيه أن تصل لكلمة نهايتها أيضًا، وساعات يُسلم نفسه لعبير الذكريات فيرجع الشيخ لطفولته

وصباه، ليسجلها بسرعة وهمة، قبل أن تتبدد إلى الأبد في دوامات الزوال الذي ينتظر الوجود الإنساني الهش. لم يُطلع أحدًا على أي شيء، وكتم سره وكأنه غير موجود أصلاً، ولم يُخرج من ظلمة أدراجه شيئًا من كتاباته، ولو كانت قصاصة صغيرة دَوّن بها عبارة انتزعها من ضباب أحلامه، مثل: امنحيني وجهي يا مرآتي القديمة.

انتهى الفصل الأول، في عقل رجائي الصغير على الأقل، وتعرفنا على الناقد الشيخ بقناعيه النهاريّ والليليّ، وربما نشير في هذا السياق إلى جانوس ذي الوجهين الذي ينظر كل منهما باتجاهٍ مختلف، أحدهما إلى الماضي والآخر إلى المستقبل. إله الممرات والأبواب، الفاصلة والواصلة مثل مرآةٍ في حلم. ثم تتوالى الأحداث، يحدث أن يتم اختيار ناقدنا المبجل ليكون من بين أعضاء لجنة التحكيم، في مسابقة أدبية حكومية، متوسطة القيمة، اعتاد أن يقبل العمل بها، فقط ليجد ما يشغله خلال إجازة الصيف، بصرف النظر عن المكافأة المالية المتواضعة للمُحكمين، وربما لكي يبقى مُطلعًا على بعض ما يكتبه الشباب، في إطار عمل مفيد ومنظم، هذا برغم إعلانه ضيقه الشخصي من منطق التسابق الذي لا محل له في الأدب، وإن جازت المقارنة والمفاضلة، بناءً على الذائقة لا القواعد.

نتابعُ الناقد وهو يستعد للسفر إلى الإسكندرية، حيث الشاليه الصغير بالعجمي. ونراه لاعبًا ضاحكًا مع زوجته وابنتيه المراهقتين، ثم وهو يُسلي نفسه بتصفح واحدة أو اثنتين، من صندوق المجموعات القصصية الذي حمله معه من القاهرة، مستبعدًا عن باله هواجس مُربكة، من قبيل أنه يتحكم الآن بمصائر مجموعة من شباب الكُتّاب. فمهما تكن

المسابقة متواضعة القيمة، مازال بوسعها أن تفتحَ أمام واحدٍ من هـؤلاء المغمورين الباب نحو المجد الأدبي، نحو الشهرة وأضوائها الشرسة التي تفضح أدق العيوب، أو كما قال بورخيس.

تمضي الساعات بوتيرةٍ رتيبة، فيتجاوزُ عنها مشروع رجائي المزمع ويقلبها في صفحتين أو ثلاث، يتتبع خلالها، على عجلٍ، مخاوف ناقدنا السرية من الضوء والمرايا والانكشاف، ونتقصى حُلمًا أو اثنين من أحلام لياليه في العجمي. إلى أن يقع على مجموعة قصصية بعنوان "رجوع الشيخ"، ويُلفت العنوان نظره، بل ويبعث بقشعريرةٍ غامضةٍ في بدنه، فيشعر أنه سبق له أن عاش تلك اللحظة من قبل، وأنه ليس في العجمي، بل في شقة أهله القديمة بحي الظاهر، يخطّ أولى قصصه السرية التي لن يقرأها لمخلوق على وجه الأرض، وسرعان ما ينفُض عنه ذلك الإحساس ويعزوه لتعرضه للشمس القوية ومياه البحر. بالطبع يحُيل العنوان للكتاب التراثي المحظور: رجوع الشيخ إلى صباه، في القوة على الباه، الذي طالما قضى معه ناقدنا أطيب الأوقات، في قبوه السري بالغرفة المغلقة على لذّاته ومتعه الفكرية الخالصة. ولكن القشعريرة والدُوار الخفيف نبعا من أمرٍ آخر، فقد سبق له أن خطط لرواية بالعنوان نفسه، من بين مخططاته ومشاريعه العديدة التي لم تتم، لسببٍ أو لآخر، وإن كتب منها القدر الكبير.

بعد لحظاتٍ من الارتباك والتشوش، أقبل متلهفًا على تصفح المجموعة عشوائيًّا، وقلبه تتسارع نبضاته، بعد نظرةٍ سريعة على اسم كاتبها، الذي لم يسبق له أن سمع به كما هو متوقع تمامًا. وداهمته المفاجآت الخارقة، حيث يجد أمامه أعماله السرية بنفسها، بتعديلات

طفيفة، تزداد هنا وتكاد تختفي هناك، بحيث تتناسب النصوص بطريقة ما مع مجموعة قصصية، لشابٍ من شبان الألفية الثالثة.

مثلاً مشروع روايته الصغيرة، والتي كتب فيها سبعين صفحة فلوسكاب، والمستلهمة عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام، تحولت هنا إلى قصة طويلة نسبيًّا، بعنوان "هيتَ لك"، وهو العنوان الذي صرفه ناقدنا عن ذهنه من قبل، وارتاح فيما بعد لعنوان "قمر كنعان".

ثم القصة التي أعطت المجموعة عنوانها، وتصف مشهدًا واحدًا، يتكرر مرةً بعد أخرى، وفي كل تكرار تظهر بعض العناصر الجديدة وتختفي عناصر أخرى، بنوع من اللعب الموسيقى الارتجالي الحر، وتدور حول مترجم تجاوز منتصف العمر، مثقف وكان يظن نفسه شاعرًا، ويكاد يكون مدمنًا للحشيش، والمشهد المتكرر يصور عودته من سهرة التحشيش اليومية، بصيدلية يمتلكها أحد رفاق الصبا. مرارًا وتكرارًا يعود الشيخ، في مرة شابًّا، وفي مرات كهلاً أو شيخًا عجوزًا، وكل مرة يُحدّث نفسه بأسئلةٍ وهواجس تتلاقى وتتنافر، تتكرر بصيغ مختلفة، لكنها تعزف اللحن نفسه. القصة نفسها، مع تعديلات طفيفة من حيث الأسلوب واختيار المفردات كتبها الناقد من زمنٍ طويل، ثم قرر صلاحيتها لأن تمتد فتكون مشروعًا روائيًّا، مع إمكانية النبش في حياة هذا الشيخ وصولا إلى مولده وأصوله، وحكايات شبابه وكهولته، مع النساء وأكل العيش. وكان عنوان النصين هذه المرة متطابقًا تمامًا: رجوع الشيخ.

ثم هناك حكاية صغيرة وبسيطة، وهي ما قصمت ظهر ناقدنا، عن مراهق مدمن لقراءة الروايات، يضل سبيله في منطقة دير الملاك، بحثًا عن

المكتبة العامة التي يتردد عليها من وقتٍ لآخر، فيلتقي في ضياعه وسط الأزقة المتشابهة كأنها بيت جحا، بامرأةٍ حلوة في منتصف العمر، وكأنها كانت تنتظره على عتبة بيتها، فيدخل معها منوَّمًا حيث يفقد عذريته على فراشها الوثير العالي.

كاد ناقدنا يفقد عقله، لأنه هو من فقدَ عذريته بهذه الطريقة نفسها، وكانت هذه من أعز صفحات ذكرياته التي حولها إلى قطعةٍ سردية ناعمة ورائقة، شوّهها الشابُ الأخرق بإلحاح جنسي ينمُ عن كبتٍ مُخزٍ. ألم يغلق على أسراره الخاصة وكتاباته المجهولة ألف باب وألف خزانة، فأي شيطانٍ اطلع عليها وأملاها كلمةً بعد كلمة على ذلك الولد المجهول؟

وتتوقف حبكة مشروع رجائي الصغير عند هذا الحد، وحاول بشتى الطرق والكباري أن يواصل وأن يدفع الأحداث دفعًا في أي اتجاهٍ ممكن دون جدوى. راح يتخيل الناقد؛ اضطراب قلبه وزوغان بصره، وسؤال زوجته الطيبة إن كان متعبًا أو مريضًا.

ذهبت كل محاولات أحمد رجائي بلا جدوى، وكما يقولون أعيته الحيلة، تحير فيما يمكنه عمله بهذا الناقد واكتشافه الصاعق، وكيف يتجنب في الوقت نفسه السقوط في بئر بورخيس وقصته الشهيرة المذهلة. فكر أن يجعل ناقده يستقل سيارته مثل المجنون، عائدًا بها إلى العاصمة، ومن فرط توتره تنفلت منه عجلةُ القيادة، تحت ستارٍ من أمطار صيفية مفاجئة، وأمام شاحنةٍ ضخمةٍ بالتأكيد تنقلب به السيارة على الصحراوي، فلا يموت ولكنه يفقد الذاكرة فقط، وعند خروجه يهيم مع أوراقه محاولاً إعادة اكتشاف الإنسان الذي يُفترض به أنه هو،

جاهلاً أن بالخارج شابًّا صغيرًا يصعدُ نجمه، على السلم نفسه لهذه الكتابات والأوراق.

أعرضَ رجائي الصغير عن خط فقدان الذاكرة المبتذل والمكرور، وأبقى ناقده بكل خير حتى وصلَ بسلامة الله إلى شقته الفاخرة في حي مدينة نصر. وراح يتلصصُ عليه وهو يفتحُ البابَ بعد الباب، ثم وهو يُفرغُ أدراجه الخاصة من محتوياها، مستخرجًا أوراقه التي لا يلمسها أحدٌ غيره، ثم وهو يتأكد بتمهلٍ وعذاب أن المجموعة القصصية الرهيبة لكاتبها النكرة، ليست سوى انعكاس مشوّه في مرآةٍ مكسرة لكل كتاباته وأعماله المخبئة مثل كنوز الملك سليمان. ومن ثم يمنحُ الكاتب الشاب الجائزة الأولى، ليس فقط إعجابًا بموهبته التي هي في نهاية الأمر نسخة أخرى عن موهبة ناقدنا المجهولة، فمن منا لن يعطي نفسه عشرة على عشرة في امتحان الإبداع الأدبي، الذي تعوزه المعايير الصارمة، كما أصرّ على ذلك ناقدنا من قبل، ولكنه يمنحه الجائزة لسبب بسيط، وهو أن يراه ويتعرف عليه، ويطرحُ عليه الأسئلة التي تطن في رأسه بلا توقف منذ أن أمسك بين يديه بتلك المجموعة اللعينة.

ينال مُبدعنا الشاب الجائزة الأولى، ولا يظهر له أي ظل، لا في الجهة الحكومية المنظمة للجائزة ولا في الحفل، ولا بعد ذلك بشهور، بينما ناقدنا يتقلبُ على نارٍ هادئة، أو هكذا تبدأ؛ هادئة ثم ما تلبث أن يُسمع لها شهيقٌ وهي تفور، فيعود للتدخين بعد النصر التاريخي الذي أحرزه في الإقلاع من سنوات، وبدلاً من أن يقرأ أو يكتب في غرفته المحصنة ضد رياح العالم الخارجي، كان يتصفح المواقع الإباحية ويهلك نفسه بعشرات النوبات من العشرات، وأوشك المسكين على الضياع وهو يتجول شارد اللب في حي

الظاهر، حيث تمت إزالة البيت الذي وُلد وكبر فيه ذات يوم، ثم في دير الملاك حيث تحولت المكتبة إلى عمارة في طابقها الأرضي سوبرماركت هائل. حتى أوشك رجائي الصغير أن يصنع منه مجذوبًا من مجاذيب الحسين أو السيدة، فتوقف مشفقًا عليه وعلى نفسه من سكة مسدودة لن تؤدي بهما إلى شيء.

غير أن ناقدنا لا يستسلم مغلول اليدين لهذا الموقف، وقد بدأت تفترسه أحط وأسخف الشكوك، تجاه ابنتيه المتدينتين المهذبيتن، بل وتجاه زوجته نفسها، السيدة الفاضلة وطبيبة النسا والتوليد. يخرج أخيرًا من متاهة وحدته ويقرر البحث عن ذلك الكاتب الشاب، وقد يئس الموظفون في المؤسسة الثقافية من ظهوره، أو ظهور أحد من طرفه، ليتسلم الشيك والدرع الذي بدأ يصدأ. يطّلع الناقد الكبير بنفسه على الاستمارة التي ملأها الشاب وهو يُقدم أعماله إلى موظفي المؤسسة، ويكتشف أن عنوانه المسجل بالبطاقة في إحدى قرى الدلتا، وأن رقم الهاتف الأرضي يعود إلى لوكاندة حقيرة بشارع كلوت بيك، فيهرع مثل السهم إلى هناك، حيث يُقال له إن من يسأل عنه مسجونٌ على ذمة قضية قتل، وقعت أحداثها في إحدى الغرف، والاحتمال الأكبر أنه سيحكم عليه بالإعدام لثبوت كل الأدلة عليه، فضلا عن اعترافه بالجريمة.

ثم يجدّ الرجل الكبير الضائع في طلب الزيارة، ويلجأ لوساطةِ بعضِ الكبار حتى تُتاح له فرصة رؤية قرينه الشاب. ولا يدري ناقدنا لماذا حين كان يتم تفتيشه على بوابة السجن أحسّ أنه لن يُكتب له الخروج من هذا السجن أبدًا. وانتقلتْ كلمة زائر المطبوعة بختمٍ أزرق من يد إلى يدٍ أخرى لدى المصافحة. أيقنَ المبدعُ الشاب أنه نجح أخيرًا، وأنه لن يموت

مشنوقًا، وما هي إلا دقائق معدودة ويتنفس هواءَ الحرية العذب، بينما كان يترك خلفه زائره الأول والأخير.

يرجع الشيخُ من سهرته اليومية، محدّثًا ظله في عقله: أراكَ الآن يا ظلي، فمعنى هذا أن المخدر قد بدأ يتراجع، وكل ليلة يتراجعُ أسرع من الليلة السابقة. ومنذ سنين كانت تكفيك سيجارةٌ واحدة لتنبسط وتملك الدنيا، ومع الأيام يزداد عطشك للماء المالح. ليت المخدرات تلغي العقل. أراك يا ظلي وينسحب ضباب الدخان، ومن العدم يولد طرف إصبع، ثم يكتمل إصبعا ليشير باتجاه منديل الساحر، ينفضه فتولد من المنديل الكائنات والشوارع وهذه المرأة وروميو ورفاقه وعبد العزيز الذي صار أبًا الآن، وكل مخلوقات الله التي لا يعرف أحد سر وجودها هنا بهذه الكيفية. أراك ولا أدري من منا يتحدث الآن ومن منا يستمع، من منا يدخن سيجارة ومن يلعق تراب الأرض متظاهرًا بالخنوع.

ويقولون المخدرات تلحس العقل، فليتها تفعل. نقول غياب العقل ولا نقصد إلا غياب الهمّ والغمّ وخراء الأيام المتراكم من أول وجود الإنسان على الأرض. في ضباب الانسطال فقط تبدو كل تلك الأشياء أشباحًا مضحكة وخفيفة، بعيدة وهشة مثل سحابة في لوحة على جدار. أسئلة الإنسان وهموم الواحد، من أول وجود الله وحتى إيجار السكن، كلها تنكمش على نفسها وتصير كرات ملونة، تتقافز بنشاط وخفة دم. مجرد نفخة هواء أخيرة كفيلة بأن تمحو كل ذلك من أمام وجه الواحد، ويتلاشى العالم كأن لم يكن، تتلاشى تلك المرأة وهذا الشارع الطويل بلا داعٍ وروميو الجميل أو مشوّه الوجه، حسب تاريخ اليوم، وعبد

العزيز ثقيل الجفنين مثلي، ويعود المنديل مطويًا على نفسه، قبل أن يختفي في اليد التي تتآكل بدورها إلى إصبع فأنملة فلاشيء.

يخاطب ظله أو عقله صامتًا قائلاً: اسمع يا عقلي واحفظ، اسمع هذا الكلام وانتبه إليه واحفظه لو تستطيع في صدرك حتى لا يضيع هو أيضًا، ويتبدد مع تبدد الدخان، يكفينا ما ضاع؟ ألا يكفي ما ضاع حقًّا؟ وكأنك يا أحمد في مسابقة مع ظلك، أيكما سوف يبدد أكثر؟ بل كفانا ما ضاع، فاحفظ هذا الكلام في صدرك جيدًا لعلنا ندونه بمجرد الوصول للبيت، حين يحاصرنا الصمت والصحفات البيضاء، والشباب الذي ينتظر منك شيئًا جديرًا بسنك وبتجربتك وخبرتك. وعايزنا نرجع زي زمان، قول للزمان إرجع يا زمان. سأكتب هذا كله ما إن أصل للبيت، لا بد أن نفعل يا ظلي حتى نوهم النفس أننا نتقدم في عملٍ ما، ولو كان حكاية بلا ملامح ولا قوام ممسوك، ستكون حكاية على الموضة إذن، تروق للصغير ومُنى. حكاية مفككة الأوصال، مثل هذا العجوز المضعضع.

لحظات قصيرة هي كل شيء. رغم الاعتياد، ورغم أن الجسد تكيف مع هذا الكيف حتى صار من الصعب تكييفه إلا بشق الأنفس، فإنه مازالت هناك تلك اللحظات القصيرة الخاطفة التي تتماهى فيها الحدود وتنجاب الأحجبة، ويبتسم خلالها لوجه أبيه حين يراه ملوحًا له من رواقٍ واسع في مسجد كأنه مبني من أوراق النباتات والزهور. لحظات خاطفة لا يريد فيها شيئًا ولا أحدًا، هي كل شيء، والليالي التي تنعم عليه بمثل تلك اللحظات صارت تقلّ، لكنها لم تنعدم ولله الحمد. خلال تلك اللحظات يصير أحمد هو رجائي، والاثنان واحدًا على حدّ

المرآة أو على باب المتاهة، بصراحة تنمحي حدود المرآة وتنفتح المتاهة مثل برتقالة يتم تقشيرها وتفصيصها. الصورة هي نفسها أصلها بلا فاصلة أو واصلة أو نقطة أو واو عطف. يجد أحمد نفسه، أي يجد أحمد صورته الثابتة، ودائمة التغير كل لحظة مع ذلك، ولا يحزنه عندئذٍ تغيرها الأبدي، بهذا الإيقاع السريع، إذ يمكنه أن يسترق النظر من ورائها نحو وجهه الأصلي، الذي لا يناله تبدّل ولا تغيّر، ويرنو نحو وجه أبيه بينما يتلو الآية الكريمة: "ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تُولّوا فثم وجه الله إن الله واسعٌ عليم" فيردد بعضهم: صدق الله العظيم.

في مرةٍ من المرات الأولى لتعاطيه الحشيش انتابته حالةٌ من الذعر الشديد، وأحسَّ بالاختناق، وتسارعت ضربات قلبه، وأيقن أنه ميتٌ بلا ريب. طلب من رفاق السوء أن يتركوه وحده، ذهب صاحبُ البيت منهم ليعد له قهوةً بالليمون، وغادر الآخرون، وتركوه وحيدًا. كان يخشى من الموت، ولا يعرف لماذا يخشاه. ربما كان يخشى الألم، ألمَ انتزاع الروح من البدن، أو كان يخشى المجهول، مجهولَ ما بعد الألم الكبير الأخير. وما إن لمح مرآةً معلقة على الحائط حتى نهض واتجه ناحيتها، وهو يحرك جسده كمن يحرك دمية بخيوطٍ من عجين، بصعوبةٍ شديدة ومن بعيد. أمسك بالمرآة وعاد ليرتمي على الفراش كما كان. راح ينظرُ إليها، وأدرك أنه لم يكن يخشى المجهول ولا الألم بقدر ما يخشى مفارقة أحمد، يخشى ضياع وجهه الوحيد الذي يعرفه. راح يتأمل هذا الوجه، والوجهُ من الناحية الأخرى للمرآة يتأمله بالقدر نفسه من الشغف والفضول. يكتشف النمرُ ذاته، بعد أن كان يظنّ أنه واحدٌ من الماعز. أُكتبي يا متاهة مشهد موتك، أعلني عن باب الخروج. والوجه في

المرآة لا يلبث أن يتغير كل ثانية، وجهُ طفلٍ جميل يتحـــول ســـريعًا إلى وجه مراهقٍ أجمل وأقوى، ثم مَن هذا الشاب الحـــائر؟ وهـــذا الكهـــل المتوحد؟ هذا الصياد العجوز، حبيس القفص الأخير؟ الوجه يتغير وأحمد يتأمله لسنوات، لدهور، يرى نفسه كل شيء وكل إنسان. يرى نفســـه بدائيًّا يسنّ حجرًا ويستأنس النار، يرى نفسه عبدًا مقيّدًا في صـــفوف طويلة لا تنتهي من العبيد، مأخوذين إلى الحروب والسخرة من ديارٍ إلى ديار. يرى نفسه كاتبًا فرعونيًّا ممتلئ الجسم، وأميرة من الهنـــود الحمـــر تفسر الأحلام وتكتب الأحجبة والتعاويذ. يرى نفسه قبل ذلك فراشة، وكانت الفراشة تعرف أنها سوف تصير ذات يومٍ بعيدٍ أحمـــد، وتحلـــم بوجهه وترسمه في مخيلتها الهشة. يرى نفسه حجرًا نحته إنســـانٌ فصـــار إنسانًا آخر. يرى نفسه الرسالة والرسول والمرسل إليه. وحـــين يعـــود صاحبه بالقهوة يكون أحمد قد رضي أن يموت، شريطة أن يظل وجهه يتجدد هكذا بلا نهاية. أضغاثُ أحلام.

يتساءلُ الآن، وقد بدا باب البيت القديم مثل مرفأ مألوف للبحّار اليومي: لو أن الشاب هو ظل الشيخ، ولو أن الأنثى هي ظل الرجـــل، فهل ظلي سيكون في هذه الحكاية هو رجائي الصغير أم القطة السمراء مُنى؟ ولو جمعنا الصغير ومنى في واحدٍ فأي مسخ سيكونان معًـــا؟ لـــو كتبتها للنهاية لجعلت منهما هذا المخلوق الغريب، لا هو أنثى ولا هـــو ذكر، يؤمن بكل الخزعبلات الموجودة بداخلهما، الأنثى فيه تؤمن أنهـــا شؤم ولعنة موت مرصودة لكل من يقترب منها أو يحبها، والذكر فيـــه يؤمن بالعمل والكفاح والسعي وراء الأســـطورة الذاتيـــة. مســـاكين، مسكينان، مسكين واحد يتكرر بلا توقف. ما جدوى إضفاء المعنى؟ ما

جدوى محاولة ذلك حتى طالما أن كل هذا مجرد مسكنات للمساكين؟ المعنى على قضيبي، هو وخرافات الحب والعمل والكفاح والأسطورة الذاتية أيضًا على قضيبي. فليكتبها الصغير ما دام مؤمنًا، ولتساعده الأرملة الطروب، مادامت تريد أن تخرج من سجن حدادها. وليصنعا من حياتي وجبة مفيدة ومغذية للقراء، بدلا من أن تكون ما هي عليه حقًا: ثمرة مسمومة.

يظهر رجائي الصغير تحت دائرة الضوء مرتديًا زيّ مهرج الملك. يردد بنبرة فخيمة: كل منا، نحن الثلاثة، منشغل بتدوين روايته الخاصة، وكذلك أنتم كلكم. كل واحد من البشر يكتب حكايته، ليل نهار، قاصدًا أم لم يقصد، واعيًا أم غافلاً، يكتبها بنفسه وبجسده وبالآخرين ممن حوله أيضًا، يكتبها بكلامه وأفعاله، بأفكاره ونواياه، لا شيء يضيع من ذلك الكتاب الداخلي، حتى ما يتلاشى من بين أيدينا في نوبات الشرود أو يطويه النسيان، يبقى هناك مسجلاً ومدونًا، بالداخل.

تنتقل دائرة الضوء إلى رجائي الشيخ في ثياب الملك لير، جالسًا على مقعد فخم كأنه عرش، وتظله شجرة عارية الفروع، يتحدث بنبرة ضجر وقرف وزهق، قائلاً: كلام المهرج الحكيم يعني أن هناك كتبًا عديدة، لا أول لها ولا آخر، بعدد جميع البشر الذين مروا بهذه الدنيا، مجرد تخيل كل البشر الذين مروا في الدنيا سوف يجلب لكم الدوار، تخيلوا فقط كل الجثث التي أكلتها الأرض منذ وجود البشر، ولن أتحدث عن الحيوانات والطيور. كل تلك الكتب غير أصلية ولا حقيقية، ولا واحد منها هو الحكاية الأكيدة، لا وجود لحكاية أكيدة، وبالتالي يبقى

المعنى فرديًا وخاصًا، وبالتالي يبقى مجرد رأي، انطباع شخصي ناتج عن وجودنا الشبحي وعقولنا القاصرة وكل أمراض الهوى وضلالات النفس وتشوهات البصيرة. المعنى كذبة الإنسان، ليبقى محترمًا في عين نفسه.

تدخل مُنى في ملابس كورديليا، لكنها سوداء أيضًا: لا يهمني هذا كله، لا يهمني إن كان كتابًا واحدًا أم كتبًا بلا حصر، لا يهمني إن كنت سألعب دور البطولة أم دورًا ثانويًا، لا يهمني أن يحبني قراء الحكاية أو يحتقروني أو ينسوني. ما يهمني فقط أن يكون لحكايتي الخاصة معنى أحبه وأريده وأرضى به، أما أن تكون بلا معنى فالعدم خيرٌ وأبقى، ولا إيه؟

يقول الشيخ بحماس لها: احذري يا كورديليا، فقد يكون معناها هزيلاً وسخيفًا، مثل ذلك الذي يجرنا إليه هذا المهرج.

يعترض الصغير: أليس وجوده أفضل من ملايين المعاني المشكوك فيها وغير راسخة الأساس؟

يفكر عم أحمد، بينه وبين نفسه أمام باب شقته: والله إنت اللي ملعوب ف أساسك!

حكمت المحكمة، انفضّ المولد، ثم خرج الطالب أحمد رجائي مع من خرجوا من المعتقلات، بعد أن تعلم الجميع الدرس، فلا الحكومة ستفكر في المساس مباشرةً بلقمة العيش، ولا الشعب سيخرج من قمقمه مادام يجد لقمة العيش، وتم الاتفاق، وظل أصدقاء أحمد ينظّرون لسنوات، لكنه لم يعد بينهم. خرج وهو لا يشعر بشيء، لا فرحة ولا

غضب، لا نقمة ولا غفران ولا طمأنينة ولا غثيان. لا شيء. سمعَ من أمه وأخواته أن له ولدًا اسمه عبد الحليم، جميل ويشبهه، وعرف أنهم يتوقعون منه الخروج بالمعروف، فشكرَ لهم أنهم لم يضطروه للطلاق وهو سجين، إبقاء على آخر خيط من المودة بين أسرة أبيه وعمته. وطلّق، بعد نظرة سريعة على لفافة فيها طفل نائم، لم ينتبه جيدًا لملامحه.

لا أمل ولا يأس، لا خجل ولا تباهي، لا شيء. صحيح، أتاحت له تجربة السجن شيئًا مما كان يقرأ عنه في بعض الروايات الأجنبية، من دستوفسكي إلى سارتر يتوه العقل ويحلم الواحد بالمسؤولية عن الكون كله. لكنه مع ذلك لم يشعر، طوال حبسته، ولو للحظة واحدة أنه بطل أو ضحية أو فارس أو مناضل، بل شعر أنه هنا حقير ومهان، وأنه ليس في سجن الإنسان أي شرف، مهما تكن قضيته، ومهما يكن مؤمنًا بقضيته تلك. كل ما ترسب بداخله هو المهانة والذل والانحطاط، حتى حين يكون بين الآخرين من الرفاق والزملاء، الذين لم يشعر أبدًا أنهم رفاقه أو زملاؤه، حتى في محاولاته اليائسة الأولى للهرب من شرنقته إليهم، إلى سهرات النقاش والسمر والأشعار والرسوم، والجامعة السياسية الكبيرة المفتوحة ليل نهار داخل الزنازين، ومعارك الاستقطاب والتخوين، سواء بين التيارات المختلفة أو في قلب التيار الواحد. تعبَ أحمد، كره نفسه وجسده للمرة الأولى في حياته، إذ أدرك أن كلاً منا لا يمكن أن يكون حرًا مادام أسير هذا الجسد، هذه الكتلة السقيمة من العضلات والأعصاب، والتي من السهل للغاية وضعها في قفص، ليتذكر الإنسان بضربة مُحكمة أنه حيوان. نفرَ من الحيوانات الأخرى التي راحت تتجاهل هذه الحقيقة، وتتبختر في السجن كأن فوق رؤوسهم

هالات من النور دليل القداسة، ويضحكون ويمرحون ويبشرون بفجر قريب يعيد للإنسانية كلها كرامتها. كم كرههم. غير أنه نجح في إخفاء نفوره وكراهيته، ليس خوفًا من أن يُنبذ فهذا كان مطمحًا له، ولكن لأنه رآهم في نهاية الأمر مثله تمامًا مخلوقات تتعيش على الكلمات، الفرق الوحيد أن إيمانهم أقوى، وهو مستعد للتخلي عن أي إيمان مقابل أن يجد نفسه، أن يجد فراشه، أن يجد شارع منية السيرج تحت قدميه من جديد. أقسم أن يمزق القصائد القليلة التي خطّها بين أطياف الحشيش ما أن يخرج من السجن، لكنه حين خرج لم يهتم حتى أن يبحث عنها بين أوراقه.

لا طموح ولا ندم، لا خطط ولا ذكريات. لا شيء. ليت المهانة اقتصرت على الجوع و العطش أو الضرب والسب، رغم وفرة هذا كله، فبالنسبة إلى أحمد كانت المهانة الحقيقية تتمثل في اضطراره للانكشاف، أنه هناك دائمًا متاح للجميع، مرئي ومسموع ومكشوف، تحت الأعين والآذان والأيدي، مكشوف لزملائه المساجين قبل السجانين، لا فرصة في الهرب أو الاختباء أو الانفراد بالنفس، ودون لحظة خصوصية واحدة حتى عند قضاء الحاجة أو الاستمناء. ما نشأ في صدره من فزع أمام هذا الانكشاف جعله يحلم وكأنه مراهق بطاقية الإخفاء، أن يختفي من الوجود دون أن يموت، وأضمر أن يبذل في سبيل هذا الاختفاء كل جهد ما أن يتاح له ذلك. لا يريد شيئًا، لا شيء، يريد أن يتركوه لحاله وحسب، تغيرت الدنيا أم لم تتغير لا يهمه هذا بالمرة. يريد مساحته الخاصة دون أن ينكشف على أحد، وليتابع العالم انهياره إلى الهاوية على بركة الله.

في التحقيقات قال كل ما لديه ببساطة ودون أي شعور بالذنب. كان على ثقة بأن ما يعرفونه عنه أو عن زملائه أكثر مما لديه، بما أنه لم يتورط بالمرة في العالم الخفي والسري للعمل السياسي. ولم ينجه صدقه من الضرب والتعذيب مع هذا. لكنه رفض أن يكون مرشدًا على بقية الزملاء في السجن، وبقي يسأل نفسه لماذا قدموا له هو بالذات هذا العرض؟ هل لمسوا فيه ضعفًا خاصًّا كان أوضح من اللازم؟ أم أنهم يقدمون العرض نفسه للجميع لعلّ وعسى؟ وخشى أن يُطلع زملاءه في السجن على هذه النقطة، حتى لا يفتح أمامهم بابًا للشك لن يُغلق أبدًا حتى لو خرجوا جميعًا في القريب. وثارت الشكوك حوله رغم حيطته، استطاع أن يلمحها في نظرات أو كلمات موحية وأسئلة لها معانٍ خفية، ربما لأن انتماءه السياسيّ ظلّ ملتبسًا وغير محدد بما فيه الكفاية بالنسبة إلى جميع المنتمين من الطلاب والمثقفين والعمال، فهو في نهاية الأمر ليس واحدًا من الغوغاء الذين خرجوا عفويًّا للاعتراض –سلميًا أو مع التخريب– على رفع الأسعار. وبالتالي، فماذا يكون؟ لا إجابة لديه، ولن تكون لديه أبدًا إجابة. لو يعرف الإجابة لما كره نفسه في السجن وتمنى الموت وراودته فكرة الانتحار بجدية، ولما اشتاق لغرفته ولكتبه في بيت أبيه، وكلما تذكر أمه وأخواته اختنق بالدموع دون أن يسمح لنفسه بالبكاء حتى والجميع نيام. كابوس؟ لا شيء. انقضى؟ أبدًا.

سوف يجاهد هذا الطالب الخارج لتوه من المعتقل لسنوات طويلة تالية أن يختفي عن الأعين، ليس فقط أعين الزملاء القدامى ورفاق السجن، بل عن أعين الجميع، وسينجح في نهاية الأمر أن يتلاشى في الهواء، إلى أن يستيقظ ذات يوم غير متأكد إن كان شخصًا حقيقيًّا أم

مجرد شخصية في كتاب. سيكون وديعًا ومُستأنسًا، ليتركه الجميع في حاله. سوف يفلح كذلك في إنهاء سنواته الجامعية بسرعة، وكأنه يهرب من هذا العالم، من عالم الحشود والزحام والحركات الطلابية. لن يتفوق ولكنه سيأخذ الشهادة، وسوف يقبل بالعمل مدرسًا للغة الإنجليزية في إحدى المدارس، بعد سعيٍ من طرف أبيه الذي أوشك على الخروج من الخدمة مفتشًا للغة العربية، من شابه أباه فما ظلم! لكنه يكتشف أن لكل شيء حدًّا، حتى عدم اكتراثه ولامبالاته. اكتشف أن الموت أبسط وأجمل كثيرًا من البقاء، وسط صفوف هذه المسوخ الصغيرة والاجتهاد لحشر قواعد لا معنى لها في أدمغتهم. استعان —لأول مرة في حياته— ببعض الأقراص التي سربها إليه صديقه شنودة، وكان مازال يعمل بالصيدلية ولم يتزوج ابنة مالكها بعد. لكن حتى الأقراص لم تفلح في تنحية المسوخ جانبًا، وإخراس أصواتهم. حتى تُفلت أعصابكَ يا أحمد فتعتدي بالضرب على أحد المدرسين الأكبر سنًّا، وتُحال إلى التحقيق، فتبادر أنت بتقديم استقالتك. علامةٌ جديدة سوداء تضاف إلى ملفك المنتفخ، وابنك الوحيد اتضح أنه متوحد، لن يكون ذات يوم مثل هؤلاء المساخيط الذين هربت منهم بجلدك قبل أن يكتمل جنونك. علامةٌ جديدة تضاف إلى ملفك. برهان آخر على فقدانك عقلك، لم يكن مَن حولك بحاجةٍ إليه، سواء في المترل أو في العائلة أو في شارع منية السيرج.

ويظل تائهًا لشهور لا يدري ماذا عليه أن يفعل بنفسه، حتى لقمة البيت أصبح يبتلعها كأنها شوكة في حلقة. يبحث عن عمل، ويجد له بعض أصحابه عملاً كمترجم بالقطعة هنا وهناك، ثم إنه يضطر لإعطاء

دروس خصوصية لبعض أبناء وبنات الأقارب والمعارف، والحياة الواسعة تزدادُ ضيقًا يومًا بعد يوم، والبنات يتقدم لهن الخُطاب ويلزمهن جهـاز وفكرة عملهن مرفوضة تمامًا، ناهيك عن شهاداهن المتوسطة التي لم تعد لها أي قيمة.

كان يسير كالمنوم مغناطيسيًّا، وحتى القراءة فقـدت سـخونتها وألقها. ظل يتجنب أباه ويحاول إرضاء أمه بكل وسيلة، حتى يتركاه في حاله، في غرفته، في شرنقته، صامتًا ومتأملاً. لا شيء. صار الحشـيش مطلبًا عزيزًا، ولولا كرم بعض الأصدقاء من شلة الفساد القديمـة لمـا استطاع أن يحفظ الود القديم معه. أما الزواج فخطيئـة كـبرى، لـن يكررها ولو انحلت كل مشكلاته بمُعجزة، والمستقبل كلمة مضـحكة وبلا معنى مثل سائر الكلمات.

ويعلن قلب أبيه العصيان فجأة، وكأنه قد احتمل ما فيه الكفاية، ليسقط هذا الجبل الأسطوري طريحًا وكأنه لم يكن يومًا قادرًا مُطاعًـا. ويمتد به المرض، رغم العمليات الجراحية التي أتت على المدخرات القليلة المتبقية بعد بيع الأرض الصغيرة في البلد، ليطول رقاد الرجـل الكـبير شهورًا بعد شهور، تزخرفها الأزمات والجلطات. وتتوجه الأعين نحوه، نحو الولد الوحيد، فيرتبك. ماذا يتوقعون منه؟ لماذا كُتِبَ عليه أن يكون دائمًا فريسة تلك الأعين والنظرات؟ لماذا لا يصير هواءً؟ ما تهمته؟ مـا ذنبه؟ ما خطيئته غير أنه موجود، وهو مستعد للتخلي عن هذه النعمـة الجليلة بكل بساطة، وفي أقرب فرصة.

من بين معارف أبيه الذين أتوا لعيادته في مرضه ظهـر الأسـتاذ نعمان، كأنه هدية من السماء، وصلت في وقتها المناسب تمامًا. كـان

مدرسًا زميلاً، وكذلك رفيقًا لأبيه في الطريقة البرهانية الشاذلية، ولكنه يصغر عبد المتعال بعشر سنوات تقريبًا. رأى فيه أحمد سماحة ورقة، بل كان الرجل يخجل ويحمر من الخجل أحيانًا، ولا يعلو صوته بالكلام أبدًا. عرض على أحمد العمل معه في مكتب الترجمة الذي أنشأه قبل سنتين، بعد أن ودع مهنة التدريس إلى الأبد. وافق الشاب دون تردد. في البداية رحب بالعمل كفرصة للرزق، ليحفظ ماء وجهه أمام أسرته، ومع الوقت اكتشف أنه لا يكره مهنة الترجمة كما كان يعتقد، وربما بفضل الأستاذ نعمان أحب هذا العمل، وتعامل معه باعتباره رسالة حقيقية، ولو لبعض الوقت. تعلم منه الكثير، وأعاد التعرف على الكلمات دون تورط، دون مشاعر، دون أحلام كبرى. كلمات وكأنها اللاشيء ذاته. هو بريء، خارج اللعبة وداخلها في الوقت نفسه، يكتب ولكنه لا يؤلف. ينقل، ينسخ، يحرر، يعيد كتابة ما قاله أحدهم بلغةٍ إلى لغة أخرى، ويخرج نظيفًا من اللعبة. أحب الأستاذ نعمان، أحب بساطته ورقته في تعامله مع موظفيه والمترجمين صغار السن، بل أحب تدينه الشفيف السلس والمختلف تمامًا عن تشدد أبيه. وكلما تقدم في العمل أحبه أكثر، ويعلن الأستاذ نعمان أنك مترجم موهوب، ويخصك بأصعب المهام وأحوجها إلى عناية خاصة، مثل ترجمة بعض السيناريوهات الأجنبية التي كانوا يحولونها إلى أفلام عربية سيئة بعدها بسنوات. ويُطلعك على أسرار المهنة التي تعلمها هو بالطريقة الصعبة، وتبتعد أنت يا أحمد تدريجيًا عن القراءة الحرة، القراءة للمتعة، وتنسى حلم الشعر وتكاد تضحك منه أحيانًا. ويبتعد حتى الدخان الأزرق، تصير مطيعًا مستأنسًا. من البيت للعمل ومن العمل للبيت، بدون أن

تنسى ولو مرة طلبات البيت، وأقساط الجمعيات وجهاز البنات. مرحبًا بالنضال الحقيقي، لُقمة العيش المرة، ينتزعها الناس من فم الأسد كـل يوم. انحت في الصخر يا أحمد، فلست أفضل من الآخـرين. ويتقـدم المهندس الشاب لطليقتك وقد صار شريكًا لأبيها وأخيها في شـركة المقاولات الناشئة ويتزوجان بسرعة كما تزوجتما بسرعة، فتحزن أمك وتبكي، لضياع أملها في وصل ما انقطع، وتسألك دامعة العينين:

"يعني مش عايز حتى تروح تشوف ابنك قبل ما يسافروا وياخدوه معاهم؟"

ولا تجيبها. لا شيء.

استطاعت د. عزة أخيرًا إقناع مُنى بالتقـديم في ورشـة النقـد المسرحي، فأرسلت أوراقها وهي ساهية، دون توقع بقبولها. المدهش أنها شعرت بالفرح عندما أبلغوها بالقبول وأن عليها الاستعداد للسفر بعـد نحو شهر. الاستعدادت وضيق الوقت والحماس لمشاهدة بـاريس ولـو لأيام معدودة، كل هذا أربكها وأسعدها وراحت تحـدث خالـد في ذهنها، بينما تجري من هنا إلى هناك. تعتذر له، وتضاحكه، وتختار معه ألوانًا قليلة لتطعّم بها ثيابها السوداء ، إيشارب تركواز، عقد كهرمـان. أحست أنها صار أقرب لتقبل فكرة موت خالد. قالت لرجائي الصـغير مبتسمة: "عايزة أرجع ألاقيك خلصت الرواية!"

فهز كتفيه وقال: "لما نشوف هنخلص منه إزاي الأول"

قال الأطباء إن عم أحمد رجائي نائم نومًا عميقًا لا يريد الاستيقاظ

منه، فكأنه يرى حلمًا جميلاً لا يطيق التخلي عنه. الغيبوبة استمرت طويلاً، وتردد على فراشه أخواته وأزواجهن وأبناؤهن، غير زملاء العمل من المترجمين الشباب والإداريين. ومنى ورجائي الصغير يمسكان بالخيط، كلٌّ من ناحية. أخبرها أنه يفكر في العودة للدراسة، وأنه سيتقدم لعمل دبلومة الدراسات العليا، بجامعة الإسكندرية، وسيحاول العثور على مسكن هناك، ويتفرغ لكتابة النسخة الأخيرة من رواية عم رجائي التي لا تريد أن تنتهي أبدًا، وكأنّ شخصًا ما سيموت إذا انتهت فعلاً. لم يقل لها إنه يريد أن يبتعد، وأن يستعيد قطر الندى ومفاجآت المطر ووجوه السماء التي تتغير كل لحظة مع تغير وجه البحر. سيعود وربما عثر أيضًا على عروسة البحور، سماح، وربما يسخر معها من أيام رومانسيته البريئة. أبدت مُنى تفاؤلها، وكأنه لا يوجد رجل في غيبوبة على بُعد خطوات منهما، ينتظر مصيره.

لم يعد الصغير يريد أشياء كبيرة، طموحه الآن يقتصر على إنهاء الرواية الوحيدة، الأولى والأخيرة ربما، لكي يجدها الشيخ أمامه عندما يفيق فيقرأها وينبسط ويحب رجائي الصغير كابنه الذي لم ينجبه. طموحاته بالمجد توارت قليلاً بفضل هذين الشخصين الغريبين، منى وأحمد، أحمد ومنى.

لم يحك لها أنه امتلك مبلغًا صغيرًا من المال قبل أيام، فراح وشربَ وحده في فندق كبير. كان قراره أن يصل إلى تلك النقطة التي كثيرًا ما تصل إليها مُنى عندما تشرب، فشرب حتى لم يعد قادرًا على تجرع نقطة واحدة أخرى. وشعر بالوحدة كائنًا ملموسًا يكاد يحس بريح أنفاسه معه على المائدة، وخاف من الخروج من الفندق والفجر وشيك وهو في

هذه الحالة. متلعثمًا بالكلمات حجز غرفة في الفندق نفسه، وأوصله العامل إليها وهو يواري ابتسامته منه.

بكى وحده طويلاً حتى طلع عليه النهار. و لم يعد يذكر ما الذي أبكاه حقًا؟ لحظةً يبكي لأنه نحيل وقصير، ولن يكون له ذات يوم جسد رجل حقيقي. ومرةً يبكي لأنه لم يستطع أن يحب أهله بما يكفي ليسامحهم على اختلافهم عنه أو ليسامحوه على اختلافه عنهم. ومرةً يبكي لأنه غير موهوب، لا في القصة ولا في الترجمة ولا في أي شيء. ومرات لأن مُنى لن تكون له بالمرة. عاريًا تمامًا راح يسب نفسه ويهينها أمام مرآة الغرفة، وفي الصبح طلب مزيدًا من البيرة بهاتف الغرفة. وعند الظهيرة خرج إلى الشرفة ملفوفًا بملاءة السرير وقد قرر الانتحار. و لم ينفذ قراره لأنه اكتشف ببساطة عجزه عن الموت، فقررّ ألا يكون عاجزًا عن الحياة أيضًا. نام، وعندما أيقظه موظف الاستقبال في الوردية التالية، طلب ليلةً أخرى، وواصل نومه، وكان هاتفه مفصولا فلم يزعجه شيء. نام رجائي الصغير يومها أكثر من عشرين ساعة. يستيقظ ليشرب كوب ماء، ويعاود النوم من جديد. يصحو على رغبة حارقة في التبول ثم يرتمي بين الملاءات التي تشبعت برائحة عرقه الكحولية. حتى أفاق أخيرًا على جوعٍ شديد، وانتبه لنفسه ولمكانه، ولملم أشياءه المتناثرة قبل أن يتصلوا به من الاستقبال فيحسبوا عليه ليلة جديدة. دفع ببساطة وهو يبتسم لابتساماتهم. أكل في مطعم قريب بآخر ما تبقى معه من نقود، أكل بنهمٍ "شوربة عدس وأرز بالكبد والكلاوي وسلطة خضراء وخبز وسلطة طحينة"، وشرب قهوة ثم نهض كأنه عاد للحياة من جديد.

يفهم الآن مُنى ويفهم كلامها حول تغيير شخصيتها كل يوم. لعلها تسكر كل ليلة حتى يتسنى لها أن تموت مثل خالد، ولكنها على عكس خالد تُبعث في الصباح شيئًا آخر، لا وسيلة للواحد سوى النوم لكي يتجدد، لكي ينعم بوهم الميلاد من جديد. اختار أن يعيش، اختار الإسكندرية، اختار أن يبصق على الضوء مثل عم أحمد، وإن لن يكف بالمرة عن اللعب مع الكلمات، وبها، ومن أجلها. وسواء كان موهوبًا أم لم يكن، فسوف يواصل، ما دام مستمتعًا وسعيدًا. سوف يواصل المحاولة، ولتستمر اللعبة مادامت الحياة. مهما اعتبرها الشيخ لعبةً دنيئة أو لا تستحق.

أنهى رجائي الصغير قراءة هذه الفقرة وهو ممسك باليد اليمنى للشيخ رجائي، بينما تنصت إليه مُنى وهي تمسك باليد اليسرى للشيخ النائم مبتسمًا وحالمًا.

"أي بُني، لا تتسرع في الكتابة ولا تضعني في إطارٍ رخيص. أي بُني، اكتب ببطء وتذوق كل كلمة وكأنك ستأكلها، فإن كانت عفنة أو فاسدة فسوف تفتك بحياتك على الفور. لا تجعلني شخصيةً حقيقيةً من لحمٍ ودم كما يُقال، فأنا شبح، مادمت تنشد الحقيقة الكاملة ولا شيء غير الحقيقة. اكتب حياتي كأنها لن تنتهي أبدًا، كأنني أتجدد مع كل قراءة، مع كل نَفسٍ تولد، ولكن لا أموت مع كل نفسٍ تموت. إياك وأن تجعل لحكايتي مدارًا واحدًا، هو العمود أو الخط أو التيمة أو أيًا كان اسمه، فيسهل على الناس قنصي وربطي إلى فكرةٍ ما، أنا شبح إنسان، ولكنني لستُ شبح فكرة. لتكن لحكايتي مدارات كثيرة دون أن

تركن إلى واحدٍ منها. أي بُني، لا تكتبني بلغةٍ روشة طحن، أرجوك، سدّد الله خطاك وهداك إلى سواء السبيل. احفظ الله تجده أمامك، واحفظ الله يحفظك، وكأنك أمامَ مرآة".

اتصلت به أخته الكبيرة على تليفون الشركة، وعلم منها أن ماجدة وزوجها في القاهرة، وقالت إنها فرصة ليرى ابنه عبده.

قالت "عبده" فانتبه أن له ابنًا، وأنه يجوز أيضًا أن يُناديه الناس "أبو عبده"، فكاد يقهقه ضاحكًا. عندما اتصل برقم منزل عمته، لم يجد أي أثر في صوتها ينمّ عن النقمة القديمة، لم تعد تلك المرأة اليابسة المتسلطة، بل صارت مجرد عجوز تتلهف على من يستمع إليها، بعد سفر ابنتها وابنها، كلٌّ إلى بلد. حتى حين حضرَ، مضطرًّا وكارهًا، عزاء زوجها، سلمتْ عليه بأطراف أصابعها ولم ترد حين قال: "البقاء لله يا عمتي". أما الآن، على الهاتف، فقد عاتبته طويلاً لعدم سؤاله عنها، هي عمته الوحيدة التي مازالت على قيد الحياة، والست الكبيرة الوحدانية، بل ومازحته: "ولا إنت لسه صايع وضايع يا وله؟"، فانتهز فرصة مزاجها الرائق، واتفق معها على رؤية ابنه عندها، واعتمد عليها في إقناع ماجدة بذلك.

خلال يومين، سبقا موعد الزيارة بعد صلاة يوم الجمعة التالية، لم يستطع التفكير في شيء سوى ذلك الابن، عبد الحليم، ومرضه وعقله الذي لم ينضج رغم نمو جسمه، وما يلتقطه من أخبار عنه بين الحين والآخر. لم يستطع تجاهل أن ابنه الآن قد بلغ مبلغ الرجال، ولو أن الأمور مضت في

مسارها الصحيح، لكان من المفترض أنه يكافح الآن مع الثانوية العامة، وربما يجلس هو بنفسه معه ليذاكر له اللغة الإنجليزية وربما تتفرع بهما النقاشات في الفلسفة وعلم النفس وأسرار الوجود. لو مضت الأمور في مسارها الصحيح ربما كان أحمد رجائي نفسه مختلفاً تماماً الآن، لكان عنده ما يوقظه صباحاً بما يشبه الرغبة في الحياة، مستقبل العيال والسَتر في زمنٍ قد يفضح الغافلٍ في طرفة عين، ولكانت ماجدة الآن مازالت زوجته، وقد ازدادتْ بدانةً على بدانتها وتحب الشحار والنقار مثل عينها.

لم يعرف حتى أن يلعب في ذلك الحين دور الأب المشتاق لرؤية ابنه الوحيد، ارتبك وركبه خوفٌ غريب مما ينتظره، واستدعى المرات القليلة التي رآه خلالها. وهو في الرابعة، قبل سفر ماجدة وزوجها الأعرج الطموح إلى الخليج أوائل الثمانينيات، كان يشبه جميع الأطفال وكأنه طبيعي تماماً. ثم مرة أخرى وهو في السابعة، أخذه من المستشفى، من عمته، حيث كانت ماجدة تلد ابنها الثاني من المهندس. حينها وجدَ نفسه معه وحدهما فجأة فانتابه الذعر، ولم يدرِ ماذا سيفعلُ به، ولجأ إلى حديقة الحيوانات وسرعان ما اكتشف أنهما مكشوفان تماماً لآلاف الأعين. مشية الولد المضطربة وتعثره في الكلام غير المنتظم وانطلاقه في الصراخ بين الحين والآخر بلا سببٍ واضح، كل ذلك لفستَ إليهما نظرات الفضول والشفقة، وربما بعض عبارات الحسرة مع مصمصات الشفاه.

لكنه يذكر أيضاً أنهما لعبا معاً يومها. لم ينجح أحمد في ذلك إلا بعد أن أخرجَ من جيب قميصه سيجارة حشيش ودخنها في ركن خفيٍ من الحديقة، ثم نظر نحو الولد الذي له عيناه ولون بشرته وشعره البنيّ

الكثيف، وقال لنفسه مبتسمًا في داخله إن هذا هو ابني، وربما سيكون هو ابني الوحيد، ولعله أيضًا الابن الوحيد الجدير بي. هذا الولد رفضَ المسألة كلها من البداية، ردّ الباب بمنتهى الحسم في وجه ابتذال هذا العالم، واقتربَ رجائي من ابنه عندئذٍ وهو منبهر بتلك العزلة النهائية التي فاز بها. ولعبا لعبة تقليد الحيوانات، كلما مرّ أحمد بحيوان راح يقلده، غير مكترث للناس من حوله ولا لأي شيء، أحيانًا يبتسم الولد ابتسامة واهنة، ثم يضحك بهيستريا، وأحيانًا يشيح بوجهه ببساطة عن بهلوانيات أبيه، وينصرف إلى اتجاهٍ آخر، وفي مرةٍ واحدة فقط صاحب أبيه في تقليده للزرافة وراح يمد عنقه للأعلى ويمد لسانه خارج فمه.

كل ذلك كان أحمد قد تدرب جيدًا على نسيانه، عرف كيف يمحوه تدريجيًّا كأنه لم يكن، لكنه أراد أن يتخلص منه، أن يلقي به على كتفي إنسان آخر سواه، ولو لمرة واحدة. وصرح لكلٍ من رجائي الصغير ومُنى بما لم يُصرح به لإنسان إلا نادرًا، ربما لكي يدفع عنه نظرة الاتهام التي يلمحها في أعينهم بين الحين والآخر، نظرة تقول له: "ماذا فعلت بنفسك أيها العجوز؟". أراد أن يدفع عنه تهمة يجهلها، أو على الأقل أن يكون الحكم عليه مخففًا، بعد وضع جميع الظروف والملابسات على كفة الميزان.

بعد صلاة الجمعة بساعةٍ أو نحوها دقّ جرس الشقة التي شهدتْ حياته الزوجية القصيرة التعسة، و لم ينتظر طويلاً حتى فتحت له خادمة صغيرة السن ترتدي ثيابًا ملونة ومُبهجة كأنها في صباح العيد. أجلسته بالصالون نفسه الذي كان يحاول فيه أن يشرح لماجدة قواعد الحب والغرام دون أن يتبلل سرواله، وقبل أن يبتعد بذكرياته سمع صوت دقات

عصا عمته تقترب وكأنها دقات المسرح التي تعلن رفع الستار وبداية العرض. مع الشاي والبسكويت والكعك، لم تترك عمته موضوعًا إلا وأثارته، شرّقتْ وغربت، استدعتْ الراحلين واحدًا واحدًا، وكلما أوشك على سؤالها عن عبد الحليم وضع حزمة في فمه واستعان بالصبر، إلى أن دقّ جرس الباب وخرجت طفلة العيد لفتحه من جديد، ثم دخلت ماجدة وزوجها وعبد الحليم مع مرافقة خاصة أسيوية شابة وجميلة. لوهلة ندمَ أحمد على الفكرة ولعن أخته التي حرضته على هذه الزيارة، بحجة رؤية ابنه، وارتبك و لم يدر ماذا يصنع أمام مطلقته وزوجها الذي بدا ناصعًا لامعًا لا تشوبه شائبة، بلا صلعة ولا كرش ولا شيء واحد يمكن احتسابه ضده، وكأن الزمن يمر به مرور الكرام، ولولا عرجه لبدا الزوج والأب المثالي؟ تمّ تبادل السلامات في جو من التحفظ والتوتر، ثم دخلتْ المرافقة مع عبد الحليم إلى غرفةٍ صغيرة. كان الولدُ هادئًا ولا يكاد يتواصل مع أحد باستثناء المعالجة، التي عرف منهم أنها مُدرّبة على الاعتناء بحالة عبده. كان شابًا جميلاً إذا رآه المرء قد يُغَش فيه لأول وهلة، ويحسبه زينة العقل كما أنه زينة للنظر، وللحظات أصيب أحمد بالدوار حين شعر وكأنه يقف قبالة نفسه من عشرين عامًا أو أقل.

قبل أن يتطور حديث الطعام الصحي والعضوي الذي فتحه زوج مطلقته بأريحية شديدة، وقبل أن ينتهي الأمر للسؤال عن أحواله وظروفه كما هو متوقع للغاية طلب أن يدخلَ ليجلس قليلا مع عبده، قالها هكذا كما قالتها أخته على الهاتف: "عبده".

طرق الباب طرقتين خفيضتين ثم فتحه ودخل. كان عبد الحليم

يفترش سجادة على الأرض، ومن حوله تتناثر أوراق الرسم والأقـــلام والألوان، ومنهمك تمامًا في الرسم، انتبهت المرافقة التي كانت تتصــفح مجلة بالقرب من الشاب. أشارَ لها أحمد أن تجلس، وجلس هو بهـــدوء على مقعدٍ مريح بجوار باب الشرفة مسدلة الستائر. ظل جالسًا هناك نحو ربع ساعة يراقب عبد الحليم وهو يرسم، يتوزع الورق حوله راسمًا دائرة تمامًا كما كانت دائرة أخرى من الكتب والأوراق تحبس بداخلها أبيـــه قبل بضع سنوات، ومازالت، وسوف تظل. لم يكن الشاب يرسم شيئًا من خياله بالمرة، كان يركز بصره لثوانٍ على شيء ما ثم ينقله للـــورق بأمانة فوتوغرافية. كان يفعل هذا مع تفصيلة صغيرة من هدفه، زخرفـــة واحدة صغيرة للغاية من نقوش السجادة، حذاء المرافقة بدون قـــدمها، ثنية من ثنايا الستارة، قلم من الأقلام المتناثرة حوله.

أدرك أحمد أن المفتاح مع هذه الشابة الجميلة التي تبدو منهكمـــة تمامًا في قراءتها، ولا تنسى مع ذلك أن تلتفت نحو عبد الحليم بين الحين والآخر، لإجراء مسح سريع لملامحه وتعبيرات وجهه. حدثها بالإنجليزية مُعلقًا "يبدو أنه يحب الرسم للغاية"، فوضعت المجلة جانبًا ببساطة، وكأنها اشتاقت للتحدث إلى شخصٍ ما أخيرًا، أجابته قائلة إنه يمكنه أن يستمر هكذا لساعات وساعات دون كللٍ أو ملل، وأنها تحمل له أدوات الرسم أينما ذهبوا، وإلا فسوف يرتبك ويضيع، كل ما يحتاج إليـــه لتركيـــز انتباهه هو أن يرسم ما يراه.

أحمد أيضًا لم يكن بحاجة لشيء أكثر من أن يرسمَ ما يراه، لكنـــه أخفق مرةً ومرات، ربما لأن ما كان يراه يومًا بعد آخر لم يكن طـــرف ملاءة مُتَدَلِيًا أو رِجل الفراش أو طبقًا به مكسرات. وربما كـــان خطـــأ

أحمد أنه رغب دائمًا وأبدًا أن يرى الكلّ المحيط الشامل. لكن الجيل التالي لحسن الحظ تجاوز هذا العيب الخطير، و لم يعد ينتبه إلا للتفاصيل الصغيرة، المنفصلة تمامًا عن كلٍّ يضمها ويحنو عليها.

عرف من المرافقة أن ابنه يقضي أغلب شهور السنة في معهد مخصص لحالته في دُبي، وأنه هناك نجم المكان ببساطة، يحبه الجميع، ويحبون رسوماته ويقيمون لها معرضًا. سألها لماذا لا يتفاعل معه، وهل يوجه له الحديث أم لا، فتوجهت لعبد الحليم وأشارت له نحو أبيه، مرةً بعد أخرى، متحدثة عن بابا الذي أتى لزيارتنا.

لم يفعل الولدُ شيئًا سوى أن نظر إلى الرجل الجالس أمامه بجديةٍ تامة، وشرع يرسم. لم يرسم وجه أحمد رجائي، بل رسم تفصيلةً منه في كل مرة، بدأ بالنظارة، ثم الأذن، ثم الأنف، وهكذا، وبعد أن كان ينتهي من كل تفصيلة، كان يمد يده بصرامة نحو أبيه بالورقة، ليعطيها له.

قالت المرافقة إنه نادرًا ما يرسم شخصًا ما، إنها طريقته في التعرف عليك، إنه يحبك.

خرج أحمد من الغرفة يومها ومعه ملامح وجهه كلها، موزعة على عشرات صفحات الرسم، استأذن في الاحتفاظ بها وغادر على عجل.

قطتي صغيرة، واسمها نميرة، شكلها جميل، شعرها طويل، لعبها يُسلي وهي لي كظلي، تُظهر المهارة، كي تصيد فارًا. تذكرتُ، أتذكر، سوف أظل أتذكر. لو تذكرت كل شيء كما كان أو حتى كما كان

يجب أن يكون لاستعدت حياتي، لاستعدت كتاب حياتي يا عين ما شفت زيه كتاب.

رجائي الشاب يتحول من رائد فضاء إلى طبق طائر، يشق سقف عربة المترو وسرعان ما يتبخر في سحابة من نور فضي. ومازالت العربة، ومازال الموتى معلقين من رقابهم في الحلقات البلاستيكية المدلاة من السقف، وقد اتسعتْ الحلقات لتقبض على أعناقهم، وراحت تهتز الأذرع والسيقان أمامه، على إيقاع سير القطار المنطلق الآن في بحر السماء الواسعة، بلا قضبان ولا كهرباء. ليس حوله إلا ظلام مقيم وتام، لا نجوم ولا أقمار أو كواكب تعد بالحياة، فقط نيازك وكتل حجرية قبيحة المنظر، ونيران متطايرة، كراتٌ من النار المشتعلة تومض بالقرب منه قبل أن يبتلعها الظلام. إنه بين الموتى، في السديم الأسود للعدم، ولسوء حظه فإنه الوحيد الذي ما زال حيًّا، وهو كذلك صبي صغير، أصغر من رجائي ومنى وعبد الحليم، أصغر من جميع الصور التي يذكر أنها التقطتْ له. من خدعه ليلحق بهذه الرحلة الملعونة؟ لكنه لا ييأس، ينهض ويزيح الجثث المعلقة عن يمينه ويساره، بعزم ما فيه، فيسترد جسده، جسده الكبير الناضج، للشيخ الفارع الطول. يصل إلى باب العربة فينفتح أمامه وقد توقف القطار في محطة روض الفرج، حيث انتحر الشاب المصريّ الأصيل. ويجده أمامه، بانتظاره على المحطة ومعه صحبة ورد، ويهلل لمرآه: اسمح لي أن أهنئك، فقد تعلمت أهم أسرار الرحلة، أفكارك هي ما يحدد اتجاه الرحلة ومقصدها، وليس عليك إلا أن تتخيل ما تريد. ثم يتلاشى الولد، وتبقى صحبة الورود في موضع على الرصيف. يتحول لون الورد من الأحمر إلى الأسود الفاحم بسرعة.

"نوجه عناية السيّد أحمد رجائي إلى أن الوجود كله يستمعُ إليـه، وينصت إلى أفكاره وخيالاته، وأنه ليس عليه إلا أن يحدد طلباته بدقـة حتى يمكننا الاستجابة له، وشكرًا لسائق القطار".

يزمع أن يتأكد من قدراته الخارقة التي اكتشفها لتـوه، فيتخيـل صاحب المتجر الصيني، صاحب قصر الورق. فيحضر أمامه في الحـال، ممسكًا بالدفتر البرتغالي الأحمر الأخير، الدفتر المعجزة، الذي سيجد قصة حياته مكتوبة فيه حتى السطر الأخير. يبتسم الصيني ويمد يـده نحـوه بالدفتر، وكأنه يدعوه لتناوله. فيخطو أحمد رجائي باتجاهه، لكنه يلاحظ ابتعاد الرجل بالدفتر بقدر اقترابه منه، وكلما مدّ يده لا تصل إلى شيء، على قُرب الرجل منه، وبدأ الصيني يضحك، ويُفلت الدفتر من يده، ثم يقذفُ به في الهواء مثل لاعبي السيرك، ويصطاده من الهواء، وقلبُ أحمد يتطاير مع الكتاب الأحمر، ويمدّ يده ويخطو، ويحاول اللحاق به. يصـيح أحمد: أعطه لي! فيرد الصيني ضاحكًا: لو كنتَ أنت كاتبه فلماذا تحتاج إليه؟

فوق إحدى درجات السلم، كانت منخفضةً للغايـة وصـارت مرتفعة للغاية، يفتح الصيني الصفحة الأولى للدفتر، ثم يقرأ منها وهـو ينظر لأحمد الذي بدأت تدوسه الآن أقدام الموتى. الصوت يبتعد حـتى يختفي تمامًا.

اتخذت قراري ولن أرجع عنه، رغم معـرفتي بـأنني سأموت مع كلمة النهاية..يا سلام، لهذه النبرة كل رعونة الشباب، وكأنني رجعت شابًا من أول وجديد.

سأشرع فورًا في كتابة رواية حياتي، اشتريت دفترين وقلمين واتجهت إلى البار.

بكل همة وحماس قطعتُ الأمتار القليلة الفاصلة ما بين مكتبة أرابيسك، وبين مشربي الصغير، شبه الخالي في هذا الوقت من آخر النهار، لأكتب..

شاقًا طريقه في شارع منية السيرج، عائدًا من صيدلية شنودة بشارع شبرا إلى بيته، متسليًا بالتحدث إلى ظله الوديع، ظله يُبدّل شكله في خياله، متخذًا صورًا عديدة، فتارةً هو الشاب المنتحر على غيار الريق، وتارةً هو رجائي الصغير، وتارة هو نفسه، ولكن صبيًا يافعًا يقوده الكابتن طلعت بين حواري في الدرب الأحمر تتشابه وتلتف مثل متاهة حياته، ذاهبين –وحدهما أول مرة، وفي صحبةِ صغيرة مراتٍ عديدة– إلى أول غرزة حشيش يدخلها في حياته، حيث التقى لأول مرة بسميحة المومس الفاضلة، وحيث سيذهب وحده بعد ذلك كثيرًا.

اتخذتُ قرارًا نهائيًا، لن تكتمل هذه الرواية، وسوف أبقى، لن أسمح لهما، الصغير ومُنى، أن يطلقا علي رصاصة الرحمة. أستحق فرصةً أخرى، ولو كانت الأخيرة.

لو كتبوا نهايتي في السطر الأخير لبدتْ لعبةُ الصغير مأساوية

مبتذلة، ولأيقنت مني أنها شؤم، ما في ذلك شك. كل ما تحتاج إليه هذه البنت هو رجل واحد يحبها ثم يبقى إلى جانبها، ليس ضروريًا أن يتضاجعا أو أن يتزوجا، ولتذهب معه إن أرادت، لكن أنا سأبقى.

يهمسُ رجائي الصغير لمنى: لاحظي أنه يتراجع الآن، ويختلق الحجج. رغبته في الموت مجرد قناع آخر، يخفي شخصًا عاشقًا لنفسه، ولا يحتمل فكرة فقدانها. ولعله سوف يهرع الآن إلى أقرب مرآة ليرمي بنظرة أخيرة على وجهه.

هل يعكف الواحد منّا على تأمل فصول حياته، ليلاً ونهارًا، في عقل باله وعلى الأوراق، وحده أو بمساعدة شابين واعدين ومجرمين مثل رجائي الصغير ومنى، لكي يتخلص من حياته في نهاية الأمر؟ إنها حتى نهاية غير درامية بالمرة. لابد أن أحصل على فرصة ثانية، هذا من حقي، وإن كنتُ من جيلٍ استنفد كل فرصه، فلا علاقة لي بهذا الجيل، وما هي إلا مصادفة يا شباب، خذوني معكم، وامسحوا بالممحاة على وجهي تختفي التجاعيد وأعود شابًّا من جديد. فرصة ثانية، أتوسل إليكَ يا رجائي يا صغير وأنتِ يا منى، فرصة ثانية، ربما قد لا يكون لدي ما أُقدمه لكما، غير حفنة الذكريات والخسائر المريرة، لكن -صدقا أو لا تصدقا- لديكما أنتما ما تعلمانه لي.

كفى؛ لن أتوسل، أنا الكاتب الأصلي لهذه الرواية، على سطورها صنعتُ حياتي، وأفضيت بهواجسي وتأملاتي، وأنا من منحتُ الرعديد

الصغير شرف المشاركة فيها، فليس له الحق الآن بأن يتخلص مني بهذه السهولة، حتى ولو كنت أنا من ألحّ عليه في ذلك، وأوحيت إليه به بكل الوسائل الممكنة. كل ما أريده هو فرصة ثانية، لا لأصحح أخطاء قديمة أو أتوب عن أشياء لم أقترفها عامدًا متعمدًا، بل لأنظم كتبي لمرة أخيرة، وأعطيكما منها ما تريدان، لأزور أخواتي البنات مرة أخيرة وأحفظ أسماء أبنائهن وبناتهن، لأرى ابني عبد الحليم، وإن اضطررت للسفر إليه حتى مصحته في دبي. إنه الآن في مثل عمركما، تجاوز الثلاثين، ويعلم الله ماذا يرسم الآن؟ أريد أن يرسم لي صورة أخيرة، صورة مكتملة، صورة غير مشتتة ومتوزعة على عشرات صفحات الرسم مثل المرة السابقة. نعم، أريد أن أرى وجهي أخيرًا بعد أن اكتملت الصورة، اسمحا لي بهذه الفرصة.

شاقًّا طريقه في شارع منية السيرج، مسليًا نفسه بالحديث إلى ظله الوديع الماكر، أخذ عم أحمد رجائي يدفع عنه جيوش الصور والمشاهد والذكريات، لا لأنه ينفر منها ويصدها، بل لأنها ترد إليه جماعات متداخلة ومتشابكة ومختلطة، وهو يريد استقبال كلٍّ منها على حدة، ذكرى ذكرى ومشهدًا مشهدًا، كما يجدر بروائي حصيف وماكر. ولكن من سيكتب كلمة النهاية؟ من هو الروائي بين كل هؤلاء؟

٢٦. الروائي من يرى نفسه في الحلم يبني مدينة، ثم يستيقظ ليجد نفسه واحدًا من سكان مدينته.

٢٧. الروائي من يرى حياته كلها تمر أمام عينيه مثل شريط سينما، ولا يموت مع هذا.

٢٨. الروائي قد يتنازل عن جميع حقوقه إلا حقوق الشك والسخرية والافتراء على الناس بالباطل.

٢٩. الروائي يعرف أن الحياة نفسها تقدم حلولاً سحرية، فلا يبخل بها على شخصياته.

٣٠. الروائي يرقد على البيض لشهور وسنوات، وحين تفقس البيضة الوحيدة لا يدري إن كانت ذهبًا أم فضة أم أنّ فيها -كما يرجو- كائنًا حيًّا.

تحول مركز اتصالات روميو إلى غرزةٍ له ولأصحابه. الشبابُ أيضًا مثلك يا عم أحمد، ليسوا أقل منك شجاعة، أغلبهم يتعجلون حتفهم ويُسرعون للنهاية، كاشفين صدورهم للسهام من حيث تأتي، في انتحار جماعي جدير بالإعجاب، وجدير برواية لن تكتبها أبدًا. روميو، أيقونة شارع منية السيرج، منذ حادثة تشويه وجهه صار شخصًا آخر، بل شيئًا آخر، فلم يعد يربطه بالبشر إلا المظهر. لم يعد يكترث لشيء ولا يقيم وزنًا لشخص أو يخشى عواقب، ونسمع كلامًا حول ولعه المستجد بالمرايا بعد خروجه من المستشفى، وقد رمى مجهولان ملثمان على وجهه ماء النار. الماء والنار، كيف يجتمعان يا شيخ أحمد؟ فلتسأل روميو، ويسأل روميو مشاكسًا له مثل أيام زمان: الساعة معاك كام يا روميو؟ فيكتفي الولد بتصويب تلك النظرة الميتة نحوه. خلا وجهه من كل تعبير، وصار كتلة متماهية منبعجة تتداخل فيها الخطوط والألوان، لكنْ عيناه مازالتا هناك،

واسعتين وسوداوين. يشير الشيخُ بيده ويمضي في سبيله، لا يملك شيئًا لروميو، ولا لسواه من المنتحرين، وطيورٌ جارحة تدب بمخالبها فوق صدره فتمنع عنه نسائم الهواء، يسائل الشيخ قلبه: أهي الليلة؟ فيجيب قلبه: ليس الليلة.

ليس الليلة والحمد لله، أم ليس الليلة مع الأسف؟

أمام أسطورةٍ بسيطة وقصيرة الأجل مثل أسطورة رمضان ابن الأسطى عزت الوحيد، ماذا بوسعنا أن نقول؟ يُمكننا فقط أن نواسيه قائلين إن السنوات القادمة لن يتسنى لها أن تخط سطورها الآثمة على سمرة وجهه اللامعة المحبوبة، وأن حُسنه لن يتبدل ويتغير مع الأيام، وأن آخر صورة فوتوغرافية له قبل الحادثة ستظل هي الوحيدة الحية في قلوب من يعرفونه، خصوصًا نساء الشارع ممن فتحن له الأبواب والسيقان، وقد تقاسمنه فيما بينهن بالعدل منذ أن شبَّ عن الطوق. ولكن لا تفيده تعزيتنا البلاغية في شيء، فما زال مُصرًّا على معرفة الفاعل، كانا اثنين، ولكنه على استعداد لقتل عشرة رجال أو رجال الشارع كلهم ليعرف الغادرين. فيما مضى كان لطيفًا أنيسًا، لا يحب أبدًا شارعًا لم يمشِ فيه من قبل، ولا يثقُ في رجلٍ لم تجمعه به سهرة مزاج، ولا يرفع بصره نحو نساء أصحابه وأخواتهن وأمهاتهن، مهما كانت المغريات ومهما وردت الدعوات الخفية والظاهرة.

لعله كان عائدًا إلى بيته، بعد صلاة الفجر التي أداها مسطولاً وسعيدًا، وبكى في سجوده طالبًا من الله أن يغفر له أفعاله مع النساء،

وواعدًا نفسه بتوبة قريبة عنهن وعن الحشيش. ولعله، اشترى لأمه العجوز كيس الفول وكيس البليلة والعيش الساخن، حين طلع عليه من مدخل البيت الملثمان، وقبل أن يتمكن من الوصول إلى مطواة قرن الغزال التي ورثها عن أبيه، ولا تفارق جنبه أبدًا، تمكن الجبانان من تكتيفه ومحْو بهاء وجهه الصبوح بماء النار.

فيما مضى كانت النساءُ تبسمل وتصلي على النبي عندما يُطل عليهن رمضان في فرح أو مأتم أو جلسة ودية خلال عيد أو مناسبة خاصة. لا ترفع البنات عينها عن البدر الذي فتنهن وشغفهن، وتلكزهن الأمهات والسيدات الكبيرات، والولد يدرك بسرعة ما حباه الله به من سلطانٍ على القلوب، ولا يتردد عن استغلال تلك النعم. وفيما مضى أيضًا لم يكن رمضان يطيق الوقوف طويلاً أمام المرايا، لا يخافها ولا يكرهها، ولكنه لا يحب أن يرى وجهه الجميل طويلاً. هو وحده من بين الناس جميعًا لم يكن يرى ما في وجهه من جمال، أو ربما يراه وينفر منه أو يملّه، ولعلّه أحبّ أن يراه أكثر في أعين المعجبات هنا وهناك. يغسل شعره ويدهنه بالزيت، ويمشطه بأصابعه وحسب، ولم ير في شعره الثقيل سريع النمو ولامع السواد شيئًا غير واحدٍ من هموم الجسد المزعجة مثل قص الأظافر وحلاقة الذقن. كان مُهملاً في نفسه، ولا يهتم بثيابه، بألوانها وتصميمها مثل الآخرين من أقرانه، المائعين منهم أو الجادين. روميو الابن الوحيد لوالديه، الذي لم يأكل الخبز الميري لا في معسكر تدريب ولا في عنبر سجن.

ماذا نملك أمام أسطورةٍ شعبية وبسيطة وموجعة مثل هذه سوى أن نحكيها بأقل قدر ممكن من التورط، وبأكبر قدر ممكن من الانحياز

لروميو، البطل والضحية معًا؟ ماذا تعرف أنت عن أساطير هؤلاء الناس يا عم أحمد، وقد عشتَ عمرك كله بينهم؟ ماذا تعرف أنت عن المطاوي والسنج والسيوف والسافوريات والسواطير والكزالك؟ عن الرقص في الأفراح بزجاجات البيرة أو بالكراسي متوازنة بقدرة قادر فوق جبين أحد الأشقياء وهو مسطول، الأشقياء ممن تقرأ أخبارهم في صفحات الحوادث برعشة حسدٍ وخوف؟ وعن المخدرات ماذا تعرف؟ لا تلك التي تأتي إليكم في جلسة المزاج، خالصة مخلصة، مثل جاريةٍ مأسورة معروضة للبيع في السوق، ولكن عمّن حاربوا لجلبها، وتسريبها وإخفائها والهرب بها من بين أيدي العسس والحراس بالرشوة والخداع والدم. هؤلاء هناك، بعيدون، في الأساطير وعلى صفحات الحوادث.

روميو، روميو، لماذا لا تعطيني وجهك، وإن كان مشوهًا وبلا معالم، فهو أوضح وأصفى من وجه عم أحمد رجائي؟ ولا يتوقف طويلاً أمام المرآة، يمسح بيده سريعًا سريعًا على الخصلات الغزيرة الملساء، ثم يترل ليرعى أكل عيشه، الهواتف المحمولة وإكسسواراتها ولوزامها ورناتها ونغماتها، والأسطوانات الجنسية، وربما الحشيش، من يدري؟ ولا يمسك أحدٌ عليه شيئًا، ولا يتورط مع البوليس أبدًا، ولا يتهم أحدًا عند التحقيق في تشويه وجهه بماء النار، ولا يكتئب أو يعتزل الدنيا بعد عودته من المستشفى للبيت، ولا يخرج عن أي عادة من عاداته، حتى الرجوع للبيت بعد صلاة الفجر.

فيما مضى، حتى الوقت لم ينجح في أن يجعل النساء والبنات تعتاد وسامة الولد، ولا اعتدن لمعان سواد عينيه وظله الطويل المهيب يتقدمه أو يتبعه جيئة وذهابًا. لا يعرف أحد من هي أول امرأة استدرجت غزال

البر إلى فراشها، أن تكون امرأة وليست بنتًا فهو الأرجح، ولكن أي البيوت؟ وعلى أي فراش؟ وتحت سقف أي رجل من رجال الحي؟ المؤكد أن هذا قد حدث مبكرًا للغاية، ربما قبل أن يكتمل اختطاط شارب رمضان تحت أنفه الأقنى، لأنه ما لبث أن أطلّ من وجهه نورُ المعرفة بالنساء، واكتست أضلاعه من نعمتهن طبقة شهية من اللحم، وسرى الدم في وجهه فأشعل سمرته بجمرة العشق المحرم. والمؤكد أيضًا أن المرأة الأولى — بارك الله فيها — لم تستأثر به لنفسها، وفي ذلك حكمة كبيرة منها، لأنها خشيَتْ انقلاب السحر عليها وافتضاح أمرها، ومثلما فعلت امرأة العزيز فدعت نسوة المدينة ممن يتقولن فيها وفي يوسف، أهدت المرأة الأولى المجهولة رمضان لإحدى صاحباتها، بل وأعتدت لهنّ متكأ. كبر الولد بسرعة على أسرّة نساء الحي كلهن، أو لكي لا نرمي المحصنات نقول أغلبهن. كل واحدة تعلمه شيئًا جديدًا، سرًّا صغيرًا خاصًّا ببنات حواء، أو حيلة من حيل الفراش التي لا تنفد. وهو، رمضان الذي لم يُطق الجلوس في الفصل لإتمام الإعدادية، كان هنا تلميذهن النجيب، فاستوعب وواظب على الدرس والمطالعة، بل وابتكر وأبدع، حتى صار حُلمًا يحوّم فوق فراشِ كل أنثى، وكابوسًا يناوش سلام كل زيجة مهددة أصلا بالفتور والبرود. فيما مضى أيضًا كانت تتسع مع الأيام شبكة العنبكوت التي تحيط بجمال الولد، مركزها هو، أو ربما عيناه، أو طابع الحسن على ذقنه، وأطرافها غير محددة، لا بشارع منية السيرج ولا بالشوارع المجاورة والممتدة في سائر أنحاء شبرا مصر. والنساء ينسين الطعام على النار، ويتوه منهن العيال في الأسواق، ويغضبن على أزواجهن لأسباب مفتعلة، ويقضين الأسابيع في بيوت

أهلهن. النساء يقضين نهارًا في حمومهن، والواحدة منهن إما تحاول محو ذكرى روميو عن لحمها وإما تعمل على استحضاره بالماء الساخن والليفة والصابون.

الآن صار كل شيء معلنًا ومكشوفًا، لم يعد روميو يخشى المشي في شارع لم يمش فيه من قبل، ولا رفع عينيه إلى نساء وأهل بيت أصحابه، ويتشارك في جلسات مزاجه مع أي عابر مستعد. يتردد على حريمه القديم في وضح النهار، فتُغلق في وجهه الأبواب، ويحلّفنه برحمة أبيه وبرأس أمه أن يتركهن لحالهن، أو أن يأتي في وقت مناسب، ولا يفضحهن، بلا جدوى. الملك يطالب بعرشه المسلوب، الملك لا يجد حرجًا في ذكر أسماء حريمه على المقاهي والنواصي، حتى ولو كان الزوج المسكين هو نفسه من يمرّ أمامه. راح الملك المغدور به يبالغ في استفزاز الجميع، لعل أحدًا يتصدى له، يرفع صوته أمامه، فيجد فيه متنفسًا ويسيل دمه، كما فعل لأسباب واهية في ليالٍ وأفراح كادت تتحول إلى مآتم.

وقيل إنه يحاول استعادة عيون مهاجميه الكلاب ليلا ونهارًا، يتذكر تلك الليلة مرارًا وتكرارًا كل يوم، وربما اقترب من أحدهم فجأة، أثناء دوران الحشيش، فيدقق النظر فيه للحظات، غير مبال بأمارات الذعر على وجه الرجل، ورجاءات التهدئة من الحاضرين، ثم يجلس مستعيدًا هدوئه، وقد سلم بأنه ليس هو. وقيل أيضًا إنه يشتري المرايا بجنون، ويقضي نهاراتٍ بطولها أمامها، يعلمُ الله هل كان يحاول أن يتذكر الوجه الذي كان له، أم ليتذكر الأعين الغادرة التي حرمته هذا الوجه للأبد.

لم يطلب شيئًا من القُلل في رجوعه هذه المرة، ومع ذلك سمع صوتها، من ورائه، يُساءله: "أهكذا تهون عليك العِشرة يا عم أحمد؟"

نساءٌ مسخوطات، جوقةٌ في مأساة إغريقية، أوانٍ شيطانية. ماذا أفعل؟

أجابته القلل، حين روتْ عطشه، في مروره هذه المرة عليها، مع اقتراب بشائر الربيع، قالتْ: احمد ربك يا عم أحمد! وجدنا أخيرًا من يهتم بنا، فلعلّ الله يرسلُ إليك من يروي ظمأك أنت أيضًا!

كاد الشيخ يدمعُ لدعاء القلل المسحورة له، قرب الفجر، غير أنه تماسك وتابع طريقه.

من حارةٍ جانبية تخرجُ امرأةٌ تكاد تكون شابة، ملفوفة في عباءة سوداء وخمار أسود، وتسحب بيدها طفلاً لعله في الثالثة أو الرابعة، يسمعها الشيخ تهمهم، بينها وبين نفسها: "ربنا يهدي العاصي". يجد نفسه يتوقف مقدار خطوة أو خطوتين، لدى سماع عبارتها، ويمنع نفسه من التوجه إليها وسؤالها: هل تقصدينني أنا؟ هل تدعين لي الله؟ هل أنا العاصي الذي يحتاج للهداية؟ لم يبكِ، لأنه كالعادة يعرف ويسكت ويترك الكلامَ لظله، ويكتفي بشراء الزبادي من عبد العزيز، العريس الجديد بوجهه الباسم وجفنيه الثقيلين من أثر المخدر. يسأله الشاب، رافعًا أيَّ كلفة قد يخلقها فارق العمر، مستندًا على تواطؤ الكيف: هو ربنا مش هايتوب علينا من الترالم لم ده يا عم رجائي؟ فيجيبه الظل دون أي تردد: "ربنا يهدي العاصي!" يتأمل عبد العزيز كلمته بإمعان، ويكررها مُحرِّفًا قليلاً: "ربنا يهدي الجميع!"

اسمع يا أحمد، يا عم أحمد، يا شيخ أحمد، اعتـــبرني ضـــميرك، أو ظلك أو حتى شيطانك، ولكنك ملكي، بجرةِ قلم أستطيعُ أن أمحــو أيَّ أثرٍ لك من الوجود. أنت لستَ شخصًا حقيقيًّا، ولا حتى شخصــية في حكاية يكتبها المهرج الصغير، أنت لست نمرًا ولا ماعزًا ولا قطًّا أســود حبيس سجن من أنامل النساء. هذه كلها مجرد صور، أطيــافُ ضــوءٍ تتكسر وتتلون كل لحظة على صفحة مرآة العالم، بعضها يتناسخ مــن بعض ويتوالد من بعض، دون نقطة أصلية للرجوع، لذلك أنت تظــل ترجع دون أن تصل، على الرغم من أنك الآن في المترل، وهيأتَ للنوم، لكنك تعلم أنك في اللحظة نفسها، مازلتَ تسعى على الطريق نفســه، راجعًا للمترل، فلعلكَ الآن تُحدثُ القلل أو تنصت لجملة الأم المسكينة، أو ترمي التحية على روميو، الضحية الأخرى للمرايا. لم تتبقَ لك غــير تجربة أخيرة يمكنك أن تجريها على هذه الفوضى السخيفة التي تســميها حياتك، الموت. أن تجرب الموت وتتذوق طعم ثمرته النهائية، بنفســك، دون أن يدعوك إليه مرضٌ من أمراضك الكثيرة التي تناوشك من وقتٍ لآخر، ودون أن تُفاجأ بزيارة الملاك العجوز لفراشك وقــد تخطيــت السبعين أو الثمانين، وقد تعفنتَ وصرت تقضي حاجتك على فراشك، وبجانبك مرافقٌ يدعو لك الله أن يرحمك ويرحمه. جرّب، لديك مجموعة بديعة من الأقراص مختلفة الألوان والأغراض، ونصف زجاجة فودكــا روسية رائعة، ألن تكون ميتة هانئة، وعلى الجانب الآخر من المرآة، بعد أن تعبره ستعرف إذا كنت طيفًا وهميًّا حقًّا أم أن هناك أيَّ شيء حقيقي وراء هذا الوجه المرواغ المتبدد كل لحظة.

يجلسُ الآن على أحد المقاعد الرخامية المستطيلة، بعد انقضــاء يــوم

العمل، بمحطة مترو ضواحي الجيزة، أم أنها محطة أم المصريين؟ أحيانًا هذه وأحيانًا تلك، كما أنه أحيانًا أحمد وأحيانًا رجائي، وعلى لافتات المحطة نفسها يتداخل الاسمان، دون أن يتمكن العابر المرتبك المستجد من تحديد أيهما القديم وأيهما الجديد، أيهما الشيخ وأيهما الشاب. لا يجلس وحده مع ذلك، إمعانًا في تأكيد حقيقة وجوده لنفسه على الأقل، تجلسُ بجانبه إحدى بناته المترجمات بالشركة. يسمهين بناته، ويقلن هُنّ في بعض الأحيان بابا أحمد، بدلا من أستاذ أحمد أو عم أحمد، وأحيانًا يقلن بابا رجائي. يعتبرنه الأب، لا لفارق السن فقط، ولكنه لأنه يعاملهن كوالدٍ لهن، ودائم الدفاع عنهن ضد خبث الرجال وسخف الرجال. لم يمض على زواج ابنته هذه العام وسرعان ما بدأت تتعكر المياه بينها وزوجها لأسبابٍ بعضها غامض، وقليل منها واضحٌ كالشمس. كان عليه أن يطرد من ذهنه شبح شابيْن آخرين، فتى وفتاة يطاردانه في صحوه ومنامه وغيبوبته. كان عليه، بوصفه يلعب دور الأب في هذه الحكاية، أن يُذكر ابنته هذه بماضٍ قريب، أيامَ كانت تستأذن من بابا أحمد للانصراف مبكرًا ساعتين أو ثلاث، لتذهب بصحبة خطيبها، المنتظر على متن الفسبة تحت العمارة. فتخرج معه ليسرقا الوقت بين ضغوط العمل وهموم الاستعداد للزواج، فيدخلا السينما أو يتناولان الطعام بالخارج، أو ما تسمح به الأحوال المالية. و لم تكد البنت، في جلستهما تلك تسمعه، وكأنها في غِنى عمّن يذكرها بذلك العهد القريب، أو لعلها كانت تراه الآن ماضيًا بعيدًا يكاد يندثر، إذا ما قورن بالحاضر المُرّ. وانهمكت في ترديد لحنها الحزين: "قبل الزواج كان شيئًا آخر، كان يثق بي، ويمنحني إحساسًا بالحرية والأمان. أما الآن فلا أدري. تحول إلى رجلٍ آخر يا بابا أحمد، رجل غريب، غيور وشكاك وكثير

المطالب. لم أعد أعرف من هو، لم أعد أعرف كيف أرضيه وماذا يُرضيه أصلاً. تصوّر أنه بدأ يطالبني بترك العمل، رغم أننا اتفقنا من الأول. وانضم إليه الآخرون، حتى ماما، وخصوصًا بعد.." وخفضت عينيها نحو بطنها، ومسحت بيدها على بروزه الهين.

لو ترك أحمد رجائي لنفسه العنان حقًّا لقال لها ما لا تحب سماعه، لأخبرها بأن ما خفي كان أعظم، وأن الوهم حين يزول لن تجد أمامها إلا خواءً وظلامًا. يزعجكِ الآن تغيرٌ طارئ على خلقه وسلوكه، بعد أقل من عام، فانتظري عامين أو ثلاثة أخرى، انتظري حتى يختفي آخر أثر لجسد البنت الذي لا تزالين محتفظة ببقاياه، انتظري حتى تُنجبي هذا العيّل ثم الذي يليه والذي يليه، وانتظري حتى يتكشف لك وجهُ الحب عن المسخ الذي يخفيه. متى فقدَ الإيمان يا رب؟ في أي لحظة؟ في أي مكان؟ وهل كان مؤمنًا بأي شيء ذات يومٍ بعيد؟

لكنه لا يرخي زمامه إلا أمام أوراقه، وفي محبسه، حيث يتخيل نفسه اثنين يتنازعان ابتكار حياته الحقيقية أو المتخيلة، أما هنا فلا يفعل، يُشفق عليها كما يمتلئ شفقةً على كل الصغار والشباب من حوله في كل مكان. فوّتا معًا، هو وابنته العروس الحبلى، قطارًا آخر، وأخذ يشرح لها، مثل إنسانٍ حقيقي وليس وحشًا بالمرة، أن أصعب ما يمر به أي زواج هو صدمة السنة الأولى، حين يتساقط الطلاء الوردي الخارجي، وتنكشفُ التفاصيل التافهة، وإذا تم اجتيازها بنجاح وحب فلا خشية على هذا الزواج من أي شيء آخر. بل نجح في اختلاق بعض النوادر الساذجة، ونسبها إلى زيجته الأولى والأخيرة بماجدة ابنة عمه، مع

استثناء أو تناسي الورقة الساذجة التي كتبها ليرقد مع حنان في الحلال، رغم زوجها المسجون. ماجدة وحنان، أول تجارب الجسد وآخرهن، تقريبا، وحولهن طابورٌ طويل من العابرات وبائعات المتعة. تبددتْ غيمةُ الأسى قليلاً عن وجه ابنته المترجمة، بملامحها السمراء المسمسمة، بل جرّها إلى أن تضحك وتقهقه وهي تموت خجلاً وتشرب وجهها بالحمرة، إذ روى لها نُكتة القطن المدسوس في سوتيان عروسة واحد من أصحابه، وكيف جمع محصول القطن ليلة الدخلة. وهنا، وبعد أن تراجعتْ عنها موجات الضحك،راحتْ تحكي له ما جرى هذا الصباح نفسه، في عربة السيدات بالمترو، في طريقها إلى العمل، في محطة سانت تريزا، وقبل أن ينضمَّ مصراعًا الباب بشبر واحد، انسلت إلى داخل العربة قطة سوداء سمينة بفراء ثقيل ناعم حلو الرائحة.

شهقتْ واحدة من البنات ما إن أحستّ بالجسم الدافئ يمر بجانب كعب قدمها، وعلى شهقتها انتبهت الأخريات، فأفسحن مجالا شبه دائري، لتتحرك فيه القطة كما تشاء، أو ربما تجنبًا لملمس فروها المدغدغ للسيقان والأقدام وتلك القشعريرة الكهربية المثيرة التي تبثها فيهن.

القطة، مثل نمرٍ حبيس في قصيدةٍ كتبها رجلٌ أعمى أو يقترب من العمى مع كل كلمة، لا تكاد تستقر بموضع، حائرة تروح وحائرة تجيء، في المساحات المحدودة، بين الأقدام في زحام عربة السيدات بساعات الصباح الأولى. رُوح العالم القلقة المضطربة التي نحملها وتحملنا، وترمي إلينا بالمصادفات والألغاز، لمن له عين يرى ولمن له أذن يسمع، وإن لم تكن روح العالم تتجسد في هيئة قطة سوداء بعربة السيدات، فأي هيئة أخرى تتخذ؟ تنقل أقدامها الأربع في خفة

وانسيابية، وهي تتمشى في دوائر بين السيقان اللدنة والمربربة، وكل جسدها تحفّز وتربص. ثم راحت تتمسح بهن عن عمد، كأنما تستأنس بهن في الجو الغريب المرهب، أو طلبًا لحماية ما من خطر مجهول وكامن، لكنها تشعر به يقينًا لا يساوره شك.

لاحظت إحدى الراكبات الخصيتين الصغيرتين المتدليتين من تحت الذيل، فأفلتَ منها الإعلان الصريح: "ده ضكرا"

رحن يتضاحكن ويبسبسن له، ويسمونه بأسماءٍ من قبيل مشمش وليل وسمارة..

ونعمان ونمر وليث وغضنفر،

وصاحب الصولجان،

وعمود البنيان،

وموقد الأفران،

والمكيال والميزان.

ثم تقدمت الجارية الثالثة وقبّلتْ الأرض، وقالت أما أنا فكنت امرأةً مستورة غنية كثيرة الدراهم وكنتُ أعشقَ خلق الله تعالى في المُردان، وكنت أنفق عليهم النفقات الكثيرة وأكسوهم الكساوى الجميلة فدخلتْ عليّ جارتي في بعض الأيام فوجدتني حزينة من أجل كلامٍ جرى بيني وبين من أحبه وقد غضب علي فسألتني عن حالي فعرّفتها بحديثي، فقالت تستاهلي أكثر

من ذلك لأنك تركت الرجال الفحول الأقوياء العارفين بأمور العشق وأبواب الجماع وملتِ إلى أوغاد الصبيان ممن لايعرفون أمور العشق ولا يدري كيف ينيك ولا يواصل ولا يهجر. قالتْ فدخل كلامها في أذني والتفتُّ لنفسي وقلت لها ياجارتي أنت تعلمين أني امرأة لا صبرَ لي على الجماع، فماذا تشيرين عليّ به، فقالت إذا كان الغد فتعالي عندي لأعرفك مِن ذلك ما لا تعرفينه، فتدخل عليّ من ذلك مسرةٌ عظيمة. فلما كان من الغد لبستُ أفخر الثياب وتبخرت وتعطرت ومضيتُ إليها، وكان لها أخٌ ظريف من أحسن الشباب، وكان له زمان يطلبني فلا أطاوعه، ولم أكن مكنتُ من نفسي رجلاً فلما دخلت إليها وثبتْ إليّ واستقبلتني أحسن استقبال وأكرمتني وأجلستني في صدر البيت، وإذ بأخيها قد دخل، فلما رآني بادر إليّ وقبّل يدي ورجلي وقال هذا والله يومٌ مبارك ويوم سعيد ونهضت وقدمت المائدة ووضعت ألوانًا من الطعام فأكلنا وغسلنا أيدينا وقدمت صينية فيها قنينةٌ مُلئتْ شرابًا وقدح فملأت أخته وجعلت تسقينا ونحن نشرب وهو في خلال ذلك يتناول منّي البوسة بعد البوسة ويضمني إليه وزال الحياء من بيننا ودبت الخمرة في رؤوسنا فطلبت نفسي النيك وهو أكثر مني فأدخل يده من تحت ثيابي وجعل يجسّ سائر بدني ويدقُ على سرتي

وأعكـــاني وجبهة رحمـــي فقـــالت أختـــه قم إليهـــا فلا شيء إلى هـــاهنـــا إلا النيك. ثم إنها خرجت عنـــا وأغلقـــت البـــاب ثم زعقت لأخيهـــا وقـــالت لـــه إن هـــذه زهقت مضـــاجعـــة الولدان، وأنا التي أشـــرت عليهـــا بمصـــاحبـــة الرجـــال، ومـــاجـــاءت إلا لتختبرك، فلا تُبقِ مجهـــودًا، وأريـــدُ منـــك أن تشفي فرقتهـــا، وتُنسيهـــا كـــلّ أمرد ولَـــد عشقتـــه، فقـــال لهـــا سمعـــاً وطـــاعـــة، ثم إنـــه عـــاد إليّ وقـــد خفف ثيـــابـــه وأغلق الباب وكشف عـــن إيرٍ مـــارأيتُ في عمـــري أكبر منـــه ولا أعظم، وجـــاء حتى جلس بين أفخـــاذي وأخذ أوراكـــي في وسطـــه، وأخذ بيـــده بصـــاقًا كثيرًا وطلى بـــه ذكره، وجعـــل يحك بين أشفـــاري وتواني وأنـــا لاأصـــدق أن يولجـــه فصـــبّ الجنـــابـــة من تحتـــه مرارًا عـــديدة، وعـــاد لـــذلك إلى أن غبتُ عـــن الوجـــود واسترخيت وأولجـــه فوجـــدتُ لـــذةً لم أجـــد في عمـــرى كلـــه مثلهـــا، وكـــان كلمـــا قارب الفـــــراغ أخـــــرجـــه وبرده عـــلى باب رحمـــي ثم يعـــاود لذلك، فلـــم أزل كذلك ســـــاعـــة ثم قـــال: كيف ترين هـــذا مـــن نيـــك الصبيـــان؟ فقلت لاعاشت الصبيـــان ولابقـــوا، فقـــال أبشـــري سأذيقك مالم تذوقيـــه عمـــرك كلـــه. ثم إنـــه عـــاود الرهـــــز ومسك رؤوس أكتافي وجعـــل يدفـــع عـــلى دفعـــاً صـــلبًا بـــلا شفقـــة حتى إذا قـــاربنا الفراغ أخرجـــه وبرده عـــــلى بـــاب رحمـــي ثم عـــاد إلى الرهـــز ســـــاعـــــةً ثم ضـــمني إليـــــه وجعـــل يقطعني بوســـــاً حتى أفرغنـــا جميعـــاً وجذبـــه منّـــي

وقـــد جذب روحـــي معـــه وهـــيج شـــهوتي وألهـــب غلمـــتي وأنســـــاني عشق كـــل الصبيـــان في الدنيـــــا، و لم أزل أنـــــا وإيـــاه حتى ســــــافر و لم يرجـــع فواأسفـــاه عـــلى يـــومٍ مـــن أيـــامـــه وســـاعـــةٍ من ســـاعاته.

وأحمد يتخيلُ المشهد ويعيدُ رسم تفاصيله جزءًا جزءًا. غلامًا تحت البطانية في ظلام غرفته، يحاول أن يريق ماءه قبل أن يستيقظ أبوه لصلاة الفجر، أو شيخًا يجالس ابنته المُفترضة على رصيف محطة مترو لها اسمان، مثله.

يتخيل إحدى الراكبات وقد وثبتْ إذ لمستها شعرات فراء القـــط المتصلبة النافرة مثل أشواك خشنة كثيفة تغطي صدر رجل فحل. يقولُ لنفسه لعلّ النساء في العربة اعتبرن القط هاربًا من شيء أو من شخص، ولعلّ البنات اعتبرنه باحثًا عن شيء أو عن شخص. ونسي ابنته المترجمة الماثلة أمامه تحكي ببساطة، وحجابها زرعي الخُضـــرة يغطـــي نصـــف جسدها تقريبا، ولا بد أنه يخفي تحته قططًا كثيرة وحائرة ما بين البحث والهرب.

إلى أن تقترب واحدة منهن بما يكفي لتقرأ العبارة المحفورة علـــى الطوق الجلدي للقط: "مكافأة مجزية لمن يجده". رفعت صوتها بما قرأتـــه فانتبهت الأخريات، ثم بقية الراكبات. وحفر على الطوق أيضًـــا رقـــم هاتف محمول، واسم رجل: جمال عزيز، وها هو ذكر آخـــر ينجـــح في

التسلل، باسمه وملكيته إلى عربة السيدات، فهل كان عليهنّ أن يستدعين الشرطة ليدفع المتطفلان الغرامة أو يتم احتجازهما؟ ولكن لعلّ الصيد صيدان، وصاحب القط يجمع في اسمه بين العزة والجمال، وكلُّ جمال عزيز. ولعلها أيضًا لعبة رخيصة من أحد هواة المقالب. المهم أن الشقاق اندلع في صفوف السيدات والآنسات، وعلت أصواتهن وكل منهن تطالب بحق ملكيتها للأسير الأسود الثمين.

في المحطات التالية تم احتجاز القط عنوة، لكي لا يفلت من القفص المحكم، إلى أن تتحدد نتيجة النزاع. والحيوان الأعجم يكاد يجن كلما خطف بصره انفتاح أبواب العربة وأضواء المحطات وضجيجها واندفاع الداخلات والخارجات. يحاول أن يتملص من الأيادي الناعمة التي تتقبض عليه، بين أظافرها المطلية والشفافة والمتسخة والمقروضة. كان يهر ويخرخر ويزمجر ويموء ويعوي بلا فائدة، يخمش الأرض ويرفع قدميه الأماميتين فيهن مهددًا، ولعله ودّ لو يمتلك ساعتها لسانًا بشريًّا لينطق ويدافع عن نفسه، ليسترحمهن ويجأر مستغيثًا. ضحك في نفسه من خيال هذا الأسير الجميل، ووجد عنده شبهًا به، لم يقل هذا بالطبع للابنة، لم يقل إني أرى نفسي في هذا القط، وإنه الآن لم يعد —كما كان في بداية الحكاية— يرمز إلى روح العالم القديمة المؤنثة، بل إلى الذكورة الحبيسة والمُهددة طوال الوقت بداخل كل رجل، يجسد صورتي، محاطًا بأسوار من أذرع النساء وأقدامهن، رغم فراري منهن طوال عمري، أعذب السجون وأشدها وطأة على أبناء آدم.

كانا لا يزالان جالسين على رصيف المحطة، وقد مر من أمامهما، خلال الثلث ساعة، ثلاثة أو أربعة قطارات. لم يكن هناك سواهما، الأب الفالصو والابنة الافتراضية. من الرصيف المقابل يبزغ أمامهما فجأة

عسكري، لم يؤذن له بعد بالتخلي عن زيه الشتوي الأسود الثقيل، رغم تغير الجو. توجه إليهما بالحديث قائلا ما معناه إن عليهما ركوب القطار القادم، فهذه ليست استراحة.. وإلا..

وكان عم أحمد منشرح الصدر، هائمًا مع خيالات نساء حياته كلهن، وهنّ يطوقن قصته كما طوقت راكبات عربة السيدات ذلك القط، لذلك لم يترعج من تبجح بيدق الشطرنج هذا، ولا ضاق بتهديده الهش، فتجاهله وتظاهر كأنه لم يسمع شيئًا.

رغم ذلك أعاده العسكري إلى قبضة الشك بأن هذا كله مرسوم ومفتعل ومزور. بدا له غير حقيقي بالمرة، دون أن يكون حتى شخصية في رواية، بوليسية كانت أم عاطفية مفعمة بالمشاهد الساخنة. رآه أقرب إلى دميةٍ بلاستيكية لا تملك ضرًّا ولا نفعًا، دمية متهالكة، قد تثير الضحك أولاً، ومع الإنعام في تأملها لأصابتنا مسحة من الشجن والانقباض.

كرر العسكري إنذاره فشعرت الشابة بالحرج. وضع عم أحمد يده حول أذنه اليمنى، ناظرًا نحوه بعينين مستطلعتين، مثل ثقيل سَمَع حقيقي، فاضطر لإعادة تحذيره للمرة الثالثة بصوتٍ عالٍ وصبرٍ جميل لا يتناسب بالمرة مع تهديده. عندها قالت الابنة الطيبة للأبِ المُحب للقطط، لنعومة القطط وغدرها على السواء، إن العسكرى يريد منا أن نركب أول قطار يصل. فأخبرها أنه يسمعه بوضوح فلم تتمكن من كتمان ضحكها، ولشدة ضحكتها وضعتْ يدًا على بطنها وأخرى على وجهها. هنا أدرك العسكري ما يُوجه إليه من سخرية، فتغيّر لونُ وجهه وحوّل ناظريه عنهما، وأخذ يتأمل الدوائر التي يرسمها في طيرانه سربٌ

من الحمام في سماء آخر النهار. أوشكَ عم أحمد أن يطيّب خاطره، وخشي أن يزيد هذا من سوء ظنه به. كانت دمية العسكري في هذه اللحظة تعاني أزمتها الوجودية، إذ ينكشف أمامها أخيرًا أنها مجرد دمية. فرك أحمد عينيه ثم أعاد وضع نظارته، وسأل البنت: والقط؟ ماذا عن القط؟ أريد أن أطمأن على القط؟ فأجابت على الفور: نجح في الهرب طبعًا!

فإذا بعم أحمد يتنفس عميقًا بارتياح، وكأنّ هذا سيحدد مصيره هو نفسه. سوف ينجو من الأسر، سوف يتخلص من شاب وشابة يحرسان موته ويسجلان أوهام غيبوبته بدقة. لن تكتمل صورةٌ له، ابنه هو الشخص الوحيد في هذه الحكاية الذي أدرك كيف يجب أن يُرسم الشيخ، ربما لأنه بلا وعيٍ منه لا يريد أن يأسره مثل الآخرين.

يرى الآن القط الأسود، ينفلتُ من بينهن، بخفةٍ ومرونة، مضغوط الجسد، من بين الأيادي البضة والأكف الباردة، من بين الأصابع التي اخشوشنت من غسل المواعين ودعك البلاط، من بين الأنامل المدببة والأصابع الطويلة النحيلة، أو حتى القصيرة الغليظة ذات العقد، الخواتم ودبل الزواج والخطوبة. تسرّب من بينها مثل ماء يتسرّب مع الأيام والليالي، والغسيل والتنظيف والطبيخ. بعيدًا عن الأساور الذهبية والحلي الزائفة، عن طلاء الأظافر ورسوم الحنة. فرّ بجلده ليعود إلى حرية الشوارع أو حتى إلى وكرٍ صغير، مُحكم الإغلاق على وحدته، وعلى صورة وجوهه الكثيرة.

راح يتأمل وجهه في مرآته لمرةٍ أخيرة، كما تأملها أول مرة وهو لا يزال شابًا ومخدرًا ومرعوبًا من الموت. لم يعد ير شيئًا، تحسسها مُحاولا اكتشاف أي وجهٍ يرنو إليه من الجانب الآخر للمرآة الآن، وبـدأ أثـر السم ينهش معدته، وغاب كل شيء في نفخة هواء أخيرة.

يرفعُ أحمد عينيه عن دفتر أحمر الغلاف، كل صحفاته بيضاء تمامًا. يرى أمامه مُنى ورجائي الصغير، متشابكي اليدين، وكأنهما قد أصـبحا مخلوقًا واحدًا غريبًا.

يقولُ الصغير: اطمئن، سأنشر الرواية باسمي، ولكن صورتك أنت، أو صورك، ستكون مطبوعة على جميع صـفحاتها، باسمـك المُركّـب وصداقتك لظلك وغرامياتك البائسة وحياتك الأنانية.

يتساءل الشيخ: هل حان الوقت؟

يؤمي رجائي الشاب برأسه: لم تتبقَ إلا بضعة سطورٌ في الـدفتر الثاني الذي أهديتَه لي.ورغم أني لم أكتب فيه كلمـة واحـدة، فـإن صفحاته كانت تتطاير كأوراق الخريف كلما تقدمت بنا هذه الحكاية. أنت صاحب القرار، كما تذكر جيدًا، أنت من كان يملي علـيّ كـل شيء.

أراد أن يعرض عليهما اقتراحات أخرى، سبيلاً جديدًا يمكـن أن تمضي فيه هذه الرواية لبعض الوقت، أن يؤخر السطر الأخير بأية وسيلة، لكنْ كبرياؤه غلبته فسكت.

سند رأسه على مسند المقعد وقال لهما: ليكن ما يكون.

نزل جميعُ الركاب في محطة شبرا الخيمة، آخر محطات المترو، عدا راكبًا واحدًا، كان نائمًا من منتصف الرحلة ويبدو غائبًا عـــن الـــدنيا، وظلّ نائمًا دون أن يلحظه أحد. انطفأت الأضواء، وترددَ صوتٌ خشن يعلن أن العربة تخزين، ثم انغلقت الأبواب كلها.

وعندئذٍ يغيبُ كل شيء في نفخة هواءٍ أخيرة.

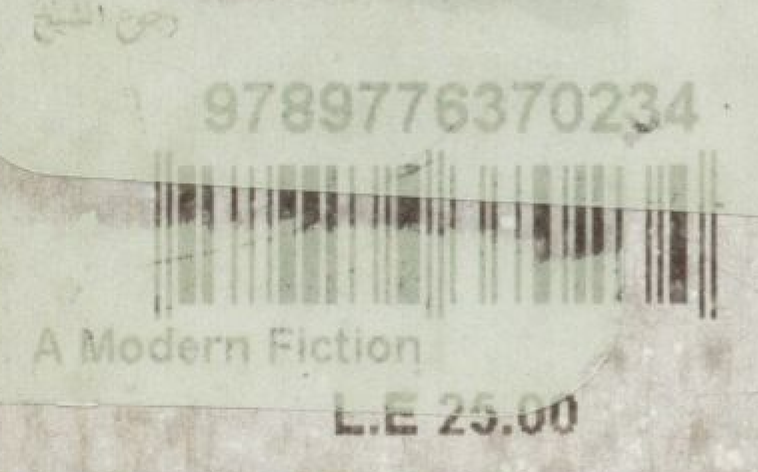


"شاقاً طريقه فى شارع منية السيرج، مسلياً نفسه بالحديث إلى ظله الوديع الماكر، أخذ عم أحمد رجائي يدفع عنه جيوش الصور والمشاهد والذكريات، لا لأنه ينفر منها ويصدها، بل لأنها ترد إليه جماعات متداخلة ومتشابكة ومختلطة، وهو يريد استقبال كل منها على حدة ذكرى ذكرى ومشهدًا مشهدًا كما يجدر بروائى حصيف وماكر. ولكن من سيكتب كلمة النهاية ؟ من هو الروائي بين كل هؤلاء ؟"

رجوع الشيخ هي رواية محمد عبد النبي الأولى، بعد سنوات القصصية، أحدث ما نشر خلالها بعد أن يخرج الأمير، و القصصية شبح انطون تشيخوف، الفائزة بجائزه ساويرس للقص للشباب عام 2010



صورة الغلاف: أمنية عبد الرحمن


9789977637023 4
A Modern Fiction
L.E 25.00

